

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خصائص الأمة الإسلامية الحضارية

كما تبينها سورة المائدة

تأليف

د. إبراهيم زيد الكيلاني

رئيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة

تأليف

د. إبراهيم زيد الكيلاني

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

٢٠٠٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٤/٦/١٤٨٢)

٢٦٩

الكيلاني، إبراهيم زيد

خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة

المائدة/ إبراهيم زيد الكيلاني.. عمان: المؤلف، ٢٠٠٤.

() ص.

ر. أ: (٢٠٠٤/٦/١٤٨٢)

الواصفات: / الإسلام // القرآن // الثقافة الإسلامية/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

اللؤلؤة للتصميم

+٩٦٢ ٦ ٥٦٥٩٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، وعلى آله وصحبه
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..

فإن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية من خير البيان الذي يجلي وحدة السورة
ومقاصدها ويبرز المعجزة القرآنية في ترابط الآيات بعضها ببعض واتصالها بموضوع
السورة ومقاصدها.

وقد تنبه العلماء في هذا العصر إلى إبراز الوحدة الموضوعية للسورة، وأذكر
منهم الإمام العلامة محمد عبد الله دراز والأستاذ العلامة سيد قطب والعلامة الشيخ
محمود شلتوت والعلامة الشيخ محمد محمد المدني رحمهم الله تعالى^(١).

وقد أحسن الشيخ المدني في بيان هذا المقصد بقوله: «إن في كل سورة من سور
القرآن روحاً يسري في آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها.
ومن المعروف أن رسول الله ﷺ كان يأمر بوضع الآيات التي نزلت منجمة في
مواضعها من السور، بوحي من الله، وما كان ذلك إلا للحكمة، وهذه الحكمة هي التي
يحرص علماء التفسير الموضوعي على تجليتها لاستدراك ما فات العلماء السابقين في
هذا الجانب وليكونوا أقرب إلى عصرهم في تجلية مقاصد القرآن الكريم وإبراز الوحدة
الموضوعية في السورة القرآنية».

(١) دراز وكتابه (النبا العظيم)، وسيد قطب وتفسيره (في ظلال القرآن)، ومحمود شلتوت وتفسيره (الأجزاء
العشر الأوائل من القرآن الكريم)، ومحمد محمد المدني وكتابه (المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء).

«ومن الواضح أن سور القرآن الكريم مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص، وروح يسري في نواحيها - لا يمكن أن تعدّ فصولاً أو أبواباً مقسمة منسقة على نمط التأليف التي يؤلفها الناس ومن أراد أن يفهمها على ذلك أو أن يفسرها على ذلك، فإنه يكون متكلفاً مشتطاً يحاول أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذي هو التنقل والمراوحة والتحوّل، وبث العظة في تضاعيف القول، والوقوف عند العبرة لتجليتها، والتوجيه إلى مغزاها، وانتهاز الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة، والمبادئ القويمة.

إن هناك فرقاً واضحاً بين من يحاول أن يفعل ذلك، ومن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح الساري، والبيئة المعنوية الخاصة التي تجول فيها السورة، دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن سنته وأسلوبه الذي انفرد به، وكان من أهم نواحي الإعجاز فيه».

«والخلاصة أن القرآن رأس بذاته، له مقاييسه ومثله ومبادئه، وبهذه المثل والمبادئ جعل الله المسلمين أمة وسطاً، وجعلهم شهداء على الناس، أي إن أحكامهم وطابعهم ومثلهم هي الشهيدة على العالم، وهي المقاييس الصحيحة التي يرجع إليها الناس جميعاً ويستشهد بها الناس جميعاً، وتعديل بها الأذواق والأحكام والمناهج، لا أن تكون هي المعدلة والملونة بأذواق الآخرين وأحكام الآخرين ومناهج الآخرين»^(١).

وقد رأيت أن سورة المائدة من أعظم سور القرآن الكريم التي تجلّي بوحدها الموضوعية خصائص الأمة الإسلامية الحضارية التي أعدها الله لتكون معلمة للبشرية شاهدة عليها، وسأبذل جهدي بإذن الله في تجلية هذه الخصائص التي ترينا منهج القرآن الكريم في الإعداد والتربية من خلال النقاط التالية:

(١) محمد محمد المدني - المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء ص (١-٣).

مَهَيِّدٌ

أ - الجوالذي نزلت فيه السورة، والمرحلة الزمنية من عمر الدعوة.

ب - خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، كما تعرضها السورة.

١- الوفاء بالعقود وبناء الشخصية الحضارية.

٢- القيام بالعدل وإقامة دولة القانون، والتعاون لنصرتة وضمان حرية الناس في

تنقلهم وحفظ كرامتهم وأموالهم.

٣- الاعتراف بالآخر ولو اختلفنا معه في العقيدة.

٤- حماية الحياة البشرية وصيانتها.

٥- حماية أموال الناس وصيانتها.

٦- التميز الحضاري عن عادات الجاهلية في المطاعم والذبائح والمشارب.

٧- إقامة مجتمع العفة والطهر والمحافظة على الأعراض والأنساب، وذلك بالتميز

الحضاري عن عادات الجاهلية وتساهلها في العلاقات بين الرجال والنساء

واستباحة المحرمات.

٨- إقامة المجتمع الإسلامي على قيم العبادة والذكر والطهارة الجسدية والروحية.

٩- ترسيخ وحدة الأمة بغرس قيم الولاء لله ورسوله وجماعة المؤمنين، وتطهيرها

من الولاء للأجنبي، وإغلاق أبواب الفتنة والتجسس للأجنبي وحماية أمن

المجتمع.

١٠- التذكير بدور العلماء في تحقيق هذه الوحدة.

١١- تعميق الوعي الإيماني بأصول العقيدة الإسلامية وبيان فساد عقائد أهل

الكتاب وما أصابها من تحريف وتغيير.

الجو الذي نزلت فيه السورة:

نزلت هذه السورة بعد أن اشتد عود الإسلام في المدينة المنورة، ورسخت أركان الدولة الإسلامية، واستقام للنبي ﷺ أمر العرب، وأمر المنافقين، ولم يبق في عناد الإسلام إلا اليهود والنصارى.

ويبدو أن السورة نزلت منجّمة وأن الفترة الزمنية لنسزولها كانت ممتدة بعد صلح الحديبية الذي حصل في السنة السادسة والنصف للهجرة النبوية إلى عام حجة الوداع.

وقد وردت الروايات في نزول بعض آياتها بعد الحديبية وبعضها في حجة الوداع كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. (١)

وهذه الفترة الزمنية الممتدة من السنة السادسة إلى العاشرة للهجرة قبيل التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كانت من الأهمية بمكان لاستكمال شرائع الإسلام المتصلة بوجود الأمة الإسلامية وهويتها، والحفاظة عليها وترسيخ القيم الإيمانية والتربوية في بناء الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي، فقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة، وذكر القرطبي أن فيها تسع عشرة فريضة ليست في غيرها، وذلك لاستكمال شرائع الإسلام، وترسيخ دعائم المجتمع الإسلامي وتميزه الحضاري والتشريعي.

«وقد احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله في الحج والشهر الحرام، والنهي عن بعض المحرمات من عوائد الجاهلية مثل الأزلام، وفيها شرائع الوضوء، والغسل، والتيمم، والأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشهادة، وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحرابة، وتسلية الرسول

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور / مقدمة سورة المائدة .

ﷺ عن نفاق المنافقين، وتحريم الخمر والميسر، والأيمان وكفاراتها، والحكم بين أهل الكتاب وبين المشركين والمنافقين، والخشية من ولايتهم أن تفضي إلى ارتداد المسلم عن دينه، وإبطال العقائد الضالة لأهل الكتابين، وذكر مساوٍ من أعمال اليهود، وإنصاف النصارى فيما لهم من حسن الأدب وأنهم أرجى للإسلام، وذكر قضية التيه وأحوال المنافقين، والأمر بتخلق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحلّ لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس، والتذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريف بما وقع فيه أهل الكتاب من نبد ما أمروا به والتهاون فيه، واستدعائهم للإيمان بالرسول الموعود به، وختمت السورة بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى، وتمجيد الله تعالى»^(١).

ويجد الدارس في بيان العقائد الضالة لأهل الكتاب إعداداً فكرياً وإيمانياً لهذه الأمة الشاهدة المحررة ولتكون لغة الحوار والفكر سلاحها الأول وهي تسعى لتحرير الأرض من الأنظمة الجاهلية الفاسدة الظالمة الحاكمة في الأرض وقتئذ.
كما نجد في السورة وأحكامها وقيمها ترسيخ أصول مجتمع الهداية والدعوة ليكون القدوة المعلم في أخلاق أبنائه وسلوك حكامه ومحاوره علمائه.

❖ أسماء السورة:

ولهذه السورة أسماء متعددة وهي:

- ١- سورة المائدة لأن فيها قصة المائدة التي سألتها الحواريون من عيسى عليه السلام.
- ٢- وتسمى أيضاً سورة العقود: إذ وقع هذا اللفظ في أولها.

(١) ابن عاشور (ج٦-٧٣).

٣- وتسمى أيضاً (المنقذة). ففي أحكام القرآن لابن الفرس: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات المنقذة» قال: أي أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب.

٤- سورة الأخيار، وفي كتاب كنايات الأدباء لأحمد الجرجاني: ((يقال فلان لا يقرأ سورة الأخيار، أي لا يفني بالعهد، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمون سورة المائدة سورة الأخيار)).

والتأمل في معاني أسماء السورة يجد لفتات إيمانية، فاسم المائدة يذكر بالمعجزة التي تنفخ القلوب بالتثبيت، وطلب الحوارين أنصار عيسى عليه السلام مائدة تزيد قلوبهم تصديقاً وثباتاً.

واسم السورة "العقود": التي تميز المسلم بوفائه بعقوده مع الله، ومع الناس ليكون الإنسان المؤمن الحضاري الذي يلتزم بكلمته، ويفي بعهده أميناً صادقاً.

والسورة المنقذة التي تصور هدف الشريعة ومقصدها في إنقاذ أهلها من النار، وتحملهم إلى عليين، وتنقذهم من رجس الهوى والمعصية والجاهلية.

وهي أيضاً سورة الأخيار، وكأها عنوان للمجتمع القرآني، مجتمع الأخيار الذين اجتباهم الله ليكونوا خير أمة أخرجت للناس بصدق إيمانهم، ونصرة دينهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإقامتهم لحدود الله، والتزامهم بأحكامه، وتحليلهم بأخلاقه، واستقامتهم على طريقه، وقد وجدت في هذه السورة العظيمة كنوزاً من القيم الإيمانية والتربوية، والأخلاقية، والأحكام التشريعية التي تكوّن الشخصية الإسلامية الحضارية، وتبرز معالم الأمة المسلمة وخصائصها الحضارية، ورأيت أن إبراز هذه المعالم والخصائص في زمن تتعرض فيه الثقافة الإسلامية لمعاول الهدم من أعدائها الذين فرضوا هيمنتهم وتوجيههم على كثير من البلاد الإسلامية، وأخذوا يرسمون لأبناء المسلمين شخصية جديدة، مقطوعة الجذور عن إسلامها وتاريخها وحضارتها،

مفتونة بالغرب، مقلدة له، عاجزة عن الدفاع عن أوطانها ومقدساتها، وهويتها، وثقافتها، واتخذوا من الكتاب المدرسي، والصحافة، والفضائيات، وأجهزة الإعلام المختلفة، وسائل لتحقيق أهدافهم في تغريب الأمة. وسلخها من دينها وثقافتها، وهويتها، كما قاموا بمصادرة وسائل المقاومة التي يملكها العلماء، فمنعوا العلماء الصالحين عن القيام بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبصير الأمة بالأخطار المحدقة، وصادروا المنبر وخطبة الجمعة، وحصروها في أمور لا تتصل بهموم الأمة وجراحها، وعطلوا المسجد عن وظيفته كما عطلوا الجهاد.

فصرنا في فراغين، فراغ الدفاع عن الأوطان، وفراغ الدفاع عن هوية الأمة وثقافتها، وتسلم الأعداء في كثير من البلاد حصوننا وقلاعنا من الداخل والخارج. وفي مواجهة هذه التحديات يفرض الله على العلماء أن يصلوا هذه الأمة بدينها وقرآنها، وأن يعملوا على تجلية أحكامه، وعقائده وتوجيهاته في مواجهة الأعداء، وقد رأيت أن كثيراً من الحكمة القرآنية تضيع في بحر التفصيلات اللغوية والنحوية، والكلامية، مما تصلح أن تكون شواهد في كتب علم النحو، أو البلاغة، أو الكلام، أو غيرها من علوم الآلة، وقد رأيت أن كثيرين من المفسرين كانوا حريصين على تجلية هذه الحكمة القرآنية عقيدة، وقيماً وأخلاقاً، ولكنهم كانوا حريصين أيضاً على استكمال التفسير بتفصيلات لغوية وكلامية وأصولية تشغل القارئ، وتبعده عن الثمرة.

وكذلك ذهب بعض المفسرين للاختصار الذي وقف عند بيان معاني الجمل والمفردات، وذهب آخرون إلى التوسع في موضوع السورة وظلالها والتحليل الأدبي للنص الكريم، وقد رأيت أن المنهج الوسط هو في تجلية مقاصد السورة وأهدافها التربوية، والأخلاقية المتصلة بإبراز معالم شخصية الأمة الحضارية.

ووجدت سورة المائدة من أكثر السور القرآنية وفاء بهذا الهدف، ومن خلال دراستي لكتب التفسير في القلم والحديث وجدت علماء التفسير قد تركوا ثروة عظيمة، وجواهر ثمينة، غمرت ببحوث نحوية وكلامية وبلاغية وفقهية، فانتقيت منها ما وجدته أقرب إلى مقاصد السورة وإبراز شخصيتها، وكان من هذه التفاسير تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا، وتفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور، والكشاف للإمام الزمخشري، وتفسير الألوسي، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد السيد طنطاوي، وتفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم للعلامة محمود شلتوت، وفي ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب، وكذلك ما زحرت به مكتبة التفسير من نفائس كتفسير القرطبي وأبي السعود، والتسهيل لابن جزي، وتفسير النسفي، والمقتطف من عيون التفاسير للعلامة مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق محمد علي الصابوني، وغيرها، وكنت أقتطف من هذه التفاسير ما أجده أقرب إلى تصوير معالم الشخصية الحضارية الإسلامية، ملتزماً بأصول التفسير ومقاصد الشرع وهداية القرآن الكريم.

التفسير (الحركي) أو استحضار مراحل الدعوة وأهدافها التربوية

والاجتماعية والسياسية، لإعداد الجماعة المسلمة للقيام بأعباء الدعوة

وتبليغها، والتمكين لها في الأرض عقيدة وشريعة ونظام حياة؛

وقد وجدت من خلال دراستي للسور المكية والمدنية أن من خير ما يعين على فهم مقاصدها، استحضار أهداف الدعوة في هذه المرحلة، والجو الذي نزلت فيه الآيات، ومقاصد القرآن الكبرى في إعداد الأمة، وإعداد الشخصية الإيمانية الحضارية، وأضرب لذلك بعض الأمثلة باختصار لتسليط الضوء، وتصور المقصود.

ففي سورة النمل مثلاً - وهي سورة مكية - نجد مقصد القرآن العظيم في بيان أهمية المعلومة وحسن توظيفها وإعداد أمة العلم، وتقدير المعلومة الصحيحة والحرص على الحصول عليها، والآثار العظيمة للمعرفة في الهداية، وبناء الحضارة، وإعداد القوة، ومواجهة الأعداء، وهذا ما نلمحه فيما يلي:

١- نجد في مطلع السورة التنبيه العظيم لأهمية تلقي المعلومات من مصدرها

الصحيح الموصوف بالحكمة والعلم بقوله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل/٦].

٢- كيف مكن الله لداود وسليمان عليهما السلام الملك بالنبوة

والعلم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ

الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ

أَدْخُلُوا مَسَكِنَتِكُمْ لَّا يَحْطِمَنَّكُمْ جُنُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

[النمل/١٥-١٨].

٣- وهنا تجلي الآية قيمة الحصول على المعلومة بإنقاذ أمة النمل، كما تجلي

قيمة المعلومة المتصلة بأهداف الرسالة، وحرص النملة على إنقاذ أفراد جنسها وتفهم

النبي القائد لهذا الهدف النبيل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ

عُلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

﴿ ١٦ ﴾ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
 ﴿ ١٧ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّعْمِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّعْمُ أَدْخُلُوا
 مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ ١٨ ﴾
 فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِعَمَلِكَ الَّتِي
 أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
 فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١٩ ﴾ [النمل/١٦-١٩].

٤- قيمة النظام الذي يسهل الحصول على المعلومة بالسرعة الممكنة. وكيف
 تمكن سليمان عليه السلام من معرفة غياب الهدهد من أمة الطير بهذه السرعة التي
 يفيدها الحرف (ف) بقوله: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ
 أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل/٢٠].

وكانه بهذا النظام يذكرنا بمنجزات العلم في القرن الواحد والعشرين، وكيف
 سهل الوصول إلى المعلومات بالأجهزة الإلكترونية.

٥- إبراز قيمة العدل والحزم مرتبطة بالعلم، حتى لا يكون العلم منفلاً عن
 هداية الله فيخرب ويدمر، وهذا ما ينبه إليه قوله تعالى: ﴿ لَاَعَذِّبُهُ عَذَابًا
 شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْنَحْنُهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل/٢١].

٦- قيمة المبادرة في الحصول على المعلومات التي حصل عليها الهدهد وارتباط
 هذه المعلومات بهدف الهداية ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
 بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ
 وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿ ٢٣ ﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي تُخْرِجُ الخَبَاءَ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ ﴿النمل/٢٢-٢٨﴾.

٧- قيمة تمحيص المعلومة وتبين صدقها ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ

مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [النمل/٢٧].

٨- قيمة توصيل المعلومات والسفارة الصالحة للوصول إلى أهداف الدعوة،

وتجنب إراقة الدماء. ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤِ إِنِّي الْيَقِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ
مِنَ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤِ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا
حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَإَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۗ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ
بِهَدْيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ

أَتْمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿النمل/٢٨-٣٦﴾.

٩- قيمة تسخير إمكانيات العلم للإفناع والوصول إلى الهدف. ﴿قَالَ الَّذِي
عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا
رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل/٤٠].

وكيف كان الإتيان بعرش ملكة سبأ بهذه السرعة سبباً في هدايتها وهداية
قومها وكيف كان العلم بالصنعة التي جعلت الصرح الممرد من قوارير يبدو كأنه لجة
ماء سبباً في هدايتها، حين تسلل النور إلى قلبها وأسلمت لله رب العالمين ﴿قَالَتْ
رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل/٤٤].

رغبتُ بذكر هذا الشاهد من سورة النمل بإيجاز لتصوير أهداف القرآن
التربوية بإعداد أمة العلم والمعرفة والحرص على الحصول على المعلومات والآثار
العظيمة للحصول السريع على المعلومات والتمكن من أدوات ووسائل الحصول عليها،
وشمول هذه المعلومات، وآثار ذلك على حفظ نظام الدولة وأمنها في الداخل والخارج.
وكيف يحقق التفسير أهداف القرآن العظيمة في ظل هذا المنهج لاستخلاص
حكم القرآن التربوية من غير غلو ولا تفریط.

سورة المائدة في ضلال هذا المنهج:

المطلع على المدة الزمنية الطويلة التي نزلت فيها هذه السورة وعلى المرحلة
الزمنية من عمر الدعوة التي أصبح فيها للمسلمين دولة وقوة وسلطان، ويعرف ماذا

تعني (السلطة) حين يتمكن منها أصحابها، وما تفعل السلطة في المجتمعات التي تعودت في الجاهلية على حياة السلب والنهب، واستحلال بعضهم لدماء بعض وأموال بعض وأعراض بعض.

والذي يدرس التاريخ الحديث (لأحزاب) وصلت إلى الحكم في بعض البلاد العربية وخارجها، وكيف تحول الوطن إلى مزرعة كبيرة للحزب الحاكم وأولادهم وأصحابهم، مما عجلّ باختيار هذا الحزب في الاتحاد السوفياتي، أو عجلّ بالهزيمة والشقاء والهلاك على أيدي هذه الأنظمة الحزبية الاستبدادية اللادينية.

أقول، الذي يدرس أحوال الأمم والشعوب وما آلت إليه في ظل الاستبداد والقمع وتحكم الحزب الواحد أو الأسرة الواحدة، وغياب الشورى وتغييب الشعب عن تحمل مسؤولياته في إصدار القرار والوفاء بالتزاماته الشرعية والدستورية.

والذي يقرأ هذا التاريخ بوعي، يعرف عظمة الإسلام في أن يكون مطلع السورة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ في بناء أمة العقيدة والمبدأ، والوفاء بعقودها مع الله، ملتزمة بشرعه، ناصرة لرسالته، وبعقودها مع الناس، حافظة للأمانة، راعية للحقوق، متنزهة عن المظالم، والعدوان، متحلية بالعلو الإيماني والخلقي، مستكبرة عن كل ما يشين سمعتها، ويحجبها عن هداية ربها.

لقد كان مطلع هذه السورة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عنواناً حضارياً لأمة الإسلام، كما نجد في تفصيلات السورة ربط القلوب بالله العظيم الذي يشرع لأحكام العبادة، فيحل ويحرم، ويأمر وينهى، ويستثنى مما أحل ما يريد.

وكذلك يجد على أرض بادية العرب، مدرسة إيمانية لأصحاب السلطة الجديدة حيث كانت الأنعام وأهلها في طريقها إلى بيت الله الحرام، وحيث يجد أصحاب السلطة أنفسهم، وقد أصبحت هذه البلاد تحت سلطانهم، والسلطة تغري، والثروة

تغري، والإيمان العظيم، والتقوى، والتربية القرآنية حاجز عظيم تجعل من ذلك كله مدرسة هداية، وتزكية، وعدل، وإصلاح، وتعليم وإرشاد، وترينا كيف تخرج الجيل الأول الذي صنع انتصارات بدر، وحنين، وفتح مكة، ثم فتوحات فارس والروم، وأن هؤلاء الذين وفوا بعقودهم مع الله قولاً وعملاً، وحفظوا أموال الناس ودماءهم هم الذين أقاموا العدل بين الشعوب مع العدو، والصديق، فكان هذا العدل من أسباب هدايتهم ودخولهم في دين الله أفواجاً.

ونلاحظ في مطلع هذه السورة كيف يرتبط التشريع بالتوجيه بالإيمان، فقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةٌ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ سَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ جاء بعد قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ لتستحضر القلوب من البداية عظمة الله وسلطانه الذي يحل، ويستثنى مما أحله، ويحرم، ولينلقوا التكليف الشرعية بنفوس مطمئنة، و﴿إِنَّ اللَّهَ سَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب/٣٦].

فكان الابتداء بذكر بعض المباح ثم الاستثناء منه تعميقاً لأصول الإيمان بأن الله هو الذي يشرع بالإباحة، أو بالتحريم، وأن هبة الله وجلاله في النفوس كفيلاً بتحريها من آثار الهوى، ونزغات الشيطان والعدوان، والتسليم لأحكام الله وشرعه.

وهذا ما وقع في نفس الفيلسوف الكندي حين طلب منه أصحابه وقالوا له: (أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، قال: نعم أعمل لكم مثل بعضه، فاحتجب عنهم أياماً ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف

فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد - جمع جلد - أي أسفار^(١)

وإن دراستنا لسورة المائدة بإذن الله في ظل هذا المنهج كفيلة بأن تسلط الضوء على خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، ونبدأ بالخصيصة الأولى، والله المستعان.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، ج ص التحرير والتنوير / الآية - نقلاً عن ابن عطية

خصائص الأمة الحضارية

الخصيصة الأولى:

الوفاء بالعقود وبناء الشخصية الحضارية:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. هذه الآية تظهر النقلة

الحضارية التي نقل الإسلام بها العرب من حياة السلب والنهب، واستحلال بعضهم لدماء بعض وأموال بعض وأعراض بعض إلى أن تكون أمة رعاية العقود والالتزامات وحفظ حقوق الآخرين، ولتكون أمة القانون والمؤسسات، كما تتجلى أصول التربية القرآنية لهذه الأمة التي دانت لها الجزيرة العربية، وأصبح بيدها مقاليد الحكم، فهي مدعوة لإقامة أحكام الله مع العدو والصديق، وأن تحذر أشد الحذر من طغيان القوة لتعتدي وتظلم، وتستبيح أموال الناس المتمثلة في مجتمع البادية بالإبل والبقر والغنم، وحركة الناس نحو البيت الحرام فجاء تصدير السورة بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤذناً ببيان هوية المسلم الحضارية والأمة المسلمة، وأصول التربية الشاملة للشخصية الإسلامية لتشمل رعاية العقود التي عاقد عليها المسلمون ربه بالامتثال لشريعته، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ومثل ما

كان يبايع عليه الرسول المؤمنون ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا وأن ينصروه. بما ينصرون به أنفسهم وأولادهم... ويقول لهم: «فمن وفى منكم فأجره على الله» وتشمل ما عقده الله عليهم من التحليل والتحریم في دينه، لتكون أحكامهم وقوانينهم مستمدة من شرع الله، تحل ما أحل الله، وتحرم ما حرم الله، وتشمل هذه العقود أيضاً ما عقده المسلم مع ربه من الطاعات كالحج والصيام، وستر الزينة المحرم كشفها، وتحريم الربا والزنا، والخمر، والقمار، وغير ذلك، وتشمل ما عقده الإنسان مع غيره من بيع ونكاح لتكون كلمته ميثاقاً ووفاءه بها ديناً لا يتخلف عن أدائه.

وتشمل العقود التي عاهد المسلمون عليها المشركين، مثل قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾.

وفي "روح المعاني": «العقود باعتبار العقود ثلاثة أضرب: عقد بين الله تعالى

وبين العبد، وعقد بين العبد ونفسه، وعقد بينه وبين غيره من البشر». (١)

وهذا التقسيم يضيء لنا معنى شمولية الإسلام وأن المسلم مطالب بالوفاء بأحكام الله وطاعته فيما يتعلق بنفسه، وما يتعلق بغيره، ومجتمعه، ليجد في هذه الآية وجوب التزام الحاكم والقاضي والأب والأم والولد والتاجر والمزارع وسائر أصحاب الحرف بعقودهم مع الله تعالى أن يحفظوها ويفوا بها. والإيفاء هو: إعطاء الشيء وافياً، غير منقوص.

وفي هذه الآية دعوة للأمة المسلمة بمؤسساتها السياسية والتشريعية والقضائية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية للوفاء بعقودها مع الله وتطبيقها كاملة غير منقوصة.

وهذا ما نبّهت إليه السورة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة المائدة/٦].

وفي سبيل تعميق أمر هذا المبدأ في نفوس المؤمنين يذكرهم الله في السورة نفسها بما حصل للأمم السابقة من نكبات حين نقضت عهدها مع الله ورسوله ولم تحكم بشرع الله ولم تعظم رسل الله بنصرتهم وطاعتهم.

(١) روح المعاني - المائدة / الآية .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿١٣﴾ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ

مُبِينٌ ﴿ [سورة المائدة/١٢-١٥].

ونقف عند بقية الآية: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ تَحَكَّمٌ مَا يُرِيدُ﴾. لنجد في هذا القول

الكريم تمهيداً للخصيصة التالية في إقامة مجتمع العدل وحفظ كرامة الإنسان وماله وحرية في تنقله آمناً على نفسه وماله، والوفاء بالعقود مع الله في إقامة أحكام دينه،

فقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ أي أحل الله لكم أكل بهيمة الأنعام

والانتفاع بها، فهذا التفصيل بعد قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ بناء على أن العقود

شاملة لجميع الأحكام التي شرعها الله تعالى وأمر المكلفين بالإيفاء بها، فكانت كالعقد بارتباطهم وتقيدهم بها، فبدأ بعد وضع هذه القاعدة العامة ببيان ما يحل من الطعام

بشرطه الذي يتضمن ما يحرم من الصيد في بعض الأحوال ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

أي في الآية الثالثة من هذه السورة كالميتة والدم... الخ، ﴿غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ﴾ أي

أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلي الصيد الذي حرمه الله عليكم بأن لا

تجعلوه حلالاً باصطياده والأكل منه ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي وأنتم محرمون بالحج أو

العمرة أو كليهما أو داخلون في أرض الحرم.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَحَكَّمٌ مَا يُرِيدُ﴾ أي يمنع ما أراد منعه، أو يجعله حكماً وقضاً،

وإرادته إنما تكون على حسب علمه المحيط وحكمته البالغة ورحمته الواسعة، فلا عبث

في أحكامه ولا خلل ولا ظلم^(١). وليعلموا أن الله هو الحاكم المشرع، فالإيمان بالله

وحده يعني الإيمان بأنه وحده هو الحاكم المتصرف في شؤون خلقه، وإرادته كما بينها

(١) تفسير المنار (جـ ٦/٢٤).

كتابه وشرعه تعني التسليم والانقياد والخضوع التام لها والالتزام والوفاء بعقوده وأحكام شرعه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء/٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب/٣٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور/٥١].

الخصيصة الثانية:

القيام بالعدل، وإقامة دولة القانون وحماية أمن الإنسان وحفظ كرامته وماله وحرية في سفره، وتعاون أبناء الأمة لنصرة الحق ومحاربة الباطل:

وبين هذه الخصيصة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

وَالْتَقَوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿المائدة/٢﴾.

فالمسلمون الذين دانت لهم الجزيرة العربية وتسلموا مقاليد الحكم والقوة يأمرهم الله ويطلب منهم أن يترجموا مبادئهم وأحكام دينهم بهذه الأخلاق الكريمة التي لا تستغل السلطة لنهب ممتلكات الناس والاعتداء عليهم بحجة مخالفتهم بالعقيدة أو مواقفهم السابقة في حرب الإسلام أو كراهيتهم لهم.

وكانت قبائل العرب تتوجه للبيت الحرام في الأشهر الحرم ومعهم هديهم وأموالهم وما يسوقون للبيت من إبل وبقر وغنم، وربما كانت هذه فرصة عند بعض الناس أن يستغل الوضع الجديد والحكم الجديد، ليشفى صدره ممن عادوا الإسلام من قبل، أو ممن بينهم كراهية وثورات.

وأخوف ما تحذر منه الآية أن يُستغل الدين للعدوان على حياة الناس وأموالهم.. فبعد أن ذُكرت الآية الأولى المسلم بأنه رجل عقيدة وعقد ومبدأ التزم به ويسأله الله عن الوفاء به، لإقامة العدل ومحاربة الظلم.

جاءت هذه الآية لتقرر أحكام الله في حماية شعائر دين الله والشهر الحرام والهدي والقلائد، وهي خيرة أموال الناس التي كانت تهديها للحرم، كما قررت حرية الإنسان في تنقله وسفره، وقصده للبيت الحرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ وهذا ما سنوضحه بإيجاز في تفسير جمل الآية الكريمة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ "أي لا تجعلوا شعائر دين الله

حلالاً تتصرفون بها كما تشاؤون، وهي معالمه التي جعلها أمارات تعلمون بها الهدى

من الضلال كمناسك الحج وسائر فرائضه وحدوده وحلاله وحرامه بل اعملوا فيها بما بينه لكم".

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ "ولا تحلوا الشهر الحرام باستئنافكم قتال المشركين فيه، ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ ولا الهدى الذي يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقرباً إليه تعالى، وإحلاله يكون بمنع بلوغه إلى محله من بيت الله وأخذه لذبحه غضباً أو سرقة أو حبسه عند من أخذه، ولا تحلوا القلائد التي يقلد بها هذا الهدى بنزع القلادة من عنق البعير لئلا يتعرض لها أحد بجهله. وقيل المراد بالقلائد ذوات القلائد من الهدى كأنه قال: لا تحلوا الهدى مقلداً ولا غير مقلد، وخض المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه، وقد يدخل في عمومه من يتقلد من الناس ليعرف أنه محرم، وكان من يريد الحج في الجاهلية ومن يرجع منه يتقلد من لحاء شجرة ليأمن على نفسه فلا يعرض له أحد، فأقر الله تأمين المقلد لتعلم العرب أن من تقلد لأجل النسك كان في جوار المسلمين وحمايتهم".

﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ "أي ولا تحلوا قتال أمين البيت الحرام أي قاصديه المتوجهين إليه ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ أي يطلبون بأمهم البيت وقصده، التجارة والحج معاً، أو ربحاً في التجارة ورضاء من الله يحول بينهم وبين عقوبته في الدنيا فلا يحل بهم ما حل بغيرهم في عاجل دنياهم"^(١).

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي وإذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة، ومن أرض الحرم فاصطادوا إن شئتم، فإنما حرم عليكم الصيد في أرض الحرم وفي حال الإحرام.

(١) راجع الطبري والنار (ج-١٢٦/٦).

﴿وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَتَآئِنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

أَن تَعْتَدُوا﴾ في هذه الجملة الكريمة من الآية تحريم لتصفية الحسابات مع المعارضين أو الذين كانوا معارضين باسم الدين، أو تحت ستار "أعداء الإسلام في السابق" كما تفعل الأنظمة الظالمة في أيامنا حين تتسلم الحكم وتشرع بالتنكيل بالمعارضين السابقين، وتقطيع الأمة واستحلال أموالها ودمائها تحت هذه الشعارات الخادعة الخارجة عن مفهوم العدل والرحمة. والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدّوكم عن المسجد الحرام فيما سبق كالمشركين الذين صدوا المسلمين عن البيت الحرام قبل الحديدية، فالمراد النهي عن البغض والعداوة وجعلها حاكمة على النفس حاملة لها على الاعتداء والبغي.

الخصيصة الثالثة: سماحة المسلم واحترامه لعهوده مع المخالفين واستيعابه للمعارضين:

روى ابن جرير عن السدي - أن الحطم بن هندي البكري أتى النبي ﷺ وحده، وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه فقال: إلام تدعو؟ فأخبره، وكان النبي ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان»، فلما أخبره النبي ﷺ قال: أنظر، ولعلي أسلم، ولي من أشاوره، فخرج من عنده، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر»، وفي رواية أن الحطم قال للنبي ﷺ: إن في أمرك هذا غلظة... فأرجع إلى قومي فأذكر لهم ما ذكرت فإن قبلوا أقبلت معهم، وإن أدبروا كنت معهم، قال له: «ارجع»، فلما خرج قال: «لقد دخل عليّ بوجه كافر وخرج من عندي بعقب غادر»، وما الرجل بمسلم، ففاتهم وقدم اليمامة وحضر الحج فجهز خارجاً، وكان عظيم التجارة فاستأذنوا أن يتلقوه، ويأخذوا ما

معه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْهُرَ الْحَرَامِ وَلَا أَهْدَىٰ
وَلَا أَلْقَيْدًا...﴾. (١)

والروايات المتعددة في مناسبة نزول الآية يجمعها مبدأ واحد وهو تعظيم الإسلام
للبيت الحرام، وقاصديه حجاجاً ومعتمرين، واحترام المسلم للعهد وحماية أمن أرض
الإسلام من السلب والنهب والعدوان واستيعاب المخالفين والمعارضين بالسماحة
والعدل، عسى أن يكون هذا سبباً في هدايتهم وإصلاحهم.

التعاون على البر والتقوى:

«إن حفظ الإسلام وأمن أرض الإسلام وحماية حياة الإنسان وماله لا يحصل إلا
بالتربية الإيمانية وتعاون المؤمنين على البر والتقوى، وعدم تعاونهم على الإثم والعدوان.
فالأمة المسلمة مدعوة للتعاون في فعل الخير وهو اسم جامع لما يقرب إلى الله تعالى من
الإيمان والأخلاق والآداب والأعمال، والتعاون على البر والتقوى هو من أركان الهداية
الاجتماعية في القرآن لأنه يوجب على الناس إيجاباً دينياً أن يعين بعضهم بعضاً على
كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس أفراداً وأقواماً في دينهم ودنياهم، وكل عمل
من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفسد والمضار عن أنفسهم، وأكد هذا الأمر
بالنهي عن ضده وهو التعاون على الإثم والمعاصي وكل ما يعوق عن البر والخير، وعلى
العدوان الذي يغري الناس بعضهم ببعض ويجعلهم أعداء متباغضين يتربص بعضهم
الدوائر ببعض» (٢).

فالأمة المسلمة مدعوة لتحشد قواها في الدفاع عن الإسلام عقيدة وأرضاً
وشريعة وقيماً وأخلاقاً، كما هي مدعوة لمواجهة الفاسدين والمفسدين الذين يعملون

(١) الطبري / الآية .

(٢) المنار / المائدة / الآية .

لإقامة مشاريع الفساد الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإعلامية، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص في مواجهة الفساد والفاستدين، وأن خير ما ترجم تعاون الأمة على البر والتقوى إقامة الجمعيات الخيرية والمراكز الإسلامية ومؤسسات المجتمع المدني وحشد الشعب لأبنائه بالتنظيمات السياسية الإسلامية التي تدعو لإقامة دولة الإسلام وتحكيم شريعة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما بينه الله في كتابه العظيم. قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران/١١٠].

فإذا اجتمع أهل الباطل على باطلهم وتفرق أهل الحق عن حقهم، ضاع الحق وكانت الفتنة والفساد الكبير، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال/٧٣].

إلا تفعلوا التعاون والموالة والنصرة للحق فيما بينكم، كما اجتمع أهل الباطل على باطلهم، كانت الجولة لأهل الباطل والفتنة والفساد الكبير. إن توحيد الأمة من خلال التنظيمات الشعبية السياسية والاجتماعية هي التفسير العملي لهذه الآية الكريمة وهي الأساس في البناء الشوري للأمة، ولا يستطيع الحكام المستبدون تحقيق أهدافهم في سرقة أموال الأمة وظلمها وبناء قصورهم ورفاههم على حساب تخلف الأمة وربطها بعجلة المستعمر ليحتل أرضها وينهب خيراتها، ويجو لها سوقاً لمنتجاته وقواعد لعدوانه، إلا في غياب الشورى الملزمة، أي غياب الشعب وإرادته التي لا يظهرها إلا التعاون الصادق على البر والتقوى ومحاربة كل أسباب الإثم والعدوان، وذلك بالتنظيمات السياسية الشعبية والاقتصادية والاجتماعية تحت راية

الإسلام العظيم وشعاره الكريم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وقد وجهنا ربنا في كتابه العظيم إلى خطر تخلف الأمة عن التعاون على نصره دين الله من خلال التنظيمات الشعبية ومؤسسات المجتمع المدني التي توحد جهود أبناء الأمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف بقوة في وجه الفساد فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال/٢٥]. وحين سئل رسول الله ﷺ: أهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الخبث» واستشهد بهذه الآية الكريمة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة/١٠٥]. نداء لأبناء الأمة المسلمة أن يوحّدوا جهودهم في مواجهة الضلال وأهله لأن أهل الضلال لا يتمكنون من إيقاع الضرر بالمسلمين إذا تعاون المسلمون وألزموا أنفسهم نصره دينهم وإصلاح مجتمعهم. وهذا ما نبه إليه أبو بكر رضي الله عنه وحذّر من خطر الفهم المنحرف لهذه الآية باتخاذها شاهداً للسلبية وعدم التعاون لمواجهة المنكرات بدعوى أن المسلم إذا أصلح نفسه بالعبادة والعمل الصالح لا يضره فساد المجتمع، فبيّن أبو بكر الفهم الصحيح لهذه الآية وأنها ليست خطاباً للفرد وحده ليصلح نفسه، وإنما هي خطاب للأمة كلها لتصلح أنفسها وتتعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والضرب على أيدي الفاسدين والمفسدين.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بسنده: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ^ط لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴿٧٧﴾ وإنكم

تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه»^(١).

ونجد في السورة آية [المائدة/٧٨] ما أصاب بني إسرائيل من لعنة وغضب من الله وعذاب وتشريد بسبب تخلفهم عن القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجترائهم على المعصية والعدوان. قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة/٧٧-٧٩].

وفي سورة الصف تحذير من رفع الشعارات والتباهي بالأقوال والتصريحات والخطب والمواظب والكلمات التي لا يتبعها تنظيم واع يحشد قوة الأمة وينظم أبناءها للوقوف في وجه أعداء الإسلام في الداخل والخارج. قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَاتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ﴾ [الصف/٢-٤].

وفي آخر سورة الصف دعوة للمؤمنين ليكونوا أنصار الله بتعاونهم وتنظيماتهم الشعبية التي تحقق هذه النصر. قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ

(١) تفسير ابن كثير .

كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا مَنْ طَابَفَتْهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَابَفَتْهُ فَأَيَّدْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ [المف/١٤].

والتذكير بنبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام في مرحلة خطيرة من تاريخ دعوته
تذكير بدور الحواريين والأصحاب وأحباب النبي الكريم وتعاونهم ونصرتهم لدين الله
ليكونوا كالبنين المرصوص في وجه أعداء الدعوة ونصرة النبي الكريم، حتى لا يخنق
الكافرون صوت الدعوة ويحبوا الهدى عن الناس.

إن مخطط أعداء الإسلام في بلاد المسلمين أن يفرغوا (الشورى) أو ما يسمونه
(ديمقراطية) من مضمونها الحقيقي عن طريقين: تزوير إرادة الشعب بالانتخابات
الخادعة، وتقطيع أواصر الأمة باللواءات العصبية والإقليمية والمصلحية، حتى لا يكون
التعاون على البر والتقوى تحت راية الإسلام، ويشغلوا الناس ببعض المطالب المادية على
حساب كرامة الأمة واستقلالها وتحرير أرضها وإرادتها.

إن التعاون على البر والتقوى الذي يفرضه الإسلام عن طريق مؤسسات المجتمع
المدني السياسية والاجتماعية يواجهه تعاون على الإثم والعدوان تفرضه الأنظمة الفاسدة
بإعلامها المسموع والمرئي والمقروء، وبمصادرة حق الناس بالاجتماع، وحرمانهم من
العمل الجماعي المنظم، ومصادرة المنابر والمساجد ومنع العلماء الصالحين عن تبليغ
كلمة الله.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

وكما يفرض الله على المسلمين أن يتعاونوا على نصرته دين الله، يحذرهم الله
تعالى أن يقدموا أي عون للباطل وأهله، أو أي دعم لمؤسسة تعمل بالربا أو تتاجر
بالحرمات، أو تُطَبَّع مع العدو أو تقدم العون للظالمين في مجال الصحافة والإعلام، أو في

بمجال الكتابة والخطابة وتوظيف الأقلام، أو في مجال الإدارة والتجارة والزراعة والصناعة والسياحة والثقافة ودور اللهو، أو في مجال نقل الأخبار وتسريب المعلومات ورفع التقارير.

إن المسلم حارس لدين الله يحذر أن يؤتى من قبله، ولا يقيس الأمور بأرباحها المادية بل يقيسها بمقياس الإسلام فما كان مُرضياً لله سارع إليه وتعاون في عمله وما كان في سخط الله وغضبه كان أبعد الناس عنه وعن تقديم أي عون له، وهذا ما يسد أبواب الفتنة في وجه الظالمين والمنافقين الذين لا يجدون مسلماً صادقاً يتعاون معهم أو يوظف جهده في خدمتهم.

ما الذي يجعل المؤسسات الربوية تحصل على الأرباح الكثيرة في بلاد المسلمين؟
ما الذي يجعل المؤسسات القمعية والأنظمة الفاسدة تقهر الشعوب وتنهب خيراتها وتحول أرض الإسلام إلى قواعد لأعداء الإسلام؟

والجواب هو تعاون أبناء المسلمين مع هذه المؤسسات الربوية والظالمة وعدم شعورهم بالإثم وهم يتعاونون على دعم مؤسسة ربوية في الداخل أو في الخارج ويدخرون أموالهم فيها، ويعتقدون أنهم حين لا يأخذون الفائدة خرجوا من الإثم ولا يعلمون بأنهم حين أعانوا المؤسسة الحرام وقعوا في الإثم والعدوان، ولولا أموالهم ومدخراتهم ما ربحت وما عملت.

إن دلالة هذه الآيات واضحة في تحريم موالاة الكافرين والظالمين والتعاون معهم فمن آمن بالله والنبي وما أنزل إليه كان محباً لله ورسوله وأولياء الله ورسوله، ناصرهم متعاوناً معهم، وكان مبغضاً لأعداء الله ورسوله مجاهداً لهم، لا يقدم أي عون أو نصرة لهم.

الخصيصة الرابعة:

مسؤولية العلماء في حفظ الشريعة ونصرتها:

والعلماء ورثة الأنبياء في التبليغ والبيان والحكم ونصرة شرع الله. وقد بين الله هذه المسؤولية للعلماء في هذه السورة الكريمة وفي غيرها فذكر منها ما يلي:

في سورة المائدة آية (٦٧) قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى في آية (٤٤): ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

فالرسول ﷺ مأمور بتبليغ رسالة القرآن، وألا تأخذه في الله لومة لائم والله يعصمه من الناس.

وكان أنبياء بني إسرائيل وعلماؤهم من الربانيين والأخبار قد أمروا بإقامة أحكام شريعة الله في التوراة على بني إسرائيل وذكرهم بمسؤوليتهم من خلال النقاط التالية:

١- وصفهم بالربانيين والأخبار، والرباني هو العالم الربى الفقيه شديد التمسك بدين الله وطاعته، والخبر هو العالم الذي زينته علمه بالعمل والدعوة واستخراج لآله ومعانيه وأحكامه.

٢- وصفهم: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ فهم حفظة هذا الكتاب

علماً وبياناً وحكماً ودعوة ونصرة وهم حصن الشريعة التي يدافعون عنها، وأشد ما يحذر أن يوتى الإسلام من حصونه وحفظته وحراسه حين يخشون من تبليغ أحكامه

خوفاً أو مدهانة ومجارة للظالمين ليكون بذلك هلاكهم وهلاك الأمة معهم، وهذا ما حذرنا الله منه حين ذكر هلاك بني إسرائيل، وجبن علمائهم عن تبليغ رسالة الله فقال تعالى في السورة نفسها ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة/٦٣].

والمعنى هلاً قام علماؤهم من الربانيين والأخبار بمسؤوليتهم بالوقوف في وجه تيار الفساد الجارف وزجر هؤلاء المسارعين بالإثم والعدوان، عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، "وقول الإثم" شامل للإعلام الفاسد والشهادات المزورة وفتاوى المنافقين وأقلام المستأجرين و"أكل السحت" شامل للمعاملات المحرمة الربوية وغيرها وللمطاعم المحرمة، والأعمال المحرمة، والرشاوى بأنواعها كبرت أم صغرت.

وفي قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ما يكشف لنا كيف أصبح سكوت علماء السلاطين عن النهي عن المنكرات والأمر بالمعروف ومدهانة الظالمين صناعة يتقنونها، ويحسنون فنونها، بفتاواهم الخادعة ومظاهرهم الخادعة، ورتبهم العلمية، وألقابهم التي وظفوها لخدمة الظالمين.

قال صاحب الكشاف: «كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير لأن كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه». (١)

وهؤلاء هم الذين يعجلون بهلاك أمتهم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود/١١٦-١١٧].

(١) الكشاف / المائدة / الآية .

وأولو البقية في هذه الآية هم العلماء الصالحون الذين هم من البقية الصالحة الحاملة لإرث الشريعة.

وقد انقضى هؤلاء العلماء الصالحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وبقي الخلف السيء من علماء السلاطين وشيوخ الدنيا الذين سمحتهم الآية بالذين ظلموا وقالت: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ اتبع هؤلاء العلماء ما أترفوا بسببه من رتب ورواتب، وسكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخانوا مسؤوليتهم في الدفاع عن حصن الإسلام وشرعه فوصفهم الله بقوله: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وكان من إجرامهم هلاك الأمة على أيديهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود/117].

٣- والوصف الثالث لهؤلاء العلماء هو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ والمعنى أن من مسؤولية علماء الشريعة أن يكونوا شهداء رقباء عليها، حراساً لها، يقفون في وجه من يريد العبث بها، وتغيير أحكامها، أو تفسيرها تفسيراً منحرفاً.

٤- والوصف الرابع: ألا يخشوا في الله أحداً ولا يبيعوا أنفسهم للظالمين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. فمن شأن العلماء الذين يحرسون قلعة الشريعة ألا يخشوا أحداً إلا الله ولا يخضعوا إلى ترغيب أو ترهيب، وفي خاتمة الآية تحذير شديد يفقهه العلماء قبل غيرهم.

٥- ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. لأن كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون بآيات الله لأن الإيمان الصحيح يستلزم الإذعان والخضوع والانقياد والعمل بأحكام الله وشرعه.

واستدل العلماء بهذه الآية: على أن الحاكم من الواجب عليه أن ينفذ أحكام الله دون أن يخشى أحداً سواه، وأن عليه كذلك أن يبتعد عن أكل المحرم بكل صورته وألوانه، وألا يغير حكم الله في نظير أي عرض من أعراض الدنيا لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وكذلك العلماء من الواجب عليهم بيان أحكام الله دون أن يخشوا أحداً سواه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرّف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة فهلكوا. (١).

لا حاكم ولا مشرع إلا الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال العلماء في تفسير هذه الآيات ومجبتها بعد ذكر أحكام الله: «بأن وصف من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق تغليظ في الحكم يشمل اليهود والنصارى، ويشمل المسلمين الذين يجترئون على شريعة الله ويعطلونها، ويستبدلون بها القوانين الغربية والوضعية وأن هذه الجمل الكريمة عامة في اليهود وفي غيرهم، فكل من حكم

(١) انظر الكشاف - المائدة / الآية .

بغير ما أنزل الله، مستهيناً بحكمه مؤثراً القانون الأجنبي أو الوضعي على شرع الله، يعدّ كافراً لأن فعله هذا يدل على جحود وإنكار واستهزاء بحكم الله، ومن فعل ذلك كان كافراً، وهذا النذير الأول يخاطب أول من يخاطب النواب والأعيان الذين يُقرون القوانين والوزراء الذين يُنسبونها». (١).

فحين يعرض على مجلس الوزراء أو مجلس النواب مشروع قانون يخالف شرع الله كقانون السباحة المختلطة، أو التنازل عن جزء من أرض الإسلام، أو موالاة اليهود وحلفائهم، ويجري الحوار والتصويت بعد بيان أحكام الله تعالى، فالذي يصوت لصالح القانون الحرام المستباح لحرمات الله يكون مشرّعاً ما لم يأذن به الله ساعياً للحكم بغير ما أنزل الله متعرضاً للوعيد الذي ذكره الله في هذه الآيات ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وللشيخ حسنين محمد مخلوف تفسير مؤداه: ((اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية والآيات بعدها، فقيل في اليهود خاصة، وقيل في الكفار عامة، وقيل الأولى في هذه الأمة، والثانية في اليهود، والكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ لا على الكفر الذي ينقل عن الملة. والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أريد منهما العتو والتمرد في الكفر)) وعن ابن عباس: «من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فهو كافر، ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق». (٢).

وقال الألوسي ما ملخصه: «واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر غير مؤمن، ووجه استدلالهم بها أن كلمة (من) في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ ...﴾

(١) التفسير الوسيط / د. محمد سيد طنطاوي

(٢) صفوة البيان / المائدة / الآية .

عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله فيدخل الفاسق المصدق أيضاً لأنه غير حاكم وغير عامل بما أنزل الله». (١).

وقال صاحب التفسير الوسيط: ((والذي يبدو لنا أن هذه الجملة الكريمة عامة في اليهود وفي غيرهم، فكل من حكم بغير ما أنزل الله مستهيناً بحكمه تعالى أو منكراً له يعدّ كافراً، لأن فعله هذا جحود وإنكار واستهزاء بحكم الله ومن فعل ذلك كان كافراً)). (٢).

وأقف عند كلمة صاحب التفسير: «مستهيناً بحكمه، أو منكراً له»، لأجد صورتين للكفر إحداهما الاستهانة بحكم الله وذلك بتقلد القوانين الوضعية والأوروبية على شريعة الله وتعطيل أحكام الله. والصورة الثانية: إنكار الوحي وإعلان علمانية الدولة وخروجها عن هداية الله، وكلا الصورتين مفضيتان للكفر والخروج من الملة.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

قال الرازي: «وفيه سؤال وهو أنه تعالى قال أولاً: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ﴾ وثانياً: ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والكفر أعظم من الظلم فلماذا ذكر أعظم التهديدات أولاً وأي فائدة في ذكر الأخف بعده؟».

وجوابه: «أن الكفر من حيث إنه إنكار لنعمة المولى وجحود لها فهو كفر، ومن حيث إنه يقتضي إبقاء النفس في العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس، ففي الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره في حق الخالق سبحانه، وفي هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير في حق نفسه». (٣).

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

(١) روح المعاني / المائدة / الآية .

(٢) التفسير الوسيط ٢٢٢/٤ .

(٣) التفسير الكبير - الرازي / الآية .

قال صاحب المنار ما ملخصه: «وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك نكتة التعبير بالكفر في الأولى، وبوصف الظلم في الثانية، وبالفسوق في الثالثة»^(١).
ففي الآية الأولى كان الكلام في التشريع، وإنزال الكتاب مشتملاً على الهدى والنور، والتزام الأنبياء وحكماء العلماء بالعمل والحكم به.

فكان المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له مؤثراً لغيره عليه يكون كافراً به...

أقول: ومن المناسب أن نلفت أنظار المجالس التشريعية في البلاد العربية والإسلامية وهي تناقش القوانين لإقرارها، إلى هذه الخطيئة الكبرى وهي إثارة غير شريعة الله على شريعة الله المفضي إلى الكفر والعياذ بالله.

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان بل في عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء.. فمن لم يحكم بحكم الله في ذلك يكون ظالماً في حكمه.

وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل، وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته.. فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا فهم الفاسقون بالمعصية والخروج عن محيط تأديب الشريعة.^(٢)

وأقول: إن التربية الإيمانية للأمة بتعظيم شريعة الله والمصارعة بالالتزام بأحكامها تقتضي أن يضع الحكام وأصحاب السلطة التشريعية نصب أعينهم حكم الله بالكفر فيمن استهان بشريعة الله وآثر غيرها عليها كما تقتضي من الشعب أن يحذر أشد الحذر من الوقوع بالظلم والفسق إذا خرج عن هداية الله، فضلال الحكام لا يعفي الأمة من المسؤولية.

(١) المنار / المائدة / الآية .

(٢) المنار / المائدة / الآية .

الاعتراف بالآخر:

من خصائص الشريعة الإسلامية أن أحكامها المستمدة من القرآن الكريم فسحت لأهل الأديان الأخرى العيش في بلاد المسلمين مع حمايتهم في عقائدهم ومعابدهم ودمائهم وأموالهم وكرامتهم، كما شرعت من الأحكام ما يسمح بإقامة علاقات المصاهرة والتقارب الاجتماعي، فطعامهم حلّ لنا وطعامنا حلّ لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب.

وقد تجلّت هذه الخصيصة منذ بداية عهد القوة في الدولة الإسلامية حيث حرّمت على المسلمين التعرض لقاصدي البيت الحرام وآميّه ممن لم يدخلوا في دين الله بعد من العرب حتى يترسخ مبدأ الاعتراف بالآخر حتى إذا أذن الله بتطهير الجزيرة من الشرك والمشركين كان الإعلان العام بالبراءة من عهود سبقت، وإعطائهم المهلة الكافية للتفكير والتدبر والاختيار.

التعددية في ظل الإسلام:

وفي هذه السورة ترد الآيات المبينة لإقامة علاقات المودة والتعاون والمصاهرة مع أهل الكتاب، ذلك أنه لا يمكن أن يكون مجتمع من المجتمعات على شاكلة واحدة، في التفكير والعقيدة؛ فالتعددية هي الظاهرة البينة في المجتمعات البشرية، ومنها تعددية الألوان، والأجناس، والعقائد، والأفكار، ومن خصائص الإسلام أنه اتسع للأجناس، والقوميات، واللغات، والأديان، وكان له من سماحته، وعدالته، ومرونته، ما جعل دولته ومجتمعه مصهراً اجتماعياً لكل من قبلوا العيش في ظل الدولة الإسلامية من شعوب الأرض الذين شملتهم عدالة الإسلام، ورحمته، والمساواة بين أبنائه، وكان من آثار ذلك إقامة بناء الحضارة الإسلامية التي استوعبت خبرات الشعوب وعلومها وولاءها وإخلاصها، وكانت الأخوة الإسلامية هي أساس بناء الدولة الإسلامية.

وكان الإيمان بالحضارة الإسلامية قاسماً مشتركاً بين المسلمين وغير المسلمين، وهذا ما عبر عنه الشاعر العربي رشيد سليم الخوري بقوله:

شغلتُ قلبي بحب المصطفى وغدت عروبي مثلي الأعلى وإسلامي
وشامتُ بي مسرور بحزني مستشف بدائي ملتذ بالأمي
قولوا له عرباً تقضوا عليه فإن يسلم فثنوا بقرآن وإسلام

ونعود للآيات الكريمة لنرى كيف تقرر هذا المبدأ العظيم بالاعتراف بالآخر:

١- من حيث الإقرار بوجود هذا الآخر في المجتمع الإسلامي وتنظيم أمور الحياة الاجتماعية معه بالطعام والزواج وضمان حقه في عبادته وماله وصون حياته.

٢- ومن حيث تنظيم السياسة التوجيهية لهذا المجتمع القائمة على العفة والطهر والابتعاد عن العلاقات المشبوهة بين الأخدان والخلائن.

٣- ومن حيث تنظيم السياسة الدعوية مع الآخرين القائمة على الحوار واستماع الرأي الآخر ومناقشته، فالإسلام يحقت العصبية والإكراه في الدين الذي ينتهي إلى اضطهاد من يخالف عقيدته وقمعه .

فالمجتمع الإسلامي في المدينة كان فيه اليهود والنصارى، وكان متمتعاً بالحرية الفكرية إلى درجة أنه كان موطن حوار وجدال بين المسلمين وأهل الكتاب من يهود أو نصارى، وكان المسلمون يلاقون في هذا الحوار ألواناً من الصعاب والكيد والتشكيك يحتملونها في صبر وثبات، ويقىمون حججتهم، ويكسبون جولتهم بقوة البرهان وصدق الحجة فإن الحقائق إذا ظهرت ووضحت كانت هي الداعية إلى نفسها والمدافعة عن نفسها.

الآيات الكريمة في تنظيم الحياة الاجتماعية مع أهل الكتاب :

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] ولنا مع الآية الكريمة وقفات:

١- إباحة التمتع بالطيبات التي أنعم بها سبحانه على عباده ولم يرد نص بحرمتها، للإسلام لا يدعو إلى هجر الطيبات واعتزالها قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف/٣٢].

٢- إباحة الأكل من ذبائح أهل الكتاب وإباحة إطعامهم من طعامنا، تحقيقاً لمبدأ التواصل الاجتماعي وسعياً لإزالة العزلة بين أبناء المجتمع الواحد بسبب خلاف العقيدة والدين، والعزلة من شأنها أن تحوّل أبناء الوطن الواحد إلى طوائف وحرارات تقطع الأواصر الاجتماعية وينتفع بها الأعداء بإشعار أبناء الطوائف والأقليات بالظلم والانعزال واستغلال ذلك لمصلحتهم.

٣- الرغبة في نكاح المرأة المحصنة التي أحصنت نفسها عن الفواحش وصانتها عن كل ريبة واعتصمت بالعفاف والشرف، فالمرأة المحصنة في الآية هي الحرة العفيفة الشريفة والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فإذا كان أساس

الاختيار للزوجة هو العفة و الشرف و الخلق الكريم قامت الأسرة على أكرم الدعائم وأقواها، وهذا ما نبه إليه النبي الكريم ﷺ بقوله: «تتكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». (1)

٤- وإباحة الزواج من الكتابيات والمصاهرة من أهلهن تحقيقاً للتواصل الاجتماعي والتقارب وإزالة للعزلة بين أبناء المجتمع الواحد يتم بشرطين يحفظان أمن المجتمع ونقاءه وطهره:

الشرط الأول: إقامة العدل، بأن يكون الزواج بعقد صحيح يسمى فيه المهر ويدفع للمرأة، وتحقيق هذا الشرط يعني أن المرأة ما أجبرت وأن العقد وتوابعه من المهر حقق الرضا بالاختيار ودفع الحقوق، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن.

وقد سمي المهر أجراً تأكيداً لدفعه للمرأة وبياناً لحقها فيه.

والمهر في الإسلام رمز لإكرام المرأة، وسعي الرجل لها، وليس ثمناً أو عوضاً مادياً، لقوله ﷺ لأحد أصحابه في المهر: «التمس ولو خاتماً من حديد» (2) فالخاتم من حديد لا يسمى ثمناً أو عوضاً.

والرابطة الزوجية، والتقاء إرادة الزوجين على إقامتها على أساس العدل وطلباً للإحسان والعفة والولد الصالح هي هدف الزوجين لبناء الأسرة المؤمنة الصالحة في مجتمع الإسلام.

الشرط الثاني: أن يتم الزواج في ظل مبادئ الإسلام وأخلاقه برعاية شروط الإحسان والعفة والطهر بين الزوجين، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾

(1) رواه البخاري / كتاب باب النكاح / رقم ١٨٠٧ / التجريد الصريح للزبيدي .

(2) رواه البخاري / كتاب النكاح رقم ١٨١٧ التجريد الصريح للزبيدي .

أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾.

وهذه الآية الكريمة تضع جداراً حاجزاً بين الجاهلية والإسلام. فالمجتمع الجاهلي في القدم والحديث يقوم على التساهل في العلاقات بين الرجال والنساء، والتسامح في العلاقات المحرمة، وهذا ما نجده في المجتمعات الأمريكية والغربية، ومن يقلدها! والمجتمع الإسلامي يقوم على العفة والطهر وحفظ الأعراض والأنساب، ويشترط على الراغب من الزواج من كاتبة أن يختارها في ظل عقيدته ودينه، لا في ظل ثقافتها وأخلاق مجتمعتها الإباحية القائمة على الصداقات المحرمة والصلوات المحرمة قبل الزواج وبعده.

والذي نراه اليوم في بعض المسلمين من رغبة الزواج بالنساء الغربيات ليضع نفسه وأولاده في ظل ثقافتها وتربيتها المخالفة لدين الله لينشأ الأبناء على غير دين الإسلام وقيمه وأخلاقه وعاداته، يدعونا لإعلان تحريم مثل هذا الزواج الذي حرمه الله بقوله: ﴿غَيْرَ مُسْلِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ فالسفاح والزنا وإباحة العلاقات المحرمة بين الجنسين أمر معترف به في بلاد الغرب.

والذي يختار زوجته في ظل هذه القيم والأعراف المحرمة، يكون قد أقام بيته على أساس فاسد سينهار قريباً أو بعيداً إلا من رحم ربك واحتاط لدينه وأحسن الاختيار.

وهذا ما حذرنا الله منه في خاتمة الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

أي من يكفر بهذه الأحكام التي تترجم من حقيقة الإيمان برعاية أحكام الله وبناء الأسرة المسلمة على دعائم الإيمان والتقوى والقيم الكريمة فقد حبط عمله في الدنيا،

وكانت الأسرة التي بناها والأطفال الذين أنجبهم في ضياع، وكان في الآخرة من الخاسرين.

شخصية الأمة الحضارية وعهد القوة والتميز:

وقد نبه القرآن الكريم إلى عنوان هذه المرحلة الجديدة من مسيرة الدعوة وهي مرحلة استكمال الأحكام وإعلانها متميزة مخالفة لأحكام الجاهلية، ففي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ بعد ذكر المحرمات من الذبائح [المائدة/3]، وفي قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ ما يلفت الأنظار لهذا اليوم، وهذا ما نبه إليه المفسرون بالمراد بهذا اليوم وهو الزمان الذي نزلت به الآيات، أو يوم عرفة.. فالتنويه بهذا اليوم هو إعلان لعنوان مرحلة زمنية جديدة من مسيرة الدعوة هي مرحلة التمكين والنصر واشتداد أركان الأمة المسلمة وظهور الدولة الإسلامية وخضوع العرب لها، ولا بد لهذه الأمة المسلمة أن تتميز بشريعتها وأحكامها التي تقيم المجتمع على معالم التوحيد والعدل والعزة ورفع الحرج وعلى الطهارة والطيبات بالطعام والزواج على سواء. وهذا ما يتبين بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا

تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ^٤ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

ففي هذه المحرمات تتجلى لنا حكمة الشريعة الإسلامية بالتحريم الذي يحقق
مصلحة العباد البدنية والدينية.

فالميتة هو كل ما فارقتة الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية شرعية. وقد
أجمع العلماء على حرمة أكلها لحث لحمها وبقاء بعض المواد الضارة في جسمها
وتعرضها للتحلل والجراثيم المفضية لهلاك الإنسان إذا أكلت. والدم هو الدم المسفوح
السائل من الحيوانات عند التذكية، ولحم الخنزير وكذلك شحمه وجلده وجميع
أجزائه، وخصّ لحم الخنزير بالذكر مع أن جميع أجزائه محرمة، لأنه مستقذر، تعافه
الفطرة، وتتضرر به الأجسام.

ورابع هذه المحرمات ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي حرّم عليكم أن تأكلوا مما

ذبح فذكر عند ذبحه غير اسم الله تعالى، سواء اقتصر على ذكر غيره كقول الذابح عند
الذبح: باسم الصنم فلان، أو باسم المسيح أو عزيز أو فلان، أو باسم الولي فلان، أو
باسم الشيخ فلان، أو باسم النبي، أو جمع بين ذكر الله وذكر غيره بالعطف عليه
كقوله: باسم الله واسم فلان. وحكمة هذا الحكم إزالة التناقض بين العقيدة والفعل،
فإعلان التوحيد والعبودية لله رب العالمين تقتضي التطهر من كل صور الشرك التي
كان يمارسها أهل الجاهلية في الذبح لغير الله.

وكذلك المسلم يفرض الله عليه أن يكون ذبحه وعبادته وعمله خالصاً لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

محرمات أخرى كانوا يستحلونها في الجاهلية :

وحرّم عليكم كذلك -أيها المؤمنون- الأكل من المنخقة، والموقوذة، و المتردية، والنطيحة، إذا ماتت كل واحدة من هذه الأنواع لهذه الأسباب دون أن تذكوها تذكية شرعية لأن الأكل منها يعود عليكم بالضرر، فالمنخقة التي تموت خنقاً، والموقوذة التي تضرب بحجر أو خشب حتى تموت، وكانوا في الجاهلية يضربون البهيمة بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها.

والمتردية هي التي تتردى أي تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت من التردّي، والنطيحة هي التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح.

وتاسع هذه المحرمات ما ذكره الله بقوله: ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾

والمراد بالسبع كل ذي ناب وأظفار من الحيوان كالأسد والنمر والذئب ونحوها من الحيوانات المفترسة.

أي حرّم عليكم ما أكل السبع بعضه فمات بسبب جرحه، إلا ما أدركتموه حياً فذكيتموه أي ذبحتموه ذبحاً شرعياً، فإنه في هذه الحالة يحل الأكل منه ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ، والنصب جمع نصاب ككتب وكتاب، وهي حجارة كان الجاهليون ينصبونها حول الكعبة وكان عددها ثلاثمائة وستين حجراً، وكانوا يذبحون عليها قرابينهم التي يتقربون بها إلى أصنامهم، وما تقرب به إلى غير الله فهو فسق ورجس يحرم على المسلم الأكل منه.

ويلتقي هذا الحكم في تحريم ما ذبح على النصب مع الحكم السابق في تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه في بناء الشخصية الإسلامية المؤمنة التي تحكمها عقيدة التوحيد عبادة وسلوكاً في عاداتها وأسلوب حياتها وطعامها.
كما تلتقي هذه الأحكام في بناء الشخصية المسلمة الحضارية التي تجتنب ما يضرّ ويؤذي.

﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ والاستقسام: طلب معرفة ما قسم

للإنسان من خير أو شر.

والأزلام: قداح الميسر، واحدها زَلَم. والقداح جمع قِدْح، وهو قطعة من الخشب مستوية بهيئة السهم لا ريش عليه قليلة العرض طولها نحو فتر تجعل فيها حزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور وكانت تستعمل بالميسر، ويقال لفلان: القِدْح المَعْلَى: الحظ الأوفر. وسميت قداح الميسر بالأزلام لأنها زلمت أي سوّيت لهذه الغاية. (١)

طريقة أخرى للاستقسام بالأزلام:

وكما كانوا يقتسمون بها الجزور، كانوا يستعملونها في تحديد حركتهم وتصرفاتهم، فيجعلون السهام التي لا ريش عليها في وعاء، ويكتبون على هذه السهام الأمر أو النهي، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يداً فيها وأخرج سهماً، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لعقده، وإن خرج ما فيه النهي كف. (٢).

والمعنى: وحرّم عليكم سبحانه أن تطلبوا معرفة ما قسم لكم في سفر، أو غزو، أو زواج، أو غيره، بواسطة الأزلام، لأن هذا الفعل فسق وخروج عن أمر الله وطاعته.

(١) المعجم الوجيز / مادة " زلم " .

(٢) المرجع السابق .

ذلك أن الشخصية المسلمة شخصية عاقلة حضارية تربط تصرفاتها بالعلم مع التوكل على الله وبحسن الدراسة العلمية للمشروع الذي تعزم عليه، والانتفاع بخبرة أهل التجربة، ولا تبني تصرفاتها في التجارة أو الزواج أو السفر أو غيره على الحظوظ أو التخيلات أو الرجوع إلى الكهان أو مدعي علم الغيب.

ومن ذلك التنجيم والعمل بالأيام في السعد والنحس وزجر الطير والضرب بالرمل والحصى. فالمسلم إنسان حضاري لا يعطل عقله، وما وهبه الله من وسائل علمية لمعرفة طريق النجاح، بالسعي وراء أسباب السعادة والخرافة ومدعي الغيب. وقد بين الله سبحانه أنه وحده المستأثر بعلم الغيب، ونهى النبي ﷺ أن يرجع إلى الكهان والمشعوذين، وفي الحديث: «من أتى عرافاً فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(١) وفي حديث آخر: «فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٢) والله بين لنبيه ﷺ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

معلم المرحلة الزمنية:

مرحلة العزة والقوة والاستعلاء بإعلان شريعة الإسلام: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

وللمفسرين بيان المقصود بهذا اليوم أقوال منها: أنه يوم عرفة، ومنها ألا يكون المراد به يوماً بعينه وإنما المراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، وهذا ما أرجحه أن يكون عنواناً لمرحلة القوة والعزة واستكمال شريعة الله وإعلان أحكامها متحدية عقائد المشركين وفسادهم وأحكام جاهليتهم.

وهنا يظهر لنا معنى: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي كملت الشريعة اليوم

وصارت مؤيدة وصالحة لكل زمان ومكان وغير قابلة للنسخ.

قال الإمام القفال: «إن الدين ما كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً»^(١).

يعني كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، ولكنه أراد أن يعلن -وقد دانت الجزيرة للإسلام ودولته- كمال الشريعة وتمامها وما خصّها الله بها من أحكام تفيدها وعمومها وإصلاحها وصلاحها لكل زمان ومكان. وهذا ما ينبه إليه قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ بَيِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾.

وهذا ما نبه إليه صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي: «كفيتكم أمر عدوكم وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومنافعهم، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد وأتممت عليكم نعمتي بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم، وأن لم يحج معكم

(١) تفسير المنار / نقلًا عن القفال / الآية / وانظر الوسيط - الآية .

مشرك ولم يطف بالبيت عريان، أو أتمت عليكم بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام» (١).

وهذا ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يقول: يئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبداً (فلا تخشوهم) في اتباع محمد (واخشوني) في عبادة الأوثان وتكذيب محمد، فلما كان النبي ﷺ واقفاً بعرفات وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعده حلال ولا حرام ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي منّي فلم يحج معكم مشرك ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٢).

سماحة الإسلام ويسر الشريعة الإسلامية :

وكان من المناسب أن يبين يسر الشريعة وسماحتها وتقديرها لضرورات الناس وحاجاتهم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد ذكر الأحكام التي بينت كمال الشريعة وتمامها وتطهير من اتبعها من عقائد الجاهلية ومطاعمها ورجسها وأقذارها.

وقوله: ﴿أَضْطُرَّ﴾ من الاضطرار بمعنى الوقوع في الضرورة.

والمخخصة: خلو البطن من الغذاء عند الجوع الشديد.

(١) الكشاف / المائدة / الآية .

(٢) المنار / المائدة / الآية .

والمعنى: فمن ألبأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات في مجاعة شديدة حال كونه غير متجانف أي غير مائل إلى ارتكاب إثم من الآثام، فلا ذنب عليه في ذلك لأن الله تعالى واسع المغفرة، فهو بكرمه يغفر لعباده تناول ما كان محرماً إذا اضطروا إلى تناوله بدون بغي أو تعد، وهو واسع الرحمة حيث أباح لهم ما يدفع عنهم الضرر ولو كان محرماً، قال العلماء: «وبذلك ترى أن الآية الكريمة بينت ما يحرم في حالة الاختيار، وما يحل في حالة الاضطرار. وجاءت بين ذلك بحمل معترضة - وهي قوله: ﴿الْيَوْمَ يَيسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ دِينِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ لتأكيد تحريم هذه الأشياء لأن تحريمها من جملة الدين الكامل، والنعمة التامة، والإسلام المرضي عند الله».

وتظهر خصيصة الإسلام بسماحته ويسر شريعته بتقديره للضرورة الإنسانية، وكذلك تظهر في صلب شريعته التي أحلت الطيبات والصيد بشروطه الشرعية، وهذا ما بينته الآية التالية:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد: ما الذي أحل لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم منها؟ قل لهم: أحل الله لكم الطيبات من الأطعمة من الحلال الطيب التي ترضاها الطباع السليمة ولا تنتزرها، وأحل لكم أيضاً صيد ما علمتم من الجوارح من سباع البهائم والطيور، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي. والجوارح جمع جارحة، وهي الكواسب من سباع البهائم والطيور، سميت جوارح لجرحها الصيد عند إمساكها لمصلحة أصحابها.

وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي مؤدبين ومعودين لها على الصيد.

فتعليم الجوارح الصيد وإتقان هذه الصنعة مما نبهت إليه الآية الكريمة.

فالتكليب: تعليم الكلاب وما يشبهها الصيد، فهو اسم فاعل مشتق من اسم

هذا الحيوان المعروف لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب.

العلم والدربة من سمات المسلم الحضارية :

وقوله: ﴿تَعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ في محل نصب على أنه حال ثانية من

فاعل (علمتم)، أي تُعلِّمون هذه الجوارح بعض ما علمكم الله إياه من فنون العلم

والمعرفة بأن تدربوهن على وسائل التحايل والطرق المتنوعة لاصطياد الفريسة، وعلى

الانقياد لأمركم عند الإرسال، وعند الطلب، وعلى عدم الأكل من الصيد بعد صيده.

وانتصاب (مكليبين)، على الحال من (علمتم) وفائدة هذه الحال أن يكون من

يعلم الجوارح نحريراً في علمه، مدرباً فيه، موصوفاً بالتكليب، وقوله تعالى:

﴿تَعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف.

وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علم ألا يأخذه إلا من أبرع أهله

علماً، وأكثرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه

أكباد الإبل. فكم من آخذ عن غير متقن، قد ضيَّع أيامه وعضَّ عند لقاء النحرير

أنامله^(١).

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ جملة متفرعة على بيان حل صيد

الجوارح المعلمة، ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره، والأمر فيه للإباحة.

(١) الكشاف ١/٩٠٦ / الآية .

﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ والضمير في (عليه) يعود إلى (ما علمتم من

الجوارح) أي عند إرسالكم الجوارح للصيد فسمّوا عليها، ويدل عليه قوله ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله تعالى فكل مما أمسك عليك»^(١).

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي واتقوا الله وراقبوه واخشوه في كل شؤونكم واحذروا مخالفة أمره فيما شرع لكم وفيما كلفكم به، فإنه تعالى لا يعجزه شيء، وسيجزى كل إنسان بما يستحقه، وختم هذه الآيات بهذه الجملة الكريمة بيان بخصيصة الشريعة الإسلامية في التطبيق، فرقابة الله في قلوب أبنائها أكبر من سلطان الدولة.

من أعظم خصائص الأمة الإسلامية الحضارية أنها أمة الطهارة و العبادة والعدل بإقامة شعائر العبادة لله وحده، وإقامة الشهادة لله رابطة بين العبادة والسلوك والمعاملة بإقامة العدل ونصرتة؛ وإن اتفقت الأمة بعبادتها وأداء هذه الطهارات والعبادات بكيفية واحدة وأسباب واحدة هو من أسباب اتفاق القلوب ووحدانية الأمة الثقافية.

وهذا ما تلفت النظر إليه الآية التي ذكرت أحكام الوضوء للصلاة والطهارة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة/٦].

وتلت هذه الآية الآيتان اللتان تأمران بالوفاء بالميثاق والقيام بالعدل وهما:

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ

(١) رواه البخاري / التجريد الصريح / رقم / ١٨٨٦ و ١٨٨٧ / بسنده عن أبي تعليق الخشني كتاب الذبائح

فَلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ^ط أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة/٧-٨].

وهذه الخصيصة الحضارية بإقامة العبادة لله هي التي نوه بها القرآن الكريم في صفة محمد ﷺ وأمه ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ^ط وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ^ط تَرْتَلِبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح/٢٩].

فأمة العدل والوفاء بالميثاق هي أمة الجهاد والدفاع عن الدين والحرمات، وهي أمة العبادة وإقامة شعائر الله في بيوت الله ﴿ تَرْتَلِبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ^ط ﴾.

وسياق الآيات التي جمعت بين هذه الأوصاف لهذه الأمة حتى لا تفصل في تربيتها لأبنائها بين العبادة والجهاد والوفاء بالعقود والمواثيق، والعدل مع العدو والصدق.

والدارس لتاريخ الحضارة الإسلامية يجد هذه الخصائص الحضارية لهذه الأمة في مساجد الله التي قامت في جميع الأحياء والمؤسسات معلنة عن شخصية الأمة الإسلامية وهويتها الحضارية.

كما يجدها في حصونها وقلاعها وإعدادها الجهادي للدفاع عن الدين والأرض وكذلك يجدها في وفائها بعهودها وأمنها وقلة نسبة الخصومة في محاکمها.

وقد حذرنا القرآن الكريم من الفصل بين العبادة والسلوك فقال: ﴿فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ هُمْ
يَرَاءُونَ ﴿٣﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

وما أجمل ما ذكره الإمام الرازي في الربط بين مطلع السورة وهذه الآيات:

اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا
بِالْعُقُودِ﴾ وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية.

فقله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ طلب -تعالى- من عباده أن يفوا بعهد العبودية،
فكانه قيل: يا إلهنا العهد نوعان: عهد الربوبية منك، وعهد العبودية منا، فأنت أولى
بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان. فقال -تعالى- : نعم أنا أوفي أولاً بعهد
الربوبية والكرم. ومن وفاء الله لنا بعهد الربوبية والإحسان ما أحله لنا من الطيبات
وبيانه ما يحل ويجرم من المطاعم والمناكح، ليشغل المسلم بعد ذلك بشكر هذه النعم
والوفاء بعهد العبودية.

ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا
بالطهارة، لا جرم بدأ -سبحانه- بذكر شرائط الوضوء، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

والمراد بالقيام للصلاة إرادة القيام إليها، والتهيؤ للدخول فيها من باب إطلاق
المسبب وإرادة السبب، للإيجاز، والتنبه على أن الشأن في المؤمنين أن يكونوا دائماً
على ذكر من إرادتها وعدم الإهمال في أدائها، وليس المراد بالقيام انتصاب القامة أو ما

يشبه ذلك بل المراد به الاشتغال بأفعال الصلاة وأقوالها وكل ما يتعلق بذاتها، والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة هم الذين يؤدونها بخشوع مستوفية أركانها وأحكامها محققة لحكمتها المذكورة بقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (١).

بعض الأحكام المستفادة من الآية:

وقد بين العلماء أركان الوضوء المستفادة من آية الوضوء وهي: غسل الوجه، واليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين، وأضافوا إلى ذلك النية والترتيب بين الأركان لأن هذه الأركان قد ذكرت بهذا الترتيب في القرآن فيجب التزامه، ولأن النبي ﷺ لم يخالف هذا الترتيب ولو مرة واحدة، فوجب اتباع ما جاء عنه ﷺ.

وهذا الحكم بوجوب الوضوء، إذا كنتم محدثين حدثاً أصغر وأردتم الصلاة، أما إذا كنتم محدثين حدثاً أكبر بأن كنتم جنباً بسبب خروج مني أو التقاء ختانين وأردتم الدخول في الصلاة فعليكم في هذه الحالة أن تطهروا -أي- أن تغسلوا بالماء جميع بدنكم، وهكذا تلتقي العبادة بالغسل مع حكمة الإسلام في طهارة الباطن والظاهر وإعداد المسلم ليكون أهلاً للاستخلاف في الأرض طاهراً نظيفاً، وكذلك تظهر هذه الحكمة بالاغتسال بعد الحيض والنفاس للمرأة، لأنه -أي الاغتسال- يبعث في الإنسان حسن الاستعداد لذكر الله، ولأداء تكاليفه.

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي / المائدة / الآية .

يسر الشريعة وسماحتها:

ثم شرع سبحانه في بيان الأعذار التي تبيح التيمم من أجل الطهارة عند العجز عن استعمال الماء، فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾.

والمراد بالمرض: المرض الذي يمنع من استعمال الماء مطلقاً كأن يكون سبباً في زيادة المرض أو يؤخر الشفاء، والمراد بالسفر السير خارج العمران الذي يفقد فيه الماء وليس المراد هنا سفر القصر.

﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ وهو المكان المنخفض من الأرض، وهو كناية عن الحدث، لأن العادة جرت أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المنخفض ليتوارى عن أعين الناس.

﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ والمراد به الجماع وهو هنا كناية عما يكون بين الرجل والمرأة مما يوجب الاغتسال.

أدب الخطاب وحسن التعبير لتعليم للأمة للبعد عن الألفاظ النابية:

والتأمل في قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ في إسناد المحيء إلى واحد مبهم من المخاطبين، يجد سموً في التعبير، حيث تحاشى - سبحانه - التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا من ذكره أو يستهجن التصريح به، وفي ذلك تعليم للناس الأدب في الخطابة، والبعد عن الألفاظ التي تخدش الحياء، ويأبأها الذوق السليم.

وكذلك في تعبيره عن الجماع بقوله: ﴿أَوْلَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية قرآنية يُعَلِّمُ ربنا عباده فيها حسن التعبير، والبعد عن الألفاظ التي تتنافى مع آداب الإسلام في البعد عن كل ما يجرح الذوق العام وتعاليم الإسلام.

﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

والمراد بالتيميم: القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به، والصعيد يطلق على وجه الأرض البارز تراباً كان أو غيره، والطيب الطاهر الذي لم تلوثه نجاسة ولا قدر.

وقوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ بيان لكيفية التيمم، أي إذا لم تجدوا ماءً للتطهر به، أو وجدتموه ولكنكم عجزتم عن استعماله، فاقصدوا تراباً طاهراً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

حتم سبحانه الآية الكريمة ببيان إحدى خصائص الشريعة الإسلامية القائمة للرسالات القائمة على اليسر في التكليف الشرعية ومراعاة قدرات الإنسان بأن لا تكلفه ما يشقّ عليه، فبيّن بعد ذكر أحكام الوضوء والغسل والتميم: ما يريد سبحانه بذلك ليحعل عليكم من حرج. أي ضيق ومشقة وعسر، ولكن يريد بذلك أن يطهركم من الأرجاس الحسيّة والمعنوية، وليطهركم من الذنوب والمعاصي، وليتم نعمته عليكم بهذا الدين وأحكامه التي شرعها لكم لتسعدوا وتفوزوا في الدنيا والآخرة، ولكي تشكروه على نعمه وإحسانه وشريعته، فيزيدكم من فضله.

وقد نبه القرآن الكريم إلى ما يميز الشريعة الإسلامية بيسر تكاليفها وسماحتها في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة/١٨٥] بعد ذكر فريضة الصوم وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

مِنْ حَرْجٍ ﴿الحج/٧٨﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخْفِفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

ولصاحب تفسير المنار كلام جيد في هذه الآية قال: «ما نفاه الله تعالى من الحرج في هذه الآية قاعدة من قواعد الشريعة وأصل من أعظم أصول الدين تبني عليه وتتفرع عنه مسائل كثيرة وقد أطلق هنا نفي الحرج والمراد به أولاً وبالذات ما يتعلق بأحكام الآية أو بما تقدم من الأحكام من أول السورة، وثانياً بالتبع جميع أحكام الإسلام، ولهذا لم يقل: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج فيما شرعه لكم من أحكام الطهارة مثلاً لأن حذف المتعلق يؤذن بالعموم وإنما صرح في آية سورة الحج بنفي الحرج من الدين كله؛ لأن سورة الحج من السور المكية التي بينت أصول الإسلام وقواعده الكلية، وهي تدل على أن القيام بما لا بد منه من عزائم الأمور ليس من الحرج في شيء، لأنه نفي الحرج بعد الأمر بالجهاد في سبيل الله حق الجهاد بقوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ مَلَّةً أُنْبِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج/٧٨].

«وحق الجهاد: هو بذل الجهد في الطريق الموصل إلى إقامة سنن الله تعالى وحكمته في خلقه وكل ما يرضيه من عباده من الحق والخير والفضيلة، ولا يصعد الإنسان إلى مستوى كماله إلا يبذل الجهد في معالي الأمور، وإنما الحرج هو الضيق

والمشقة فيما ضرره أرجح أو أكثر من نفعه كالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة والامتناع من سد الرمق بلحم الميتة أو الخنزير أو الخمر لمن لا يجد غيرها...». وكاستعمال المريض الماء في الوضوء أو الغسل مع خشية ضرره، وكذلك استعماله في البرء بهذا القيد.. (١).

من خصائص الشخصية الإسلامية انتفاعها بالأحداث وحسن تذكرها للعهد والميثاق:

أ- جاء قوله تعالى بعد الآيات السابقة: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ لينبه رجال التربية والتعليم التوجيه العام والأمة المسلمة إلى النقاط التالية:

١- التذكير الدائم بنعمة الله.

٢- التذكير بالميثاق.

٣- التذكير بتقوى الله.

فالتذكير بنعمة الله عليهم وما كانوا عليه قبل الإسلام من شقاء وفساد كفاراً متفرقين متباغضين يستحل بعضهم دماء بعض وأموال بعض وأعراض بعض فحوّلم الله بهذا الدين إلى نعمة الإيمان بعد الكفر، والوحدة والأخوة بعد الفرقة، والمحبة بعد البغضاء، والسلام بعد الحروب، وهذا ما يدعوهم إلى أن يزدادوا تمسكاً بهذا الدين ووفاءً لميثاقهم الذي واثقهم به وهو عهده الذي عاهد به أصحاب نبيه حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه والعسر واليسر وألا يعصوه في معروف.

(١) المنار / ٦ / ٢٦٩ - ٢٧٠ / المائدة / الآية .

ويذكرهم بالتقوى واستحضار عظمة الله وخشيته للوفاء بالعهد والميثاق وتذكر
نعمة الله عليهم بهذا الدين لأن الله عليم بذات الصدور لا يخفى عليه ما تنطوي عليه
سريرة كل أحد من الإخلاص والرياء، وسيرون ما يترتب على ذلك من الجزاء. (١).
ب- ومن خصائص المسلم الحضارية أنه قوام لله شاهد بالقسط، قائم بالعدل
متحرر من ضغوط الهوى والكراهية.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ
بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ءَءَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا ءَأُولَٰئِكَ ءَصَحَبُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ [المائدة/٨-١٠].

(١) المنار/٦/٢٧١-٢٧٢.

ولنا وقفات عند هذه الخصائص:

المسلم قوام لله:

والقوام هو المبالغ بالقيام بالشيء، وهو الإتيان به مقوماً تاماً لا نقص فيه ولا عوج، وقد حذف هنا ما أمرنا بالمبالغة في القيام به فكان عاماً شاملاً لجميع ما أخذ علينا الميثاق به من التكاليف حتى المباحات، أي كونوا من أصحاب الهمم العالية وأهل الإتقان والإخلاص لله تعالى في كل عمل تعملونه من أمر دينكم أو أمر دنياكم.

المسلم شاهد بالعدل:

﴿شُهِدَ آءَ بِالْقِسْطِ﴾: والشهادة بالقسط وهي أن تكون بالعدل بدون محاباة

مشهود له، ولا مشهود عليه متحررة من ضغوط القرابة والمحبة، والمصلحة والهوى، فالشاهد يسعى لإظهار الحق للحاكم ليحكم به، أو الإقرار به لصاحبه، و(القسط): هو ميزان الحقوق متى وقعت فيه المحاباة والجور لأي سبب زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد، وتقطعت روابطهم الاجتماعية، وأصبح المجتمع غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وهذا مؤذن بهلاك الأمة ودمارها وزوال استقلالها وهو متحرر من

ضغوط العداوة والهوى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فلا

يكسبنكم ويحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم، وبغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل في أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب الحق، وكذلك الحكم لهم في مشاهدة الحال، فلا يتوهمن متوهم أنه يجوز ترك العدل في الشهادة للكافر أو الحكم له بحقه على المؤمن.

المسلم قاسم العدل:

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي قد فرضت عليكم العدل فرضاً لا هوادة

فيه، اعدلوا هو - أي العدل- المفهوم من ﴿اعْدِلُوا﴾ أقرب لتقوى الله أي لاتقاء

عقابه وسخطه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه تعالى

شيء من أعمالكم ظاهرها وباطنها، ولا من نياتكم ولا أساليب الخداع والحيل التي تستعمل لكسب القضية، وإضاعة حقوق الناس، وهو الحكم العدل القائم بالقسط، فاحذروا أن يجزيكم بالعدل على ترككم العدل، فقد مضت سنته العادلة بأن جزاء ترك العدل هو ذل الأمة وهواتها (1).

وقد بين الله هذا الحكم في سورة النساء بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا

قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّرًا

أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء/ ١٣٥].

واللعني: خطاب لأهل الإيمان أن يكونوا مجتهدين في إقامة العدل شهداء لله،

لوجهه تعالى ومرضاته، ولو تعلقت شهادتهم بأنفسهم وشهادة الإنسان على نفسه هي إقراره بالحق، ثم ذكر الوالدين والأقربين إذ هم مظنة للتعصب والميل، فإقامة الشهادة

على الأجنبي من باب أولى وأحرى ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا﴾ جواب الشرط

محذوف، أي: إن يكن المشهود عليه غنياً، أو من أصحاب الجاه والنفوذ، والقرار، فلا

(١) المنار ٦ / ٢٧٣ و ٢٧٤ المائدة / الآية .

تمتنع من الشهادة تعظيماً له، وإن كان فقيراً فلا تمتنع من الشهادة عليه، فإن الله تعالى أولى بالغني والفقير وبالنظر إليهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ تَعْرِضُونَ﴾ والخطاب هنا شامل للشهود والحكام، واللي هو تحريف الكلام، أي تلووا عن الحكم بالعدل، أو عن الشهادة بالحق، أو تعرضوا عن صاحب الحق، أو عن المشهود له بالحق، فإن الله يجازيكم فإنه خبير بما تعملون.

وفي قراءة: (إن تلو) بضم اللام من الولاية أي إن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عنها فإن الله خبير بما تعملون يجازيكم بعملكم. (1).

بشرى لأهل العدل والتقوى:

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها تشرع المؤيدات التربوية لضمان تنفيذ أحكامها، كما تشرع الأحكام نفسها، ولهذا جاء قوله تعالى بعد هذه الآيات ببيان جزاء العاملين المتقين كما حذرت غير المتقين بقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٢).

والكفر هنا شامل للكفر بالله ورسله، ولا فرق فيه بين الكفر بجميع الرسل، والكفر ببعض والإيمان ببعض، ومن الكفر الاعتداء على حق الله في الحكم والتشريع ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣). ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(1) تفسير الطبري / المائدة / الآية .

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١١٠﴾

التربية بالتذكير بالأحداث ورعاية الله لأوليائه والتحذير من مكر الأعداء:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ [المائدة/١١٠].

إن ترسيخ بناء المجتمع الإسلامي من الداخل بإقامة العدل وأداء الشهادة لله،
والتححرر من الضغوط التي تنحرف بالإنسان عن العدل، وتمادك أبناء المجتمع وتعاونهم
على البر والتقوى هو الذي يشكل الجبهة الداخلية القوية للأمة، ويعطيها القوة والمنعة
في الجبهة الخارجية لمواجهة أعدائها وتأييد الله لها بنصرتها على أعدائها وكف أيديهم
عنها وحرمانهم من تحقيق أهدافهم في بلاد المسلمين.

والدارس لسبب نزول الآية وأما نزلت في رجل هم بقتل النبي ﷺ فوقع السيف
من يده فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله
إلا الله وأني رسول الله. قال: أعاهدك ألا أقاتلك وألا أكون مع قوم يقاتلونك (١).

وروي أنها نزلت في قصة النبي ﷺ مع بني النضير إذ ذهب إليهم ومعه أبو بكر
وعمر رضي الله عنهما واستغلّ بنو النضير الزيارة فهموا أن بهذه القصة.. وكان من
نتيجة ذلك إخراج بني النضير من المدينة لخيانتهم لعهدهم وعزمهم على قتل النبي ﷺ.

قتل القادة واغتيالهم مكر يهودي قديم:

إن ما يفعله اليهود اليوم على أرض فلسطين من اغتيال قادة المقاومة يذكرنا بسلاح الإيمان والتقوى والتوكل والصبر والمصابرة في مواجهتهم، مع حسن إعداد الجبهة الداخلية وتنظيم الجهاد بالإيمان والعدل وحسن التربية.

فالآية تذكر المؤمنين بسلاح أعداء الإسلام القديم الجديد في اغتيال قيادات الدعوة الفكرية والجهادية، وكيف حمى الله نبيه ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في بداية عهد الدعوة، وهي نعمة ومنة يحمد الله عليها المؤمنون إلى يوم القيامة، لأن حفظ الله تعالى لأولئك السلف الصالحين هو عين حفظه لهذا الدين القويم، فالنبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وأصحابه هم الذين تلقوها بالقبول وأدوها لمن بعدهم بالقول والعمل، وهذا ما وعد الله به نبيه ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة/67].

ومن فوائد هذا التذكير للمتأخرين ترغيبهم في التأسى بسلفهم في القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر والإحسان، واحتمال الجهد، والصبر على المشاق في هذه السبيل وهي سبيل الله، وهذا هو المعنى العام للجهاد في سبيل الله.

التقوى والتوكل:

وإن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ﴾ تذكير بالتقوى بعد التذكير بالنعمة حتى يكونوا دائماً أهل المبدأ والميثاق والوفاء لله فاتقوا الله الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكولون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه والسير عليها.

(وعلى الله فليتكول المؤمنون) بقدرته وعنايته وفضله ورحمته، لا على أنفسهم ولا على أوليائهم وحلفائهم لأن الحليف قد يغدر كما غدرت بنو النضير، ولأن النفس قد تضعف أمام كبر المواجهات والتحديات.

فالمؤمنون ماضون في جهادهم ومقاومتهم يتسلحون بالتقوى ويتحصنون بالتوكل على الله الذي وعدهم إن أعدوا وصبروا وصدقوا وتوكلوا بالنصر والتمكين.

التربية بالقدوة وحسن دراسة التاريخ والانتفاع بتجارب الأمم السابقة:

يقول أحد العلماء: (إن القدوة عامل من أقوى عوامل التربية، وهي في تربية الأمم مثلها في تربية الأفراد، فإن أحسن طريقة يتخذها المربي في تربية الناشئ هي أن يصف له أعمال رجال الفضيلة فيقتدي بهم، وأعمال رجال الرذيلة فيتجنب عملهم، وهكذا الأمم في طور تكونها؛ يجب أن تستفيد من أمم التاريخ فتقتدي بهذه، وتحميد عن عمل تلك.^(١)

سلك القرآن في تربيتنا -معشر المسلمين- هذه الطريق من التربية فقص علينا من أخبار الأمم السالفة، وما جرى لها لنستفيد من ذلك عظة وعبرة.

(١) نظرات في التفسير للشيخ عبدالقادر المغربي .

فبعد أن ذكّرت الآيات السابقة هذه الأمة بالوفاء بالميثاق والالتزام بتكاليف الشريعة والسمع والطاعة لله ورسوله، ناسب أن يقصّ علينا ربنا من خبر اليهود الذين آتاهم الله التوراة فيها هدى ونور، وأخذ عليهم الميثاق للقيام بطاعة الله ونصرة رسله، ولكنهم نقضوا ميثاقهم وخانوا الرسالة والرسول فلعنهم الله وأذهب دولتهم واستقلّاهم وشردهم في الأرض، فحذرنا ربنا أن نقض ميثاقه ونخالف شريعته فيصيبنا مثل ما أصابهم.

ولنقف عند هذه الآيات لنستخلص دروسها: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ

اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي

أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ
دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ
﴿١٤﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

١- نبه القرآن أمة الإسلام إلى عظمة أمر الله بالوفاء بميثاقه وما وعد الله به بني إسرائيل من خيرات وبركات إذا وفوا بهذا الميثاق.

٢- وجهت الآيات الكريمة إلى التنظيم الشعبي الإيماني للأمة، كما وجهت إلى الاعتصام بالله وإقامة شرائعه، وهذا ما يفيدته قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ

اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

والنقيب كبير القوم، والكفيل عليهم، والمنقب عن أحوالهم وأسرارهم، فيكون شاهدهم وضمينهم وعريفهم، يقال فلان نقاب للعالم بالأشياء، الذكي القلب، الكثير البحث عن الأمور. (١).

(١) الألووسي ٦/٨٥٠/المائدة / الآية .

وقد اختار موسى عليه السلام اثني عشر نقيباً لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً،

كما قال تعالى: ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف/١٦٠].

ولأن كل نقيب كان بممثلة الرقيب على القبيلة التي هو منها يذكرها بالفضائل

ويرغبها في اتباع موسى عليه السلام وينهاها عن معصيته.

وعلى هذه السنة كان نبينا محمد ﷺ يختار النقباء للقبائل. والتنظيم الشعبي هو

الوسيلة الوحيدة للتوعية ببرامج العلماء الإصلاحية وحشد الشعب ليكونوا معهم في

نصرة دين الله.

٣- وجهت الآية الكريمة لمضمون الميثاق، ومقومات الأمة المؤمنة التي تفي بميثاق

الله وهي: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ

بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءً

السَّبِيلِ ﴿٢﴾

فاللام في قوله: ﴿ لَئِنْ ﴾ موطئة للقسم المحذوف و (إن) شرطية، وقوله:

(لأكفرن) جواب القسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وكله

مؤكد لمضمون القسم والشرط.

فإقامة الصلاة في الأمة تعني أنها الأمة العابدة الموحدة التي تقيم الصلاة لله في

مساجدها، ومؤسساتها، وأن المظهر العام للمجتمع الإسلامي إحيائها في مدنه وقراه

وريفه، عامرة ببيوت الله.

وإيتاء الزكاة تعني أنها أمة متكافلة تحارب الفقر كما تحارب الكفر، فالأغنياء مسؤولون عن سدّ حاجات الفقراء، وإيتاء الزكاة -أيضاً- يعني التطهر من الأخلاق الذميمة والتحلي بالأخلاق الكريمة لأن معاني الزكاة لغة: الطهارة والنماء.

﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ فالأمة التي تحمل الرسالة هي التي تؤمن برسول الله ولا

تفرق بين أحد من رسله.

قال الإمام الرازي: (وأخر سبحانه الإيمان بالرسول عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه مقدم عليها؛ لأن اليهود كانوا مقرّين بأنه لا بد من حصول النجاة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إلا أنهم كانوا مصرّين على تكذيب بعض الرسل، فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لا بد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود. وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل.^(١))

وفي هذا إشارة إلى أن أمة محمد ﷺ هي وارثة الرسالات جميعاً، وأن الإيمان برسول الله يعني تشريفهم وتكريمهم وتعظيم شأن رسالاتهم.

﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ من التعزيز بمعنى النصر والإعانة مع التعظيم والتفخيم،

يقال عزّر فلان فلاناً إذا نصره وقوّاه، وأصل معناه المنع والذبّ لأن من نصر إنساناً منع عنه أعداءه.

وكان النبي ﷺ قبل الهجرة يعرض على قبائل العرب الإسلام والنصرة ويقول: (من ينصرني ويؤوييني إلى أن أبلغ كلمة ربي وله الجنة)^(٢).

وكانت بيعة العقبة الثانية وميثاقها قائمة على الإيمان والنصرة.

(١) الفخر الرازي/ المائدة / الآية .

(٢) كتاب السيرة لابن اسحق / وللشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب.

ولما أحس عيسى عليه الصلاة والسلام بالخطر على حياته ودعوته طلب النصره، وهذا ما ذكرنا الله به في سورة الصف: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

القرض الحسن:

وحيث يشد البلاء وتجتمع كلمة أعداء الإسلام على حرب الإسلام وأهله فلا سبيل للمقاومة إلا بالنصرة التي تقتضي التنظيم المقتدي بهداية القرآن ومنهج الرسول عليه الصلاة والسلام، والقرض الحسن ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن أنفقتم جانباً من أموالكم في وجوه الخير والبر التي يتطلبها المسلمون كما يتطلبها العمل الجهادي والتنظيم الحركي لنصرة دين الله ومقاومة أعدائه.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ، ﴿لَئِن أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾.

هذه هي الجائزة التي تنتظر الدعاة الذين اجتمعت قلوبهم وتألفت صفوفهم للوفاء بميثاقهم مع الله عبادة ونصرة لرسله ودينه. إني معكم بالنصرة والتأييد والحفظ والرعاية، فالله تعالى مزمه عن المعية بالذات، وهذه المعية كانت حصن رسول الله في الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا لَمَعْنَا﴾ وحصن نبي الله موسى عليه السلام حين تراءى الجمعان وقال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ

مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وهذه المعية كانت الوعد الذي ينتظر بني إسرائيل لو وفوا بعهدهم وميثاقهم. وذكر الله بعض نعمه لمن وفى بميثاقه تعالى ﴿لَأَكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

تهديد ووعيد لمن ترك الدين الحق وخذل رسل الله:

وختم الله الآية بقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ليدرك أمة الرسالة أن شريعة الله حين تنزل عليها، وميثاق الله

حين يؤخذ عليها، يحملها مسؤولية عظيمة لحمل الرسالة والحكم بالشرعية.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضلّ سواء

السييل، فلم قال: فمن كفر بعد ذلك؟ قلت: أجل من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضلّ،

ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم لأن الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة، فإذا

زادت النعمة زاد قبح الكفر وبلغ النهاية العظمى).^(١)

وبذلك ترى أن الآية الكريمة قد حذرت أمة الإسلام - التي أنزلت عليها أعظم

رسالة أتت من أقدس مقام بواسطة أقدس إنسان، وهو محمد بن عبد الله الرسول في

تبليغ تلك الرسالة إلى الخلق، لتكون خاتمة الرسالات وهاذية الأمم والشعوب - أن

تستهين بعظم هذه الرسالة وميثاقها ومسئوليتها في الحكم بما وإقامتها، فيصيبها ما

أصاب بني إسرائيل من عقوبات ربانية ذكرها الله في الآيات التالية: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ

مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً^ط يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

(١) الكشاف / المائدة / الآية .

مَوَاضِعِهِ^١ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ^٢ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ^٣ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ^٤ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿

[المائدة/١٣].

عقوبة أمة الرسالة التي تخونها ولا تنفي بميثاقها:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً^٥﴾

أي بسبب نقضهم ميثاقنا الذي أخذناه عليهم وواثقناهم به -ومنه الإيمان بما نرسله إليهم من الرسل ونصرهم وتعزيرهم والالتفاف حول قيادتهم والعمل بشريعتهم- استحقوا لعنتنا والبعد من رحمتنا، لأن نقض الميثاق قد دس نفوسهم، وأفسد فطرتهم، وقسى قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء والعلماء وعطلوا شريعة الله واحتالوا على أحكامه، وهذا ما ذكره الله في كتابه الكريم في مواضع عديدة منها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

ومنها قوله تعالى في وصف اجترائهم على التحايل على شريعة الله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ

عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ [الأعراف/١٦٣].

ويذكر الله ما حلّ بهم من عذاب وتشريد وفقد للاستقلال وغلبة للأعداء

بسبب تعطيلهم لشريعة الله وتحايلهم على أحكامها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ

رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ

ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا

الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ

يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿ [الأعراف/١٦٨-١٦٩].

ويذكر الله اللعنة التي حلت بهم على لسان أنبيائهم، وما حلّ بهم بسبب تماؤفهم

بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخروجهم عن هداية الأنبياء ونقضهم

لميثاقهم، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة/٧٨-٧٩].

عقوبة قساوة القلوب:

هناك فرق عظيم بين القلوب اليقظة المسارعة للقيام بالالتزام بشريعة الله والجهاد لنصرة دينه والغيرة على شرعه وأحكامها «الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»، «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين».

وبين القلوب القاسية التي فسدت فطرتها، وتشربت حب الدنيا ولهوها وحبجت عن نور الهداية، وآثرت القعود على الجهاد، والجبن والسلامة على مواجهة الظالمين وتحمل الشدائد حتى فقدت (الحس) بالمصائب والجراح، وفقدت الإنكار للمعاصي والآثام، كما فقدت القدرة على الحركة لمواجهة أعظم الأخطار التي تهدد وجودها وهويتها ودينها ومقدساتها.

والذي يتأمل في واقع المسلمين اليوم، واحتلال العدو لبلادهم في فلسطين والعراق والشيشان وغيرها من بلاد الإسلام، ويرى هذا (الجمود) أو قسوة القلوب التي لا تملك القدرة على الإنكار والحركة والتعاون من أجل الإصلاح والتغيير، يعلم عظم مسؤولية العلماء والمؤسسات التربوية في إزالة هذه القسوة وإحياء القلوب وإعادة الأمة للمقاومة قبل أن تهلك كما هلك بنو إسرائيل.

قساوة القلب ومدلولها اللغوي والشرعي والاجتماعي:

وقوله: ﴿ قَسِيَّةٌ ﴾ بوزن فاعلة - من القسوة بمعنى الصلابة واليبوسة-

وقساوة القلب هنا مجاز عن عدم تأثرها لمواعظ الترغيب والترهيب. وقرئ: (قسية) بمعنى رديئة فاسدة من قولهم: (درهم قسي) على وزن شقي أي فاسد مغشوش، وهذا يصور لنا أثر التوجيه الفاسد والتغريب في إفساد الفطرة والقلوب.

وبعبارة أخرى فالقلب القاسي كالصخرة القاسية لا تنتفع بماء ولا تنبت غرساً ولا ثمرًا، وكذلك القلب القاسي لا ينتفع بهداية الله ولا تحركه مصائب الأمة، ولا يتفاعل مع أهدافها، وهمومها، همّه أن يأخذ ولا يعطي، وأن يعيش لمتعه الشخصية ومصالحه الذاتية، وقد نجح المستعمر منذ مطلع القرن الماضي ببرمجة الجامعات والمعاهد والمدارس والإعلام لإخراج جيل جديد يعيش لمتعه ورتبته وراتبه، صقيل الوجه مظلم الروح، يتشرب هوية الغرب وثقافته وأخلاقه، محجوب عن القرآن الكريم فلا يحسن تلاوته ولا فهمه، محجوب كذلك عن السنة النبوية وتاريخ الإسلام، محجوب عن العربية الفصحى فلا يكاد يحسن فهمها أو التعبير بها تعبيراً صحيحاً. وكان من آثار هذا الجيل هزائمنا، واحتلال أوطاننا، وهيمنة القيم الغربية والقوانين الغربية على مؤسساتنا الإعلامية والقانونية والاجتماعية، واجتراء الحكام على تغيير الأحكام القطعية للأسرة في الكتاب والسنة، كتحريم التعدد، وإخراج المرأة من ولاية أبيها وزوجها، والعبث بتشريع الطلاق والملاعنة، والسعي لتغريب المرأة.

ومع هذه الانتهاكات المدمرة للأسرة والمجتمع، لا نجد غضب الأمة بعلمائها وشعوبها، بل نجد قسوة القلوب وجمود الحركة وضعف المقاومة.

وقد كان اكتشاف هذه القسوة يوم احتل الصليبيون بلاد المسلمين سبباً في تأليف الإمام الغزالي لكتابه (إحياء علوم الدين) وظهور مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ عبد الرحمن الجوزي في تليين القلوب وإعدادها من جديد لحياة الطهر

والنقاء، وحياة التزكية والعمل الصالح، وحياة الجهاد والمقاومة التي هيأت لظهور نور الدين وصلاح الدين واستعادة القدس من أيدي الصليبيين.

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى ما يصيب الأمم حين تقسو قلوب أبنائها بسبب بعدها عن هداية الله واجترائها على أحكام دينه، أو بسبب طول الزمن وتغير الأحوال أو بسبب المناهج التربوية والإعلامية الفاسدة، فبنو إسرائيل بعد أن شاهدوا آية إحياء الميت نسوا الآية وعادوا لضلالهم فوصفهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ

ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة/٧٤﴾.

ويحذر الله أمة محمد ﷺ في سورة الحديد وهو يدعوها إلى الجهاد وبذل المال لأعداء كلمة الله أن تقعد عن الجهاد، أو تضعف في الإعداد والبذل أو تنشغل بالزرع والضرع والتجارة عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ﴿١١﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تُلْهِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد/١٦-١٧].

فالأمة كالأرض إذا أهملت ولم تحرث ولم يقم بخدمتها قست وتعطلت وظيفتها، وكذلك الأمم إذا لم تتلق التوجيه الصالح ولم تقم مؤسساتها التربوية والإعلامية

بواجبها بالتربية والتذكير والإعداد قست القلوب وتغيرت وتحولت فكيف إذا كان التوجيه فاسداً، وسماد الأرض سحوم مستورد من الغرب أو الشرق، وحكامها ينفذون توجيهات الأعداء وفي غفلة عن رسالتهم ووظيفتهم.

إن ذكر إحياء الأرض بعد موتها بعد ذكر ما أصاب أهل الكتاب من قبل من قسوة لقلوبهم، هو تذكير للعلماء والحكام بواجبهم في إحياء الأمة وتجديد أمر دينها وإزالة الشوائب الضارة في العقائد والأخلاق والقيم والأحكام، والعودة إلى النبع الصافي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

آثار قسوة القلوب على الأمة:

١- ﴿تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أن الاستهانة بشريعة الله والاجترار

عليها بالتحريف والتغيير والتبديل وهو ما ذكره الله بقوله: ﴿تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، وما فعله أهل الكتاب السابقون بكتبهم إرضاءً لحكامهم أو تحقيقاً لمصالحهم وأهوائهم، هو ما يفعله في زماننا هذا ممن ينتسبون للإسلام من الحكام وعلماء السلاطين من تحريف لأحكام الله في الطلاق والميراث والزواج وغيرها من الأحكام المتعلقة بالأسرة والمجتمع ويخالفون إجماع الأمة ودلالة النصوص القطعية سعياً وراء تغريب الأمة وإلغاء هويتها الحضارية وإفساد فطرتها.

٢- ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا العمل بشريعة الله وجعلوها

كالنسيّة، قال الراغب: (النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى يزول عن القلب ذكره) (١).

والأنواع الثلاثة التي ذكرها الراغب سبباً للنسيان، قد فعلها بنو إسرائيل وتفعله في بلاد المسلمين الأنظمة العلمانية واللا دينية التي عطلت تدريس القرآن الكريم في مدارسها أو أنقصت حصصه حتى جعلت حجاباً بين المتخرجين في المدارس الثانوية والجامعات وبين القرآن الكريم، فلا يحسنون تلاوته ولا تدبره وفهمه.

وكذلك عطلوا شريعته عن العمل بها، واستبدلوا بها القوانين الغربية، فبنوا إسرائيل الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. والأنواع

الثلاثة التي ذكرها الراغب أسباباً للنسيان هي:

١- الغفلة عن تدبر كتابهم والعمل بما فيه بسبب ضعف قلوبهم.

٢- واستيلاء المطامع والشهوات عليها غافلين لاهين.

(١) مفردات الراغب / مادة "النسي".

٣- وإهمال أمر دينهم والعمل بشريعة ربهم عن قصد.

وهذا التفسير يترجمه واقع الحكام المستبدين الذين لم يعطوا القرآن الكريم حقه في التدريس وعطلوا شريعة الله عن قصد، كما يترجمه واقع الشعوب التي غفلت عن أحكام الشريعة وأخلاقها وقيمها وغلبت عليها الأخلاق الغربية والقيم المادية في طريقة لباس المرأة وتبرجها وأسلوب حياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

الحذر والتوقي من كيد الأعداء:

وختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۗ﴾.

من صفات المجتمع المسلم المحافظة على هويته الحضارية والحذر من مكر أعدائه المتربصين به، وفي هذه الآية يحذر الله النبي وأمته من اليهود المعاصرين له والذين ورثوا رذائل آبائهم لأن أخلاق الآباء كثيراً ما يتوارثها الأبناء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ﴾.

وقوله: ﴿خَائِنَةٍ﴾ بمعنى الخيانة أي عدم الوفاء بالعهد.

والمعنى: ولا تزال أيها النبي الكريم ترى في هؤلاء اليهود المعاصرين لك صورة السابقين في الغدر والخيانة، وإن تباعدت الأزمان إلا قليلاً منهم ممن دخلوا في الإسلام فوفوا بعهودهم.

وهذا النص الكريم يحذر هذه الأمة التي وقعت في معاهدات مع اليهود في كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة، ورأت غدر اليهود وخيانتهم. وتختلف هذه الأمة أن تتداول أمرها وتنقذ شعوبها من يهود ومكرهم. والله المستعان.

ومن جهة أخرى تلفت أنظارنا هذه الآية إلى قيمتين:

الأولى: العدل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ...﴾.

والثانية: التسامح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فأهل الكتاب الذين يمحرون بالدعوة وأهلها يستثنى منهم القليل الذي آمن بالرسول ﷺ ولم يشاركهم مكرهم وكيدهم وهذا هو العدل. واطلاع الرسول على خائنة منهم يقابله العفو والصفح والإحسان حين يكون العفو والصفح والتسامح غير محلّ بأمن المجتمع وغير مفض لتماذيبهم في الباطل بل يكون سبباً في ردعهم واحتوائهم وإعادةهم إلى المجتمع مواطنين غير مفسدين.

النصارى والميثاق:

ما كان النصارى أحسن حالاً من يهود بنقضهم لميثاقهم وتركهم العمل بشريعة ربهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

فقد نقضوا ميثاق الله الذي أخذه عليهم على أن يعبدوا الله وحده، وبطبعوا أنبياءه ورسله، والمراد بالنسيان هنا الترك والإهمال عن تعمد وقصد، لأن الناسي حقيقة لا يؤاخذ الله تعالى، والإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَنَسُوا...﴾ للإشارة إلى تعجلهم في ترك الشريعة ونقض الميثاق لاستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم. وفي هذا إشارة إلى قصر الفترة الزمنية في عمر دعوة عيسى عليه السلام وحوارييه وغلبة أهل الباطل والأهواء.

والتنكير في قوله تعالى: ﴿حَظًّا﴾ للتكثير والتفخيم، أي تركوا نصيباً كبيراً مما أمرتهم به شريعتهم من وجوب اتباعهم للحق وإيمانهم بمحمد ﷺ عند ظهوره، فكان تركهم لهذا النصيب العظيم سبباً في ضلالهم وفسادهم في الدنيا والآخرة.

إن فقدان الوحدة الثقافية للأمة مؤذن بتحويلها إلى شيع وأحزاب يستحل بعضها دماء بعض وأموال بعض وأعراض بعض، وهذا ما حذرنا منه النبي الكريم ﷺ بقوله: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. وقيل من هي يا رسول الله؟ قال: التي هي على ما أنا عليه وأصحابي).

وإن ذكر القرآن الكريم لما أصاب النصارى من تفرق وعداوة وحروب بسبب نقضهم للميثاق وخروجهم عن شريعة الله يعطي الدرس للأمة الإسلامية أن تحذر أن تقع فيما وقعوا فيه فيصيبها ما أصابهم من فرقة وعداوة وهلاك.

قال الإمام الشيخ محمد أبو زهرة: (وسبب نسيان حظ أو نصيب كبير مما ذكروا به، هو اضطهاد النصارى اضطهاداً شديداً في عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف منها إلا قليل غير سليم بعد مائتي سنة من ترك المسيح عليه السلام هذه الدنيا. وما ظهرت هذه الأناجيل التي يتدارسونها ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها حسب الطبقات المختلفة، إلا بعد أن دخل قسطنطين امبراطور الرومان في النصرانية، وغير وبدل في مجمع نيقية الذي انعقد في سنة ٣٣٥ ميلادية وقد ذهب لبّ الديانة وهو التوحيد) (١).

(١) تفسير الآية نقلاً عن الوسيط (١١٣/٤) وانظر أيضاً محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة، وانظر أيضاً كتاب: (مباحكات التأويل في مناقضات الإنجيل) لمؤلفه الأديب العالم أحمد فارس الشدياق رحمه الله، الذي كان نصرانياً وأسلم - حقق الكتاب الأستاذ الدكتور محمد أحمد عمارة رحمه الله. طبعة دار وائل للنشر /عمان/ ٢٠٠٣.

يقول أحمد فارس الشدياق في مقدمة كتابه (مباحكات التأويل): (وبعد حمد الله الذي لا تناقض في كلماته ولا تبديل في أحكامه وآياته، فإني لما رأيت مناقضات كتاب الأناجيل الأربعة كثيرة لا يمكن حصرها.. عمدت إلى أحدها وهو الإنجيل المنسوب إلى (متى) فعارضته بغيره من باقي الأناجيل الثلاثة..

هذا ولما كان الخلاف والتخليط في الرواية والتقديم والتأخير في تاريخ الوقائع وتوقيت الحوادث، ممن يدعون أو يدعى لهم أنهم يكتبون من وحي الله بتمثلة المناقضة، أشرت إلى ما عثرت عليه من ذلك.. وأنه إذا بطلت الدعوى بعصمة (متى) عن الغلط فيما نقله عن عيسى أو أخبر به عنه، لم يبق معذرة لغيره. ثم إنه ما عدا التناقض الذي وقع بين هؤلاء الأربعة، فثم مناقضات عديدة بينهم وبين سائر المؤلفين من الرسل الحواريين كبطرس وبولس وغيرهما.. بل تراها أيضاً في كلام كل منهم مكذباً بما نفسه أو مفسداً عقيدته....^(١)

دروس القرآن التربوية والميثاق:

ويجد الدارس للآيات التي تحدثت عن الميثاق في القرآن الكريم وبني إسرائيل

دروس القرآن التربوية لأمة محمد ﷺ ومنها :

١- ففي سورة البقرة: ﴿يَلْبِنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ﴾ [البقرة/٤٠].

أي أوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي، أوف بما عاهدتكم عليه

من حسن الثواب على حسناتكم ﴿وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ﴾ فلا تنقضوا عهدي.

(١) مباحكات التأويل - المرجع السابق ص ١٤ و ١٥ .

وهذا ما ذكّر به أمة الإسلام بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة/١٥٢]، وفي الثناء على أمة محمد ﷺ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/٢٣].

٢- ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة/٦٣].

واللغني: وإذ أخذنا ميثاقكم بالعمل على ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي نتقنا الجبل ورفعناه فوق رؤوسكم كأنه ظلّة، حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي خذوا ما آتيناكم من الكتاب بقوة وجدّ وعزيمة واذكروا ما فيه واحفظوه وادرسوه ولا تنسوه لعلكم تتقون، رجاء أن تكونوا في زمرة المتقين الأخيار.

وفي هذه الآية درس لمؤسساتنا التربوية أن تعطي القرآن الكريم حقه من الحصص اللازمة لإتقان تلاوته وفهمه وتدبره، ودرس لمؤسساتنا القانونية والإدارية والاجتماعية أن تحفظ أحكامه وتطبق شريعته حتى لا تقع فيما وقع به بنو إسرائيل.

٣- شمول الميثاق لإخلاص العبادة لله وحده وحسن الخلق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا

مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ

وَأَلَيْتَمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿البقرة/٨٣﴾.

٤- وشمول الميثاق لحفظ أمن المجتمع. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة/٨٤].

٥- تصوير سبب نقض بني إسرائيل للميثاق. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة/٩٣].

وفي ذكر الآية الكريمة لهذه الأسباب تحذير شديد من الوقوع بمثلها وهي:

أولاً: الاستهانة بأحكام الله وشرعه بقولهم: (سمعنا وعصينا) فهل يدرك الذين
يشرعون الأحكام شعوباً وحكاماً مخالفين شريعة الله، ما وقعوا به من نذير قوله تعالى:
(سمعنا وعصينا).

ثانياً: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ وعجل بني إسرائيل

الذي أشربوا حبه وعبادته كان من ذهب، أما عجل من عطّلوا شريعة الإسلام في بلاد
المسلمين فهو فتنتهم بالحضارة الغربية وإعجابهم بها وعملهم على فرضها على شعوبهم
وفتنتهم بالدنيا والولاء للأجنبي.

نذير لهؤلاء وهؤلاء:

وتحتم الآية بقوله تعالى متهكماً مستهزئاً بمن يدعون الإيمان ويحترثون على تعطيل شريعة الله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في حجة دعواهم له. (١).

ويشتد هذا النذير في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران/٧٧].

فهؤلاء اليهود الذين استبدلوا بما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم وبما حلفوا به من قولهم: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ وَلَتَنْصُرُنَّهُمْ﴾ ثمناً قليلاً من متاع الدنيا من حب الرئاسة والرتب والرواتب والرشاوى يعاقبهم الله عقاباً يتناسب مع جرائمهم في الدنيا فيحرمهم من جنته وهو نصيب الآخرة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم (ولهم عذاب أليم) في نار جهنم.

فهل يعي الذين ينقضون عهودهم مع الله في نصرة دينه والدفاع عن شريعته طلباً للدنيا ومجاعة للظالمين هذه الدروس والعبر!!؟

خصائص الرسالة الإسلامية وفضلها على أهل الكتاب وعلى الناس جميعاً:

بعد التحريف والتبديل الذي أصاب التوراة والإنجيل، وبعد الانحراف الذي وقع به علماء الكتاب من اليهود والنصارى، وما أصاب البشرية على أيديهم وأيدي الحكام المستبدين الذين جاروهم من ظلم للشعوب وشقاء وهلاك، ناسب أن يذكر الله فضله على أهل الكتاب وعلى البشرية جمعاء بالرسالة الإسلامية الخاتمة للرسالات المصححة لانحرافاتها، المكملة لها، الرافعة للقيود والتكاليف الشاقة عنها، وهذا ما بينه القرآن الكريم في مواطن عديدة في سورة، منها قوله تعالى:

١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة/١٥-١٦].

والآية تقرر فضل الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى برسالة محمد ﷺ التي بينت لهم كثيراً من الأحكام التي كان يخفيها أبحارهم وعلماء دينهم، كآليات التي بشرت بنبوته محمد ﷺ وذكرت أوصافه. (ويعفو عن كثير) أي يعرض ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿رَسُولُنَا﴾ تشريف للرسول ﷺ وبيان لمكانته حيث أضافه سبحانه إلى ذاته، وفيه توجيه بوجوب اتباعه ﷺ لأنه مبلغ عن الله تعالى بدون تغيير أو تبديل، وفي إظهار

الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه معجزة له، لأنه لم يقرأ كتاباً، ولم يجلس أمام معلم، فأخباره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور مغيبة، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان به وتصديق رسالته.

٢- وتقرر فضل الله عليهم بخصائص الرسالة ونبينا ﷺ.

فالمراد بالنور هنا: محمد ﷺ، فهو نور الأنوار كما يقول الألووسي -رحمه الله-، والمراد بالكتاب القرآن الكريم وفي هذا توجيه للمنة والنعمة بالقرآن والنبى الذي بلغه وعهد الله إليه بيانه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وسنته ﷺ هي المفسرة والبيان العملي لهذا القرآن الكريم .

قال ابن جرير ما ملخصه: (قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ

وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يقول -جل ثناؤه- هؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك).

وقوله: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني: كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم

من توحيد الله وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ (١).

(١) ابن جرير / المائدة / الآية .

الرسالة الإسلامية طريق السلامة والنجاة في الدنيا والآخرة:

وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ

السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ وسبيل السلام استعارة لطرق الحق.

يقول صاحب المنار: (والظلمات والنور استعارة للضلال والهدى، والصراط المستقيم مستعار للإيمان، وقد ذكر الله لهذا النور ثلاث فوائد: الأولى: أنه يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام. وهذه الفائدة للأفراد والشعوب التي تعيش في ظل الأنظمة الجاهلية القائمة على العصبية والإقليمية والصراعات الجنسية والطائفية والمذهبية فلا يحررها من حروبها وصراعاتها إلا شريعة الله العادلة التي تحقق المساواة، والعدل، والرحمة، لا تفرق ولا تقسم الناس على ألوانهم ولغاتهم وأصولهم ومنابتهم.

الفائدة الثانية: الإخراج من ظلمات الوثنية والخرافات والأوهام التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان السابقة واستعبدوا أهلها - إلى نور التوحيد الخالص الذي يحرر صاحبه من رقّ رؤساء الدين والدنيا فيكون بين يدي الخلق حرّاً كريماً وبين يدي الخالق وحده عبداً كريماً خاضعاً لأمره.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بمشيئته وتوفيقه أو بعلمه وهدايته، الذي جعل به هذا

القرآن سبباً لانقشاع ظلمات الشرك وشرائع الباطل.

الفائدة الثالثة: الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة وهو الاعتصام بالقرآن العظيم وسنة النبي الكريم لإصلاح النفوس والأنظمة والشعوب بهداية عقائده ونور أحكامه، وهذا ما شرح به "ربيعي بن عامر" أهداف الرسالة القرآنية والفتح الإسلامي لقادة الفرس بقوله: (جئنا لنخرجكم من عبادة العباد

لعبادة الله وحده، ومن جور الأديان لعدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا لسعة الدنيا والآخرة).

خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب :

وقد وجهنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه العظيم في سور عديدة إلى فضل الله على الناس عامة، وعلى أهل الكتاب خاصة بهذا القرآن المبارك بعد أن اجترأ علماء أهل الكتاب على كتب الله بالتغيير والتبديل والتحريف واجترؤوا على النبي الكريم محمد ﷺ بإنكار رسالته بعد ظهور الآيات البينات فقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْمَلُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام/٩١-٩٢].

وذكر أهل الكتاب بفضل الله عليهم برسالة محمد ﷺ ودلائلها التي يعرفونها في كتبهم وأن اتباع هذا النبي هو الطريق لرحمة الله في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِّلَّذِينَ يُتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
 عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
 وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
 قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ ۗ فَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف/١٥٦-١٥٨].

وقد نبهت آية الأنعام إلى فقدان أبحار يهود صفة العدل وتحكم الهوى بقلوبهم حتى أنكروا الرسالات جميعاً لينكروا رسالة محمد ﷺ، فردّ القرآن عليهم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم وذلك من أعظم رحمته بإنقاذهم من التيه والضلال، ثم أفرحهم برسالة موسى عليه السلام التي يؤمنون بها، ثم يجترئون عليها يجعلها قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها ثم ذكروهم بنعمته عليهم بالرسالة الخاتمة ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ ووصفها لهم: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفوائد والمنافع.

ورسالته تتميز على الرسالات السابقة بأنها عامة للبشرية جمعاء ﴿وَلْتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حولها .. شاملة لمن في الأرض جميعاً لأن مكة المكرمة قطب الأرض ومركز هدايتها، ولأنها قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يصدقون بهذا الكتاب، وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن، وخص الصلاة لأنها عماد الدين وأعظم خصائص الأمة الحضارية في إعلانها العبادة لله وحده، وأنها أمة التوحيد والتعظيم لله رب العالمين. وفي آية الأعراف يذكر بني إسرائيل والناس جميعاً بدلائل نبوة محمد ﷺ وشريعته السمحة التي نسخ الله بها تكاليف التوراة الشاقة فقال:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن، ﴿النَّبِيِّ﴾ صاحب المعجزات ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾ يجدون نعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

صفة رسالته وصفة الشريعة :

وهذه صفة الرسالة الإسلامية الهادية النقذة للبشرية جميعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وهذه صفة شريعة القرآن التي أحلت الطيبات وما كان الله حرمه على اليهود من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة، مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلى كسبه من السحت.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ما يستنبت من نجو الدم والميتة واللحم الخنزير، وما أهل لغير الله به أو ما نبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرها من

المكاسب الخبيثة ﴿ وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ والإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يجبسه من الحراك لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته وعنوان لسماحة شريعة القرآن التي حررت البشرية من هذه القيود والأثقال وأخذت بيد الإنسانية لتعيش حياتها بيسر في ظل شرع الله وحكمه، تحمل مسؤولية الإيمان والنصرة طريق الفلاح.

ويبين الله مسؤولية أهل الكتاب بعد أن عرفوا الآيات كالإيمان بهذا النبي ونصرته وحمایته ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِء وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي منعه حتى لا يقوى عليه عدد ﴿ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ النُّور ﴾ القرآن الذي ﴿ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أي أنزل مع نبوته لأن نبوته ﷺ كانت مصحوبة بالقرآن مشفوعة به ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.

عالمية رسالة محمد ﷺ :

ويتكرر النداء بالإيمان بهذا النبي ورسالته إلى الناس جميعاً ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۗ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه، وفي هذا بيان أن رسالة محمد

ﷺ هي الوارثة للرسالات جميعاً وأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، هو وارث النبيين ومبلغ رسالاتهم والأمين عليها وهذا ما يدعوهم للإيمان به واتباعه ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

تكرار الخطاب لأهل الكتاب:

ويتكرر الخطاب لأهل الكتاب يدعوهم للإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته والاعتراف بفضل الله عليهم بهذه الرسالة ومنها قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة/١٩].

وفي سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۗ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۗ﴾.

كان الناس من أهل الكتاب ومن المشركين قبل بعثة النبي ﷺ متطلعين إلى بعثة النبي الذي ينقذهم مما هم فيه من ضلال وفساد وشقاء.

وكانوا يقولون لا ننفك مما نحن فيه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود

الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل ولكنهم للأسف ما تفرقوا بعد بعثة هذا النبي

وآثروا أحبارهم وأصنامهم على الدين الحق والنبي الهادي وفضل رؤساء يهود شرك
المشركين على توحيد المؤمنين وقال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ
أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء/٥١].

والجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت الشيطان، وكل من
كانت طاعته سبباً في طغيان. ويروى في سبب نزول الآية أن رؤساء يهود في سبيل أن
يتحالفوا مع المشركين ضد الإسلام ونبيه، سخانوا رسالتهم وفضلوا الشرك على التوحيد
وسجدوا للأصنام، لأن الغاية عندهم تبرير الوسيلة وهذا سلاحهم القديم/ الجديد.

هيمنة الرسالة القرآنية على الكتب السابقة:

بعد أن بين القرآن الكريم ضياع الكثير من نصوص التوراة والإنجيل بسبب
التحريف والتبديل وما أصاب أهل هذه الكتب من اضطهاد، بين وظيفة رسالة القرآن
الكريم بإنقاذ هذه الكتب بيان العقائد الصحيحة التي حرفت والشرعية السمحة التي
نسخت الأحكام القاسية ووضعت للبشرية دستورها الإلهي المحفوظ بحفظ الله الذي لا
يعتريه التحريف والتغيير فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

ءَاتَلْتَكُم^ط فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ^ع إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ [المائدة/٤٨].

ونستخلص من هذه الآية الكريمة الخصائص التالية للقرآن الكريم:

- ١- إنه الكتاب الكامل الذي أكمل الله به الدين فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب عند الإطلاق، وهذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص وهو (التوراة) وعن كتاب عيسى باسمه الخاص وهو (الإنجيل).
- ٢- إنه الكتاب الذي أنزل متلبساً بالحق مؤيداً به مشتملاً عليه مقررأ له بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا ما أفاده النص: (بالحق) أي متلبساً به.
- ٣- إنه الكتاب المصدق لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل بتصديق كونها من عند الله، ولم يفتقر الرسل هذه الكتب من عند أنفسهم.
- ٤- إنه الكتاب المهيمن على جميع الكتب الإلهية، الرقيب عليها، الشهيد بما بينه من حقيقة حالها، في أصل إنزالها وما طرأ عليها من نسيان قسم كبير منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها. وهو المؤتمن على رسالة الله التي جاء بها الأنبياء، القائم عليها، الوارث لها، وهو الخاتم لهذه الرسالات جميعاً.
- ٥- إنه الكتاب المرجع للأحكام والحدود، فالرسول ﷺ ملزم بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليه من الأحكام والحدود دون ما أنزله إليهم لأن شرعه ناسخ لشرائعهم.

ويؤكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ

الْحَقِّ ﴾ مائلاً بذلك عما جاءك من الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، ذلك أن من سنة الله تعالى أن يجعل لكل أمة ورسول شريعة فرضها عليها متناسبة مع أحوال زمنهم

وحاجات مجتمعهم، وبعد أن رشدت البشرية كانت رسالة محمد ﷺ القائمة بمصالح العباد الناسخة للشرائع السابقة الأمانة على إرث الأنبياء ودعوتهم إلى الله تعالى بالعبادة الصحيحة الخالية من الشرك والشريعة السمحة الخالية من التكاليف الشاقة المرهقة للعباد.

ولو شاء الله أن يجعلكم أيها الناس أمة واحدة ذات شريعة واحدة لشق ذلك عليكم لأن الطبائع البشرية تختلف، وأطوار البشرية والمعيشة تتنوع من عصر إلى عصر، بحيث تصلح لها شريعة واحدة في كل زمن يناسب حاجات الناس واستعداداتهم ومصالحهم.

حوار القرآن لأهل الكتاب:

والدارس لآيات الله التي حاورت أهل الكتاب في سورة المائدة وغيرها يجد خطاب القرآن الكريم للعقول بالبراهين الدامغة والأدلة الواضحة، مما يضع منهجاً علمياً عقلياً للحوار، وهذا ما نجده في النقاط التالية:

١- إبطال ألوهية المسيح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ

قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَخْلُوقًا مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿ [المائدة/١٧].

٢- لفتت الآية العقول إلى أن المسيح عليه السلام محكوم عليه بالموت كما هو محكوم على أمته، ومن تجري عليه سنة الله بالإماتة لا يكون إلهاً لأنه لا يملك أسباب حياته ولا يقوم بها.

٣- ومن صفات الله الحق أنه الحي القيوم القائم بأمر مخلوقاته لا تأخذه سنة ولا نوم. وقد اعترف النصارى بموته، وموت أمه، ونفى القرآن الكريم صلبيه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ﴾ ولكنه بين أنه تحت سلطان الله وقهره في وفاته ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٤- وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف، لزيادة تأكيد عجز المسيح، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لا يقدران على رفع الهلاك عنهما، وعطف عليهما قوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من باب عطف العام على الخاص، ليكونا قد ذكرا مرتين: مرة بالنص عليهما، ومرة بالاندراج في العام.

٥- قال الإمام الرازي ما ملخصه: احتج سبحانه على فساد ما ذهب إليه النصارى بقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط والتقدير: إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي فمن يملك من أفعال الله شيئاً، والملك هو القدرة. يعني فمننا الذي يقدر على دفع شيء من أفعال الله تعالى ووضع شيء من مراده. (١).

(١) الفخر الرازي المائدة / الآية .

٦- وقوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني أن عيسى مُشاكل لمن في

الأرض في الصورة، والخلقة، والجسمية، والتركيب، وتغيير الصفات والأحوال، فلما سلمتم أن الله تعالى خالق لكل مدبر لكل وجب أن يكون أيضاً خالقاً لعيسى.

وبعبارة أخرى أن عيسى مُشاكل لبقية بني آدم في صورته وخلقته، خاضع لناموس الله وسنته التي يخضع لها الخلق، في الهلاك والموت، وقد كان خاضعاً لسنة الله في حاجته للطعام والشراب والنوم وطلب الراحة وركوب الدابة.

٧- وختم الله الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ليؤكد اختصاص الألوهية به تعالى، إثر بيان انتفائها عما سواه: أي والله تعالى وحده دون أن ينازعه منازع أو يشاركه مشارك ملك جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتة، فهو المالك للسموات وما فيها، وللأرض وما عليها، ولما بينهما، وهو القاهر فوق عباده يقهر الحياة بالموت، ويقهر الموت بالحياة، ويقهر الظلام بالنور، ويقهر النور بالظلام، ويقهر كل ذي ضد بضده، سبحانه أنه يكون له شريك أو مثيل أو ولد أو صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومن حوار القرآن لأهل الكتاب تصحيح عقائدهم الباطلة ومنها عقيدة شعب

الله المختار.

أخطر ما يصيب أهل دين من انحراف أن يغفلوا عما يجب لله من تعظيم وألا يقدروه حق قدره، وألا يخشوه حق خشيته، وأن يعتقدوا أن لهم عند الله مكانة تعفيهم من القيام بتكاليف شريعته وأحكام الخضوع والعبودية لله رب العالمين.

وهذه الغفلة والعجب والغرور هو الذي جرّأ أهل الكتاب على أنبيائهم وشرائع

رهبهم، كما جرّأهم على معادة رسول الله ﷺ ومعصيته.

قال ابن كثير في تفسيره بسنده عن ابن عباس: (أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله تعالى وحذرهم نعمته فقالوا: ما نخوننا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُرُ ﴾ [المائدة/ 18]. ومن قرأ كتب اليهود والنصارى رأى فيها تفسيراتهم المنحرفة للقب (ابن الله)، ورأى فيها لقب ابن الله قد أطلق على آدم (انظر إنجيل لوقا ٣/٣٨) وعلى يعقوب وداود، وكذا على إفرام^(١)، وعلى المسيح عليه السلام ولكن مع لقب الحبيب فهو تفسير لكلمة (ابن) وأطلق مجموعاً على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين^(٢).

وفي سفر التثنية أول الفصل الرابع عشر قول موسى: (أنتم أولاد للرب أيكم) وفي إنجيل متى في الإصحاح الخامس: (طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون) والشواهد كثيرة^(٣). وكل هذه التعابير حائية على ضرب من التشبيه فتوهمها دهماؤهم حقيقة فاعتقدوا ظاهرها وفصلوا بين العقيدة والعمل والخشية والمسارة لطاعة الله والحذر من معصيته.

والآية بعد ذلك تضع لأمة محمد ﷺ منهجاً ألا يغتروا بأبائهم الصالحين، أو بما خصّ الله به هذه الأمة من رسالة هي خاتمة رسالات النبي وني هو سيد الأنبياء، وتكريم من الله جعلهم من خير الأمم، فيعتمدوا على أمجاد الماضي ولا يقوموا بواجب العبودية لله طاعة وامتثالاً وجهاداً ودعوة ونصرة لدين الله، وهي حجة على الذين يطلبون القرب من الله بغير الوسيلة الصالحة التي بينها الله في كتابه من الإيمان والعمل الصالح الشامل لما يزكي النفوس بالعبادة والذكر كما شرعه الله، ويصلح المجتمع

(١) تفسير ابن كثير / المائدة / الآية .

(٢) المنار / ٦ / ٣١٤ .

(٣) ابن عاشور / ٦ / ٥٦ / الآية .

بالزكوات والأعمال الصالحة، وينصر دين الله بنشر العلم النافع والجهاد المبرور، وهذا ما وجهنا إليه ربنا بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة/٣٥].

وبقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

في زمن التخلف والهزيمة ترتفع شعارات التخدير لتحويل الأمة عن المنهج الصحيح المتمثل بالإيمان الحق والعمل الصالح، والاتكال على الأماني الخادعة جاهلين بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿٦٦﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ

﴿٦٦﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ وبقوله تعالى في ذم أهل الكتاب الذين تركوا

الالتزام بالشرعية اعتماداً على الأماني الخادعة ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ

الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة/٧٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء/١٢٣-١٢٤].

إن طلب الجنة يعني سلوك طريقة رسول الله ﷺ وأصحابه في طلبها كما بينها القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة/١١١].

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران/١٢٣-١٢٦].

وإن الذين يعطلون شريعة الله في حياتهم التربوية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية ثم يرجون جنة الله وهم مصرّون على تعطيل شريعته، والانبهار بالعادات الغربية في المأكل والملبس وطريقة الحياة، هم من صنف هؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أحباء الله وأبناؤه، وقد نسوا شريعة ربهم وعطلوا أحكامها.

وتصحیح القرآن الكريم هذه العقيدة المحرفة بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾.

لا صلة بين العبد وربّه إلا أن يستمسك بحبل العبودية والخضوع لله، يعبدّه تعالى وحده بشرعه الذي شرعه وهذا ما بينه الله في آخر سورة الفرقان بعد أن ذكر صفات عباد الرحمن ونختم الآيات بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ فالله تعالى لا يبالي بكم لولا عبادتكم له، فالدعاء بمعنى العبادة.

وفي هذه الآية: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ والفاء هنا للإفصاح لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر، أي قل يا محمد لهؤلاء المغرورين إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه فلأي شيء يعذبكم وقد أوقع بكم أصنافاً من العذاب وسلط عليكم كفار الجوس والرومان، وأذاقكم هوان التشريد والقتل والأسر والمسوخ.

وجعل العداوة والبغضاء فيما بين النصارى ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ مساوون لغيرهم في البشرية لا نجاة لكم إلا بالالتزام بهدأيته وشرعه، والله سبحانه صاحب القدرة العالية الشاملة ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأولى لكم أن تتوبوا وترجعوا إليه لأنه وحده هو صاحب القدرة والملك والأمر في السموات والأرض.

دروس للمؤمنين من سيرة أهل الكتاب:

القرآن الكريم كتاب هداية ودعوة، ويعرض دروساً من سيرة أهل الكتاب الذين أنزل الله عليهم كتاباً، وبعث فيهم أنبياء، ما يكون عظة للمسلمين ألا يقعوا في المخالفات والخروج عن أصول الشريعة فيصيبهم ما أصاب أهل الكتاب من قبل، وقد عرضنا بعض هذه الدروس من قبل ونقف عند دروس أخرى ومنها:

الحرية والاستقلال لا تصان ولا تحفظ للأمة إلا بالوفاء بالالتزام بشرعه

والجهاد في سبيله:

وهذا ما وجهنا ربنا تبارك وتعالى إليه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ أَدْعُوا رَبِّي عَزْماً ۚ إِنَّ رَبِّي لَصَدِيقٌ أَلِيمٌ ۚ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١٠﴾ يٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة/٢٠-٢١].

والمعنى: اذكر أيها الرسول لبني إسرائيل وسائر الناس الذين تبلغهم دعوة القرآن إذ قال موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه، وأخرجهم من أرض العبودية، وقد ذكرهم موسى عليه السلام بنعمة التحرير والاستقلال بأن جعلكم ملوكاً مع نعمة النبوة والرسالة، ونعمة الرعاية الإلهية بأن آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين في زمانكم، فقد فلق لهم البحر فساروا في طريق يابس حتى نجوا وغرق عدوهم، وأنزل عليهم المنّ والسلوى وفجر لهم من الحجر اثنتي عشرة عيناً إلى غير ذلك من أنواع النعم التي تستلزم منهم الشكر والمسارة للطاعة، والامثال لأمر الله.

فريضة الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من الشرك والمشركين:

وبعد تذكير موسى عليه السلام لهم بهذه النعم يبلغهم أمر ربهم بالجهاد لرفع راية التوحيد في الأرض المقدسة فلسطين وتحريرها من المشركين.

جن بني إسرائيل وعصيائهم لرسولهم وهروبهم من تكاليف الجهاد كان سبب

شقائهم:

ولكن بني إسرائيل جنبوا عن مواجهة المشركين ووصف الله لنا جنبتهم وعزيمتهم الخوارة وإيثارهم للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد، وإقبالهم على المطاعم وأصناف الطعام، بدل أن يقبلوا على الطاعة والإعداد والجهاد، فقال تعالى: ﴿يَنْقُومِ آذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ

نَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٦٧﴾

ومعنى كتب لكم أن تدخلوها: فرض عليكم الجهاد لدخولها وتحريرها من الوثنية والمشركين، وقد تعدى فعل (كتب) هنا باللام دون (على) للإشارة إلى أن ما فرضه الله عليهم إنما هو لمنفعتهم ولعزتهم ورفعة شأنهم وفيه حضٌّ شديد لهم على الاستجابة لأمره وإغراء لهم بالنصر والفوز.

ومن معاني (كتب الله) عند المفسرين قضي وقدر، وهو تعبير مجازي على ما لا سبيل لإبطاله لأنه وعد الله لإبراهيم وذريته الموحدون من إسماعيل وإسحاق أن ينصرهم على المشركين ويطهر هذه الأرض على أيديهم من الوثنيين، وليس في معنى هذا الوعد أن لهم الحق في ملكية هذه الأرض ولكنه تحريض على الجهاد ووعد بالنصر إن صدقوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَىٰ آدِبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ تحذير مما

يوجب الأهزام، لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الهزيمة، وقد وعد الله أمة الإسلام بالنصر والتمكين إن نصروا الله ووفى لهم بالوعد حين وفوا بالنصر، ولكن بني إسرائيل جننوا واعتذروا.

اعتذار الجبناء عن الجهاد:

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا

مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

كان موسى عليه السلام قد بعث العيون لاستكشاف أرض العدو فأخبروه عن جودة أرضها وثمارها، وقوة سكانها، وتحصيناتها، فلما سمع بنو إسرائيل ذلك جزعوا

وبكوا وتذمروا على موسى وقالوا: لو متنا في أرض مصر كان خيراً لنا من أن تغنم نساؤنا وأطفالنا... (١).

الهزيمة النفسية باستعظام قوة العدو والخوف منه :

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾

والجبار: القوي، مشتق من (الجبر) وهو الإلزام لأن القوي يجبر الناس على ما يريد.

وأرادوا بالقوم الجبارين في الأرض سكانها الكنعانيين، والعمالقة، والحثيين، واليبوسيين، والأموريين، من العرب السابقين فأعلنوا عن جنبهم عن الجهاد ومواجهة هؤلاء المشركين المعروفين بالقوة، وامتنعوا عن اقتحام القرية خوفاً من أهلها، وأكدوا الامتناع من دخول أرض العدو توكيداً قوياً بمدلول (إنّ) و (لن) في (إنا لن ندخلها) تحقيقاً لخوفهم ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾. ليسجل عليهم القرآن هذه النقيصة ويحذر منها وهي طلب المكاسب والفتوحات بلا ثمن ولا جهاد. وهذا يؤدي بالأمة إلى الهلاك والشقاء.

رجال الدعوة هم قادة الجهاد :

ويذكر الله رجلين من بني إسرائيل استثناهم مما وقع به قومهم من جبن وهوان ويأس، فقال: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ

(١) تفسير الوسيط / المائدة / الآية .

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ ليوجهنا ربنا إلى مكانة رجال العقيدة والدعوة في إنقاذ الأمة

وهدايتها، ومعنى قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ نَمُوتَ﴾

اتفق رواة التفسير على أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفنة، فهما اللذان كانا يبحثان القوم على الجهاد والطاعة ودخول أول بلد للجبارين ثقة بوعد الله وتأييده، ومعنى ﴿يَخَافُونَ﴾ يخافون الله تعالى. ومعنى (النعمة): نعمة الطاعة والتوفيق.

وقوله: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ يجوز أن يراد به مدخل الأرض المقدسة، أي

المسالك يسلك منها إلى أرض كنعان، ويجوز أن يراد به باب السور المحيط بالمدينة، وبعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله، ولذلك ذبلا بقولهما: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الشك في صدق الرسول مبطل للإيمان.

وتدبر هذه الآية الكريمة نعرف الصفات التالية لقادة الجهاد والتحرير وهي:

١- الإيمان بالمبدأ وخشية الله تعالى، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿يَخَافُونَ أَنْ نَمُوتَ﴾

٢- الشجاعة وعلو الهمة والثقة بوعد الله، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾

٣- صدق التوكل على الله، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ

فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

الهزيمة النفسية والتدين الخادع:

ويعتذر بنو إسرائيل عن الجهاد والمواجهة بجنهم وهوانهم ويذكر الله قولهم واعتذارهم ليكون درساً لمن بعدهم: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والمتدبر لهذا الاعتذار يجد النقاط التالية:

١- تأكيد جنهم وإصرارهم على التخلف عن الجهاد بقولهم: ﴿إِنَّا لَن

نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

٢- وفي قولهم: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾

تصوير لإيمانهم الضعيف الخوار، فهم يؤمنون بنبوّة موسى، ویرب موسى، وصدق صلة موسى مع ربه، ولكنهم يوظفون هذا الإيمان لإعفائهم من فريضة الجهاد والمقاومة والتضحية لنصرة الدين ويطلبون من موسى أن يأتيهم بمعجزة بأن يهلك الله الجبارين بدعوة موسى.

التخلف عن الجهاد معصية كبرى:

كما نجد في ردّ نبي الله موسى عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي

وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ما يبين أن التخلف عن الجهاد معصية كبرى تفضي إلى غضب الله في الدنيا والآخرة، وإلى مفارقة النبي لهؤلاء الفاسقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله.

وكانت تربية النبي القائد محمد ﷺ لأصحابه أن ينتفعوا بما حصل لبني إسرائيل، عن عبد الله بن مسعود قال: أتى المقداد بن الأسود النبي وهو يدعو على المشركين يوم بدر، فقال: يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. (١).

يقول ابن عاشور: (فلا تظنن من ذلك أن هذه الآية كانت مقروءة بينهم يوم بدر، لأنها من آخر ما نزل، وإنما تكلم المقداد بخبر كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ فيما يحدثهم به عن بني إسرائيل، ثم نزلت في هذه الآية بذلك اللفظ) (٢).

عقوبة التأديب بالتيه للمعطلين للجهاد:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ^٥ أَرْبَعِينَ سَنَةً^٤ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ^٦ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^٧﴾.

كان التيه والضياع هو العقوبة الربانية لبني إسرائيل الذين وعدهم الله بالنصر على أعدائهم إن نصروه، وقاموا بما فرضه عليهم مجاهدين لتحرير الأرض المقدسة من الشرك والمشركين، ثم نكسوا، وجبنوا عن مواجهة أعداء الدين فكتب عليهم التيه والضياع والشقاء.

وقال الله لنبيه موسى عليه السلام: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

فلا ينبغي للنبي أن يحزن على ما أصاب قوماً فرطوا بأمر دينهم وتوجيه نبيهم فالأمة التي تعلن عصيائها لربها، وعدم إذعائها لأمره، وخروجها عن هدايته وتعطيلها للجهاد

(١) السيرة النبوية الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، والسيرة لابن اسحق .

(٢) التحرير والتنوير ١٦٦/٦ - المائدة/ الآية .

في سبيله، طلباً للراحة، والحياة الوداعة، ويقرب منها عدو يهددها، سيعاقبها الله عقوبة تحرمها من السعادة والراحة التي طلبتها في ظل السكينة والاستسلام وطلب الراحة والبعد عن حياة المقاومة وما تتطلبه من دماء وتضحيات.

ما أشبه اليوم بالأمس:

والتأمل في أحوال الأمة الإسلامية اليوم وما أصابها من فرقة وتقطيع سياسي واقتصادي واجتماعي، حوّلها إلى شعوب مستعبدة لا تملك إرادتها السياسية ولا التشريعية ولا الاقتصادية، وقد أعلن حكامها تعطيل فريضة الجهاد، وملاحقة المجاهدين والتنكيل بهم، وحراسة أمن أعدائهم، يجد صورة جديدة لهذا التيه، يزيده في الأمة ضراوة الإعلام الفاسد والفضائيات المرجحة حتى يصرفوا الأمة عن طريق الإنقاذ والتحرير والفلاح.

وهذا ما يدعو علماء الأمة وقادتها الصادقين أن يتسلحوا بالصبر، ويواجهوا هذه الفتن المرجحة لإحكام التيه بوضع الخطط الحكيمة وتوظيف طاقات الأمة وتعاون العلماء لمواجهة الفساد والفاستدين وإخراج الأمة من الظلمات إلى النور، ومن التيه إلى الهدى والعمل الصالح تحت راية الإسلام.

وقفة عند بعض أقوال المفسرين:

قال العلماء في تفسير الآية: «قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام مجيئاً لدعائه: يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة، يسرون خلالها في الصحراء تائهين حيارى، لا يستقيم لهم أمر، ولا يستقر لهم قرار، فلا تحزن عليهم بسبب هذه العقوبة، فقد كانت جزاءً وفاقاً بسبب خروجهم عن طاعتنا، وتمردهم على أوامرنا، وجبنهم عن قتال أعدائنا، وسوء أدبهم مع أنبيائنا». (١).

(١) التفسير الوسيط / المائدة / الآية .

هذا ومن المناسب أن نبين من خلال هذه الآيات ما يلي :

معنى « كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » في قوله: « يَنْقَوْمِ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » قال علماء التفسير: ومعنى « كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » أمركم بدخولها، وفرضه عليكم كما أمركم بالصيام بقوله: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » وبالجهاد بقوله: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » وكما أمركم بالصلاة والزكاة، وقد تعدى فعل (كتب) هنا (باللام) دون (على) للإشارة إلى أن ما فرضه عليهم إنما هو لمنفعتهم وعزتهم ورفعة شأنهم، وفي تكرير النداء من موسى لهم بقوله: (يا قوم) مبالغة في حثهم على الامتثال لما يأمرهم به، وتنبية إلى خطر ما يدعوهم إليه وعظم شأنه.

وقال الإمام الرازي: (إن الوعد بقوله: « كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » مشروط بقيد

الطاعة، فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط) (١).

وقال الإمام ابن جرير في تفسير معنى الخسار الذي يصيبهم حين خالفوا أمر الله بالجهاد: (إن الله تعالى كان أمره بقتال من فيها من أهل الكفر به، وفرض عليهم دخولها، فاستوجب القوم الخسارة بتركهم فرض الله عليهم من وجهين: أحدهما: تضييع فرض الجهاد الذي كان الله فرضه عليهم. الثاني: مخالفتهم أمر الله في تركهم دخول الأرض المقدسة) وتطهيرها من الشرك والمشركين.

من سنن الله في مواجهة الشرك وأهله :

والدارس للسيرة النبوية يجد أن إعداد الله لهذه الأمة لتحرير الأرض من الأنظمة الظالمة ولتحرير مكة المكرمة والجزيرة العربية وبيت المقدس وما حوله من بلاد الشام

(١) تفسير الرازي / المائدة / الآية .

من الشرك والمشركين ووعدهم بالنصر والتمكين في الأرض إن نصرُوا دينه وكيف تحلى النبي وأصحابه بصدق الإعداد والمواجهة والجهاد في سبيل الله حتى رفعوا أعلام التوحيد من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة إلى القدس الشريف وأعلن النبي ﷺ: (لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى) (١).

واختيار الله القدس ومسجدها الأقصى مسرى لنبيه ﷺ ومنطلقاً لمعراجته، وتقديم الأنبياء لرسول الله ليكون إمامهم في المسجد الأقصى، والإمامة سيادة وقيادة، واختيار القدس ومسجدها قبله أولى للمسلمين، كل هذا ليبين الله لنا أن ما كتبه على بني إسرائيل من جهاد لدخول الأرض المقدسة لتحريرها من الشرك والمشركين، هو ما كتبه الله على أمة محمد ﷺ من جهاد للتحرير، ولكن بني إسرائيل عصوا، وجبنوا وتاهوا وخسروا، وأصحاب محمد ﷺ قاموا بفريضة الله وطهروا مكة المكرمة والجزيرة والقدس وفلسطين وبلاد الشام والعراق وما بعدها من الشرك والمشركين والأنظمة الجاهلية الفاسدة، وبين الله في كتابه أن السيادة على القدس وفلسطين هي لمحمد ﷺ وأمته، بعد أن خان اليهود والنصارى رسالة الله وقتلوا الأنبياء والعلماء، وأفسدوا في الأرض، واختلفوا فيما بينهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمَىٰ فِي خَرَابِهَا ۗ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا

(١) رواه البخاري / باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة / التجريد الصريح رقم ٦٠٧.

خَائِفِينَ^ع لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

[البقرة/١١٣-١١٤].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ

يَدْخُلُوهَا﴾ أي أن يدخلوا هذه المساجد وأرضها في القدس وفلسطين ﴿إِلَّا

خَائِفِينَ﴾ أي إلا بإذن من المسلمين أصحاب السيادة على هذه البلاد وهذه المساجد، يزيل خوفهم، ويعطيهم الأمان في دخولهم.

وقد وضحت آية الإسرائاء أن وعد الله بدخول الأرض المقدسة وبقائهم فيها مشروط بإقامة أحكام الله فيها، ونصرة دينه وشريعته، فلما أفسدوا وعطلوا شرائع الله ومساجد الله عاقبهم الله بإخراجهم منها، وزوال استقلالهم وملكهم، وتشريدهم في البلاد.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ

مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ

عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا

﴿١١٦﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ

أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا

جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا

دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿١١٨﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ

عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي
لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ .

قال بعض العلماء: ^(١) . قصّت علينا هذه الآيات من خير اليهود ما فيه مزدرج
وتحذير لنا أن يصيبنا مثل ما أصابهم وحذرهم مخالفة أوامره واستدبار سنته، وأثبت لهم
أن هذه المخالفة تؤدي إلى غلبة عدوهم عليهم، واكتساحه بلادهم، فاليهود غفلوا عن
سنن الكون، وتناسوا أمر الله فسلط الله عليهم (نبوخذ نصر) ملك الآشوريين فأنزل
بهم البلاء وهدم مملكتهم وشردهم في البلاد، ثم كشف الله ذلك عنهم على أمل أن
يكونوا قد انتفعوا بما أصابهم وتابوا وأنابوا فيعودوا للعمل بشريعة ربهم، فلم يفعلوا
شيئاً من ذلك وعادوا لما نهوا عنه فجاءهم الروم، وأوقعوا بهم، واضطهدوهم،
وأذلوهم.

ثم بين الله لهم سنته العادلة وهو أعلم بطبيعة نفوسهم وما جبلوا عليه من
ظلم وعدوان : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ أي وإن عدتم للمخالفة عدنا لتسليط
عدوكم عليكم.

وها هم يعودون إلى أرض فلسطين ليفسدوا من جديد، ويخرجوا أهلها منها،
ويشردوا شعبها في البلاد، وينكّلوا بأهل فلسطين الباقين فيها، يقتلون أبناءهم،
ويهدمون ديارهم، ويقتلعون أشجارهم، ويسومونهم أنواع العذاب، ليعود الله عليهم
بسنته التي وعدنا بها على لسان نبيه على يد قوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة
على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. قال ﷺ: (لا تزال طائفة

(١) الشيخ عبدالقادر المغربي / نظرات في التفسير .

من أمي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى قيام الساعة، قالوا: أين هم يا رسول الله؟ قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس^(١).

وقال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فتقتلوهم حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله ورائي يهودي فتعال فاقتله)^(٢).

حسد ابن آدم لأخيه وحسد بني إسرائيل للنبي محمد ﷺ وأمته:

من أعظم أسباب عداوة بني إسرائيل للنبي محمد ﷺ ودينه والمسلمين حسدهم

أن ينقل الله الرسالة إلى محمد ﷺ وأمته، وهذا ما ذكره القرآن في سورة البقرة: ﴿مَا

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿البقرة/١٠٥﴾.

وفي آية أخرى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ

إِيمَانِكُمْ كُفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿البقرة/١٠٩﴾.

(١) رواه أحمد في المسند ٢٦٩/٥.

(٢) رواه البخاري.

وفي سورة النساء ما يصور شح نفوسهم، وأنايتهم وحسدهم بقوله تعالى:
 ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ تَحْسُدُونَ
 النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ
 عَنْهُ ۗ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٤﴾ [النساء/٥٤-٥٥].

وقد بلغ البخل بهم أن لو ملكوا الدنيا ما أعطوا منها نقيراً، وهو النقرة في نواة
 التمر وهو مثل في القلة، لتصوير شح نفوسهم، وقرر القرآن الكريم حسدهم للنبي
 وأمته: ﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ أي يحسدون رسول الله ﷺ والمؤمنين على ما آتاهم
 هذه الرسالة ونقلها عنهم بعد أن خانوها وقتلوا أنبياءها وعلماءها، وعلى ما آتى الله
 هذا النبي من النصر والتمكين وازدياد العز والتقدم.

وناسب أن يذكر في سورة المائدة حسد ابن آدم لأخيه ليذكرهم القرآن بعاقبة
 الحسد وما يجره على صاحبه من خسار، وأنه لا يليق بقوم يزعمون أنهم أهل التوراة
 وورثة موسى عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ
 مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۗ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
 الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
 لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّي أَخَافُ أَلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ
 فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ ۗ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ

قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٦﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي
 الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَ لِيَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ
 مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٧﴾ مِنْ أَجْلِ
 ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
 الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
 جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
 الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٨﴾ [المائدة/٢٧-٣٢].

وفي ذكر هذه الآيات بعد الآيات التي أنكرت على بني إسرائيل جنهم
 وعجزهم عن تحمل مسؤوليات الرسالة بالجهاد والتضحية ومعصيتهم لنبي الله موسى
 عليه السلام فعاقبهم الله بالتيه، ما نجد فيه تذكيراً آخر لبني إسرائيل بعاقبة الحسد في
 قصة ابن آدم الذي أقدم على قتل أخيه لأن الله تقبل منه عمله فعاقب الله القاتل بحسار
 الدنيا والآخرة.

إن قصة ابني آدم تصور الإنسان الحاقدا الجاهل المستكبر الذي ينكر على الله فعله
 واختياره وقبوله للعمل الصالح، فيجتري على قتل أخيه لأن الله اختصه بفضله وكافأه
 على تقواه وقبل عمله.

وكذلك بنو إسرائيل وعندهم عقدة (شعب الله المختار) يستكبرون على أمر
 ربهم باصطفاء محمد ﷺ للرسالة، ونقلها إليه بعد أن خانوها.

ويقدمون على قتل رسول الله ﷺ مرة بإلقاء الصخرة على رأسه وهو في زيارة
 لبني النضير، ومرة بالسسم، ومرة بالتحالف مع المشركين في غزوة الأحزاب. فيذكرهم

في هذه الآيات بعاقبة الحسد، وأن الله وحده هو الملك العادل الحكيم العليم ﴿اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وإلى بعض هذا المعنى نبه أبو حيان في البحر: (مناسبة هذه الآيات لما قبلها، هو
أن الله لما ذكر تمرد بني إسرائيل وعصيانهم أمره في النهوض لقتال الجبارين، أتبع ذلك
ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأهم اقتفوا في العصيان أول عاص لله،
وأهم انتهوا في خور الطبيعة، وهلع النفوس، والجبن والفرع إلى غاية بحيث قالوا لنبهم
الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة... ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا
هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة والعتو بأن
أقدم على أكبر المعاصي بعد الشرك، وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها، بحيث كان
أول من سنّ القتل، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، فاشتبهت
القصتان من حيث الجبن عن القتل، والإقدام عليه، ومن حيث المعصية بهما).^(١)
وأقول: (ومن حيث خلو القلب من تعظيم الله وخشيته والقبول بحكمه وأمره ولو
خالف هوى النفوس وكان شديداً عليها).

بنو إسرائيل يجددون جريمة قابيل:

إن جرائم بني إسرائيل الخلقية والمادية لا نجد شاهداً يصورها خيراً من (قابيل)
الذي اغتر بقوته، وحيلته، واستعلى على أمر ربه بالاصطفاء والاختيار، وأقدم على
قتل أخيه، ليضعنا أمام بني إسرائيل اليوم الذين اغتروا بقوهم المادية، وتملكتهم عقيدة
فاسدة وهي أنهم شعب الله المختار، وأن الله وعدهم أرض فلسطين، ليقوموا على
أرضها بأبشع جرائم القتل والإبادة للرجال والأطفال والنساء والشيوخ من أهل

(١) البحر المحيط / المائدة / الآية .

فلسطين، وليهدموا البيوت، ويجرفوا الأرض بأشجارها وزروعها، والتاريخ يعيد نفسه، وهنا نفهم حكمة الله القوي العزيز بقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۗ ۝﴾

من خصائص المجتمع الإسلامي أن التربية والأحكام ركنان في بنائه:

التربية الراشدة مع العقوبة الزاجرة يكمل أحدهما الآخر في بناء المجتمع الإسلامي وحفظ أمنه.. مجتمع العدل والسلام يقيمه الإسلام على القيم الإيمانية التي تطهر النفوس من نزعات الجريمة كما يقيمه على العقوبة العادلة الزاجرة وهذا ما نستخلصه من قصة ابني آدم التي جاءت مقدمة مناسبة في سورة المائدة لأحكام عقوبات الحراة والسرقه والتجسس للأعداء، ونقف عند بعض هذه القيم:

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

ابن آدم القاتل قدم قرباناً لله، والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها، ولكن تقديمه للقربان كان شكلاً وصورة بلا روح خالياً من التقوى والخشية لله، كشأن الذين يقومون بالعبادات صورة، ولا تنهاهم عن منكر، وإذا تعارض أمر الله مع مصالحهم الشخصية وأهوائهم، آثروها على دين الله وخانوا الله ورسوله وجماعة المؤمنين.

الموعظة الهادية :

وصارح أخاه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وأقسم ليقتلنه، فأجابه أخوه التقي أحسن جوابه وأنفعه ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فهذا الجواب يتضمن موعظة لأخيه أن طهر قلبك لله بالتقوى ليقبل الله عملك، وارجع إلى نفسك فحاسبها على السبب فإنما يتقبل الله من المتقين.

ثم أتبعها بموعظة أخرى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ

يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ «فبين له حاله وأنه غير مقابل لأخيه بفعلته وإن اجترأ وبسط

إليه يده ليقتلته» وهذه موعظة تلين القلوب القاسية، فسفك دمك يا أخي عليّ حرام، حتى لو بسطت يدك إليّ لتقتلني ! فإنني لا أتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يراني باسطاً يدي إلى الإجمام وسفك الدم

بغير حق.

ثم ذكره بعذاب الآخرة، وهي موعظة أقوى وأبلغ، وأن المحرم إن نجا في الدنيا فمآل الذي ينجيه من عذاب الله في الآخرة.

فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، إثم قتلي، وإثم شؤمك وسوء

سريرتك التي من أجلها ردّ الله قربانك ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ

جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ دَرَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾.

حين تتجاذب النفس الإنسانية نوازع الخير والشر، نجد النفس الشريرة تنصاع لداعي الشر، ويغلب هواها ومصالحها الدنيوية داعي الخير، وأمر الله، وتطوع النفس الشريرة صاحبها للمعصية.

وكلمة (طوّعت) هنا تصور حالة الصراع بين الحق والباطل في النفس الإنسانية، ودور التربية الصالحة والتقوى في تطويعها للخير، ودور التربية الفاسدة والهوى الحاكم في تطويعها للشر.

وإن هذه الآية تصور أيضاً هولاء الحكام المستبدين والطغاة القتلّة، الذين طوعت لهم نفوسهم قتل من يخشونه على مصالحهم أو قتل كرامة شعوبهم ومصادرة حرياتهم، فحسروا في الدنيا والآخرة، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾.

جثث الضحايا وشهادة التاريخ:

كثيراً ما يقلق الطغاة إخفاء جرائمهم وكيف يصنعون بجثث من قتلوهم، ويعيدون لنا سؤال القاتل الأول: كيف أوارى سواة أخي؟ وقد دل الله ابن آدم على سنته في جعل الأرض كفاتاً، ضامة لأبنائها أحياءً وأمواتاً، فوق الأرض وتحتها.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ

أَخِيهِ﴾ ولما رأى القاتل الغراب وتعلم منه سنة الدفن، وظهر له من ضعفه وجهله ما

كان غافلاً عنه، ﴿قَالَ يَنْوِيْلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ

سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

تصوير مقاومة النفس الصالحة للشر بالتذكير برحم القرابة وخشية الله:

وكما تصور الآية الكريمة الأخ الفاسد قابيل وعزمه على قتل أخيه هابيل الأخ الصالح، تصور لنا الآية أيضاً المؤمن الصالح ومقاومته لزرعة الشر واستعلاءه على الفتنة، واعتصامه بتقواه، بكلمته المؤمنة، وجوابه الصالح بقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

والمعنى: إنه إن بسط ومدّ أخوه يده ليقته، لا يجزيه بالسيئة سيئة. بمثلها، وأن هذه الجناية لا تأتي منه، ولا تتفق مع صفاته وشمائله، ذلك بأنه لم يعبر عن نفسه بصيغة الفعل المضارع المنفي كما عبر بالفعل الماضي المثبت عن عمل أخيه، وهو المتبادر في مقابلة الشيء بضده، بل قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي لست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله تعالى، ولا شك أن نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، ثم أكدّه تأكيداً آخر ببيان علته بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يراني باسطاً يدي إلى الإجمام وسفك الدم بغير حق فإن ذلك يسخط ربي ويكون سبب عقابه لأنه رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه، ويربيهم بفضله وإحسانه، فالاعتداء على أرواحهم أعظم مفسدة لهذه التربية، ومعارض لها في بلوغ غاية استعدادها، ومن يخاف الله لا يعتدي هذا الاعتداء^(١).

وفهمنا لموقف الأخ الصالح من عزم أخيه على قتله في ظلال التربية القرآنية لدفع الجريمة ونوازعها في النفس الشريرة، وتقوية الحجّة البليغة بالتذكير برحم القرابة ورحم الإسلام، لدفع شرورها، وكبح جماح المعتدين، هو من خير وسائل التربية لمنع الجريمة.

(١) المنار / المائدة / الآية .

ولا ينبغي أن نفهم هذه الآية من خلال فقه (دفع الصائل) لأن الموقف يختلف، وهنا موقف الموعظة وأبلغ الاستعطاف والتذكير لأخيه العازم على الجناية.

من خصائص المجتمع الإسلامي أنه مجتمع الأمن والعدل والسلام:

وهذا ما تبرزه آيات سورة المائدة من خلال ما يلي:

من مقاصد الشريعة حفظ الحياة الإنسانية وتكريم الإنسان وبيان ما ينتظر القاتل من عذاب في الدنيا والآخرة، وهذا ما بينه سبحانه بعد أن ساق ما جرى بين ابني آدم، وما شرعه من شرائع تردع المعتدي، وتبشر التقى، فقال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٍ ذَلِكَ

كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا﴾ والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد حكمة الشريعة وعظمة تقديرها للنفس الإنسانية وأمن المجتمع، حين بينت أن قتل النفس يعدل قتل الناس جميعاً بالعقاب، وأن إحياء نفس وحفظها يعدل إحياء الناس جميعاً بالثواب.

وخصَّ بنو إسرائيل في الخطاب مع أن الحكم عام لأهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوباً، وكان قبل ذلك قولاً مطلقاً، ولأهم أكثر الناس سفكاً للدماء وقتلاً للأنبياء والعلماء والمصلحين، ولأن عقدة الاستعلاء والكبر، وقولهم: إنهم شعب الله المختار، أنشأ في نفوسهم حسداً وجرأة على الباطل وقتلاً وسفكاً للدماء، وما يجري الآن في فلسطين يصور عقيدتهم الباطلة ونفوسهم الشريرة وحسداهم واستكبارهم.

وقد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من جريمة القتل بغير حق في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء/٩٣].

ومنها قوله تعالى في صفات عباد الرحمن إذ قرن بين الشرك وقتل النفس بغير الحق فقال: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان/٦٨-٦٩].

ومنها حديث رسول الله ﷺ: (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل) (١).

ومنها ما رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ: (إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب عليه شطر عذابهم) (٢).

لفتة لطيفة للإمام الزمخشري: قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ فإن قلت كيف شبه الواحد بالجميع، وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يدلي به بما يدلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله، وهتكت حرمة، وعلى العكس، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك.

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان / وانظر الألبوسي / الآية .

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب، ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها، لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً، عظم ذلك عليه فثبطه - عن القتل - وكذلك الذي أراد إحياءها (١).

قال قتادة: (عظيم والله وزرها وعظيم والله أجرها).

وقيل للحسن: هذه الآية لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره - هي لنا - كما كانت لهم، وما جعل سبحانه دماءهم أكرم من دمائنا (٢).

تسجيل على بني إسرائيل:

ويختتم الله الآية بما يسجل على بني إسرائيل استهانتهم بآيات الله وجرأهم على

انتهاك حرمت دينه بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا

مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة/٣٢].

والمعنى: ولقد جاءت رسلنا لبني إسرائيل بالآيات البينات، والمعجزات

الواضحات، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك، أي بعد الذي كتبناه عليهم من شرائع، وبعد

مجيء الرسل إليهم بالبينات ﴿فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ أي لجاوزون الحد في

ارتكاب المعاصي والآثام. وما نشاهد على أرض فلسطين من جرائم القتل والإبادة

لأهلها بالطائرات والمروحيات والصواريخ والدبابات وغيرها ما يصور لنا الإعجاز

القرآني في وصفهم.

(١) الكشاف / المائدة / الآية .

(٢) تفسير ابن كثير / المائدة / الآية .

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْسْرِفُونَ﴾ ويا ليت

من عقدوا معهم المعاهدات من حكام العرب والمسلمين يعون هذه الأحكام ويتداركون أمرهم قبل فوات الأوان.

حفظ أمن المجتمع بالعقوبة الزاجرة:

جريمة الحراة وعقوبتها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

والمقصود بالحراة الاعتداء والسلب وإزالة الأمن، وقد يكون ذلك بقتل وقتال وبدوئهما، واشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك من أهل الشركة كالذين يؤلفون العصابات المسلحة للسلب والنهب وقتل من يعارضهم.

ربط الشريعة بالعقيدة:

والتأمل في الآية يجد التعبير المعجز بوصف الذين يعتدون على أمن الأمة واستقرارها محاربين لله ورسوله، كما وصف الذين يجترئون على حكم الله بتحريم الربا بأنهم مستحقون للحرب من الله ورسوله. فمن خصائص الأمة الإسلامية والحاكم المسلم أنه حامٍ لشريعة الله وأرض الوطن وأمة الإسلام، والمعتدون على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم والذين يشكلون العصابات المسلحة أو غير المسلحة لترويع الأمنين

وسلب أموالهم هم في الحقيقة محاربون لله ورسوله مفسدون في الأرض، ومعتدون على شريعة الله التي فرضت الأمن والحماية لكل مواطن في دولة الإسلام في دينه ودمه وماله وعرضه، وفرضت على الحكومة المسلمة القيام بهذه الفريضة لأن وظيفة الحاكم المسلم حماية دين الله وشرعه، وأرض الوطن وأمة الإسلام.

المفسدون في الأرض:

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ والفساد ضد الصلاح،

ومن عمل عملاً كان سبباً لفساد شيء من الأشياء يقال إنه أفسده، فيزالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض، ومعارضة تنفيذ الشريعة وإقامتها - كل ذلك إفساد في الأرض. وروى ابن جرير عن مجاهد أن الفساد هنا الزنا والسرقه وقتل الناس وإهلاك الحرث والنسل^(١).

فإذا اجتمعت داخل الدولة الإسلامية عصابات نظمت أمرها للاعتداء على حياة الناس ودمائهم وأموالهم فهم من المحاربين المفسدين. وإذا قامت تنظيمات هدفها علمنة الدولة بإلغاء الشريعة الإسلامية وفرض ثقافة الفجور والخمور والزنا والإباحية فهم من الذين يحاربون الله ورسوله ومن المفسدين في الأرض.

وإذا قامت عصابات لترويج الحشيش والمخدرات بين أبناء الأمة وتسلحت بالقوة لمقاومة رجال الأمن فهم من المحاربين لله ورسوله.

وإذا قامت جمعيات وتنظيمات تتلقى الدعم من أعداء الإسلام للترويج للفساد الثقافي والأخلاقي الذي يهدم عقيدة الإسلام في نفوس أبناء المسلمين، أو يززع انتماءهم لدينهم وأمتهم فهم من المحاربين لله ورسوله.

(١) ابن جرير المائدة / الآية / والنار / الآية .

فكل تنظيم داخل أرض الإسلام هدفه الحرب على الله ورسوله عقيدة وثقافة وخلقاً وفكراً وأمناً، هو من المحاربين لله ورسوله.

وكل من يُعطي السلاح المادي أو القانوني بالتصريح للتنظيمات اللادينية أو الجمعيات الماسونية والأجنبية لتقوم بعملها في هدم الأخلاق وإفساد الأمة والأسرة أو إلغاء شريعة الله وأحكامه المتعلقة بالمرأة وغيرها هم المحاربين لله ورسوله والعصابات التي تهرّب السلاح لصنع الفتنة هم من المحاربين لله ورسوله، فجريمة الخرابة شاملة لكل العصابات والتنظيمات والجمعيات التي تعتمد على قوة السلاح خارجة عن القانون، أو تعطي قوة القانون خارجة عن شريعة الله مستبيحة لمحارمه هادمة لبنيان الأمة الأمني والنفسي والخلقي والاجتماعي والتشريعي، وبجاء هذه الآية في سورة المائدة التي بينت بأحكامها خصائص الأمة الحضارية، تدعو الأمة لأمرين:

١- حماية شريعة الله وأمن المجتمع.

٢- وأن يكون حكامها ممثلين لإرادتها بحماية الشريعة وأرض الوطن من الفساد

والمفسدين.

فإذا لم يتم حكامها بشريعة الله، وقاموا بتشريع القوانين التي تعطي القوة والحماية للمفسدين في الأرض بالإعلام الفاجر، والتوجيه الفاسد، وفرض الإباحية والأخلاق الغربية على أبناء المسلمين، كان هؤلاء الحكام من المحاربين لله ورسوله، المفسدين في الأرض، ووجب على الأمة أن تنتزع السلطة منهم وتجردهم من سلاحهم عن طريق التنظيمات الشعبية والانتخابات النزيهة أو عن طريق نشر الوعي الإيماني بين أبناء الأمة بتحمل مسؤولياتهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة شريعة الله.

ذلك أنه من المسائل المجمع عليها قولاً واعتقاداً: أنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق). (وإنما الطاعة بالمعروف)، وأن إباحة الحاكم لما أجمع على تحريمه كالزنا، والخمر، والربا، وتغيير أحكام القرآن القطعية في الموارث، والطلاق، وتعدد الزوجات،

وإصدار قوانين تحرم الحجاب، وتشرع ما لم يأذن به الله، هو إعلان حرب على الله ورسوله مدعوماً بقوة الدولة وسلاحها، وكذلك إصدار الدولة لقوانين تصدر حريات الناس وتعنّدي على أملاكهم وأموالهم بغير حق، أو تخضع لإرادة الدول الأجنبية بانتهاك حرّات بلاد المسلمين والعدوان عليهم ومنع تبليغ كلمة الله إلا إذا وافقت أهواء الحاكمين ومصالح المستعمرين.

وكذلك سن القوانين التي تنهب أموال الأمة وبتروها وتحوله للأسرة الحاكمة، وتحرم منه بقية المسلمين، كما تحجبه عن المؤسسات العلمية والصحية والاجتماعية والعسكرية، لتفرض على الأمة التخلف، وتجعل القوة والغلبة لأعداء الإسلام، كل ذلك حرب على الله ورسوله، يستحق من ارتكبوها العقوبة الشرعية ولكن تطبيق هذه العقوبة وتنفيذها يرجع إلى الحاكم المسلم الذي بايعته الأمة على تنفيذ شرع الله وحماية دينه وحماية أرض الوطن.

فإذا لم يقيم الحاكم بشرع الله وكان هو المفسد، رجع الأمر إلى الأمة لتدافع عن دينها وأمنها وأمن أبنائها عقيدة وثقافة، وأرضاً وخيرات وثروات، ولتجرد العصابة الحاكمة بغير أمر الله من سلاح سلطتها بالطريق الحكيمة التي شرعها الله حتى لا يؤدي طلب الإصلاح إلى مفسدة أو فتنة أكبر.

الأحكام الزاجرة في ظل الدولة المسلمة:

واستخلاصنا لدلالة الآية فيما سبق، يدعونا لتبين حكمة الشريعة في إيقاع العقوبات المنوعة على من يتحصنون بالقوة والسلاح للاعتداء على أمن المسلمين وأموالهم ودمائهم، أو بمن يخططون للجريمة المنظمة للعدوان على المال والدماء.

والعقوبات هي: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولعلماء التفسير أقوال في هذه الآية ومعنى التخيير فيها:

١- فقال قوم من السلف: الآية تدل على التخيير بين هذه الأجزاء، فمضى خرج المحاربون لقطع الطريق، وقدر الإمام عليهم، فهو مخير بين أن يوقع بهم أي نوع من العقاب من هذه الأنواع الأربعة: القتل، الصلب، التقطيع، النفي، حتى لو لم يقتلوا، ولم يأخذوا مالاً، ماداموا قد اجتمعوا وقصدوا تهديد أمن الناس، فالمسألة متروكة لتقدير الحاكم، وعليه أن يوقع بهم ما يراه مناسباً لجزهم وردعهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يستشري الشر في الأمة.

٢- وقال قوم آخرون من السلف: الآية تدل على ترتيب الأحكام وتوزيعها على ما يليق بها من الجنايات، وبعبارة أخرى: "تنويع العقوبات حسب طبيعة الجرائم".^(١)

ذلك لهم خزي في الدنيا لشناعة المحاربة وعظم ضررها، لأن الأمن إذا اختل في الدولة تعطلت حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والتعليمية وتحول المجتمع إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف، مما يؤدي إلى هلاك الأمة وغلبة أعدائها عليها (ولهم في الآخرة عذاب عظيم).

الشريعة الحكيمة هدفها الإصلاح والتربية قبل العقاب والتنكيل:

إن العقوبة التي شرعها الله مع شدتها، تقصد إلى أمن المجتمع واستقراره، وزجر المجرمين الذين ينظمون للجريمة، ويدبرون المكائد للناس، ومن هنا فإن الشريعة تفتح

(١) المنار / المائدة / الآية / والوسيط .

باب التوبة لهذه العصابات لترجع عن فسادها وعدوانها وهذا ما بينه الله بقوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ^ط فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ [المائدة/٣٤].

استثنى سبحانه التائبين قبل أن يقدر عليهم، وأخبر بسقوط حقه عنهم وفي هذا دعوة للإعلام ورجال التوجيه أن يحاصروا هؤلاء المعتدين في أنفسهم ويعملوا على استنقاذهم، وإعادتهم إلى الأمة مواطنين صالحين.

وفي هذا أيضاً دعوة لتكون سياسة الإعلام سياسة صالحة تقوم على الإيمان بالله والتذكير باليوم الآخر، وإحياء بذور الخير في نفوس الناس، واقتلاع جذور الفساد.. وكذلك نجد فيها تحذيراً من أن يكون الإعلام مشجعاً على الجريمة، معلماً لها، من خلال برامجه وأفلامه.

أو أن يكون مثيراً للغرائز والشهوات مشجعاً على القيم المادية التي تقدر المال والهوى والشهوة وتقتل وازع الإيمان والتقوى وخشية الله.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ^ط﴾ يدعونا

للتفكير كيف يتوب هؤلاء المجرمون؟ وكيف نصل إلى قلوبهم وعقولهم؟

توبة المحارب:

وللمفسرين أقوال في توبة المحاربين قبل القدرة عليهم هل تسقط عنهم جميع الحدود بما فيها حقوق الأدميين من قصاص وغيره أولاً. فمنهم من ذهب إلى إسقاطها لحقوق الله، أما حقوق الأدميين فلا تسقطها، ومنهم من ذهب إلى أنها تسقط عنهم جميع الحدود.

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك: (وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: توبة المحارب الممتنع بنفسه، أو بجماعة معه، قبل القدرة عليه تضع عنه تبعات الدنيا التي كانت لزمته أيام حربه وحرابته من حدود الله وغرم لازم، وقود وقصاص، إلا ما كان قائماً في يده من أموال المسلمين والمعاهدين فيرد على أهله) (١).

وفي ختم الآية بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ما يربط التوبة بصدق الإفلاع عن المعصية.

التوبة الصالحة والتشريع الحكيم:

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها تعتمد في تطبيقها على وازع التقوى ليكون الأمر بمراعاة أحكامها بقوة النفس الأمانة بالخير، كما تعتمد في ردع المجرم على فتح باب التوبة أمامه حتى لا ييأس ولا يقنط ويزداد عتواً وتمادياً في إجرامه.

وقد ورد في الحديث قصة رجل من بني إسرائيل قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم حدثته نفسه أن يتوب ف جاء إلى أحد علمائهم فقال له: لا توبة لك فقتله لئتم به عدد المائة، ثم جاء إلى عالم آخر فشجعه على التوبة وطلب منه أن يترك البلد التي تعود بها على الإجرام إلى بلد آخر وفي طريقه إليها حضرته ساعة الموت، وتنازعت ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب فكان قربه إلى البلد الصالح سبباً في نجاته وتسليمه لملائكة الرحمة. (٢).

حصانة أخرى للمجتمع المسلم:

ومع العقوبة الرادعة الزاجرة التي تحمي أمن الأمة وتقرير مسؤولية الحاكم والشعب في حماية شريعة الله وأمن الناس يأتي الخطاب الذي يحرض الأمة على الوفاء

(١) تفسير الطبري / المائدة / الآية .

(٢) رواه البخاري .

بعقود الله في حماية شريعته، وأن يكونوا جند الإسلام وأحكامه بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ والوسيلة على وزن فعيلة بمعنى ما يتوصل به ويتقرب به إلى

الله تعالى، من فعل الطاعات، واجتناب المعاصي، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالإسلام اتقوا الله وخافوه ووصونوا أنفسكم عن كل ما لا يرضيه.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا باجتهاد وهمة الزلفى والقربى إليه تعالى

عن طريق مداومتكم على فعل الطاعات وحراسة شريعتكم والغيرة على القيام

بأحكامها ونصرتها واجتناب المعاصي والمنكرات ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

تَفْلِحُونَ﴾ أي: وجاهدوا أنفسكم بكفها عن المعاصي، وجاهدوا من تسول لهم

نفوسهم تعطيل أحكامها أو استبدال القوانين الغريبة بها، أو ترويع المسلمين في

الداخل، أو الاعتداء عليهم من الخارج، فأنتم حماة الإسلام في جبهته الداخلية

والخارجية، فحذار، حذار، أن تتصفوا بالسلبية، وانتظار ماتخبئه الأقدار، كونوا أنتم

أنصار الله وحماة شريعته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الفاسدين

والمفسدين، وجهاد أعداء الإسلام والمسلمين.

والتأمل في هذه الآية الكريمة يجد منهج القرآن في حماية مبادئه وشريعته وترسيخ

معالم دينه بوسائل ثلاث هي:

١- تقوى الله التي تصلح القلوب والنفوس وتطهرها بالخشية والمراقبة.

٢- الوسيلة الصالحة والتقرب إلى الله بما يرضيه التي تحول المؤمن إلى طاقة فاعلة

وشجرة مثمرة معطاءة في عمل الخيرات.

٣- الجهاد في سبيل الله الذي يجعل من المؤمن نصيراً للحق مدافعاً عنه ويجعل الأمة صفّاً واحداً في وجه أعدائها.
وأما الغاية أو النتيجة لكل ذلك فهي الفلاح والفوز والنجاح الذي يحقق لهم سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

التعبئة المعنوية للأمة المسلمة:

وكما وجه الله المؤمنين إلى ما يهيج قلوبهم للالتزام بشريعته والمسارة لطاعته وابتغاء مرضاته والجهاد في سبيله في الآية السابقة يزيدهم تثبتاً حين يذكر لهم حال الكافرين في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة/٣٦-٣٧].

فهما طائفتان تمثلان حضارتين: حضارة تقدر الإنسان بما يملك من مال كالحضارة الجاهلية في القدم والحديث، وحضارة تقدر الإنسان بما يملك من إيمان وتقوى وعمل صالح وجهاد لنصرة الحق والخير وشريعته، فناسب بعد أن ذكر توجيهه الله للمؤمنين وما ينتظرهم في الآخرة أن يذكر مال الكافرين المغترين بأموالهم والمتهاكين على شهواتهم وأنهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولطيفة تربوية أخرى:

ونستخلص من الآيات أيضاً أن سعادة الإنسان وفلاحه ينبع من داخل نفسه بالإيمان والوسيلة الصالحة والجهاد المبرور، ولا يأتي من خارج النفس، ولو ملك الإنسان ما في الأرض جميعاً ومثله معه ما نجاه من عذاب الله.

قال صاحب المنار في تفسير الآية: ^(١) (وهذا كلام مستأنف يؤكد مضمون ما قبله من كون مدار الفوز والفلاح في الآخرة على تقوى الله والتوسل إليه بالإيمان والعلم الصحيح، وتزكية النفس بالعمل الصالح و الجهاد في سبيله، وهو شأن المؤمنين الصادقين) (وهذا فرق جوهرى واضح بين الإسلام وغيره من الأديان الذين يعتقدون أن نجاة الإنسان يقوم على عمل غيره، كما يتوهم الكفار في أمر الفدية، فالإسلام دين الفطرة، وسنة الله تعالى فيها أن سعادة الإنسان البدنية والنفسية في الدنيا والآخرة من نفسه لا من غيره، فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم ونجاتهم وسعادتهم بكون المسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، وأكثرهم يضمنون إلى المسيح الرسل والقديسين، وأنهم شفعاء لهم عنده، وأما المسلمون فيعتقدون أن العمدة في النجاة والفلاح تزكية النفس بالإيمان والفضائل والأعمال الصالحة فبذلك تصلح نفوسهم، وتأمين مجتمعاتهم، ويكونون أهلاً لرضوان الله تعالى) وأن من غرق بالكفر والمعاصي و الشهوات وجعل غايته و همه في الحياة الدنيا: (كل واشرب وتمتع لأنك غداً ستموت) فسيجد بعد الموت المصير المهلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخَرِّجُوا مِن النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وإن في تصوير القرآن لإرادتهم أن يخرجوا من النار وبيان القرآن بالتأكيد ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ ثم تأكيد مضمون ذلك بإثبات العذاب المقيم لهم. إن في ذلك كله ما ينقلنا إلى حياتهم اللاهية العابثة في الحياة الدنيا وما يغمر نفوسهم وإرادتهم من انكباب على الدنيا وشهواتها وتنافس ذميم على جمع أموالها و التمتع بها وإعلان الحرب على الدعوة الإسلامية وأنبيائها و علمائها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ

وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿المؤمنون/٣٣﴾.

وفي آية أخرى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَمْحَسِبُونَ أَنَّ مَا
نُعِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فيقول الله لنبيه: فذر هؤلاء الجاهلين في غمرتهم، والغمرة الماء الذي يغمر القامة
فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمائتهم، أو شبهوا باللاعبين في غمرة
الماء لما هم عليه من الباطل، وينكر الله عليهم أن يظنوا أن ما أمدهم الله به من مال
وبنين دليل على رضوان الله عليهم ومسارعتهم بالخيرات ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
و(بل) استدراك لقوله: ﴿أَمْحَسِبُونَ﴾ يعني بل هم أشباه البهائم، لا فطنة بهم ولا
شعور، حتى يتأملوا ويفكروا في ذلك: أهو استدراج أم مسارعة في الخير؟^(١)

من خصائص المجتمع الإسلامي حماية أموال الناس:

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا
نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ
فَارَبَّ اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة/٣٧-٤٠].

لما بين الله مسؤولية الجماعة المسلمة والحاكم المسلم بإنزال العقوبة الزاجرة على من يأكلون أموال الناس بالباطل جهرة وينتزعونها عنوة، بين في هذه الآيات عقوبة الذين يعتدون على أموال الناس، ولكنهم يأخذونها خفية فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ كما تقطعون أيدي المحاربين إذا سلبوا المال مثلهما، والمراد قطع يد كل منهما: أي إذا سرق الذكر تقطع يده، وإذا سرقت الأنثى تقطع يدها، وإنما جمع اليد ولم يقل يديهما لأن الفصاحة العربية تستثقل إضافة المثنى إلى ضمير التثنية ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم/٤].

ووصف السارق والسارقة متضمن لمعنى الشرط فقرن خبره بالفاء، وهذا الحد على الرجال والنساء، والمتبادر من إطلاق اليد أنها الكف إلى الرسغ.

العقوبة الزاجرة:

وفي قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ تعليق للحد، أي اقطعوا أيديهما جزاءً لهما بعملهما وكسبهما السيء، ونكالاً وعبرة لغيرهما. فالنكال مأخوذ من النكل وهو بالكسر قيد الدابة، ونكل عن الشيء عجز أو امتنع لمانع صرفه عنه، فالنكال هنا ما ينكل الناس ويمنعهم أن يسرقوا، ولعمر الحق إن قطع اليد الذي يفضح صاحبه طول حياته، ويسمه بميسم الذل والعار، هو أجدر العقوبات بمنع السرقة، وتأمين الناس على أموالهم، وكذا على أرواحهم، لأن الأرواح كثيراً ما تتبع الأموال، إذا قاوم أهلها اللصوص عند العلم بهم^(١) ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غالب على

(١) المنار / تفسير الآية / المائدة / الآية .

أمره، حكيم في صنعه وفي شرعه، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة.

فتح باب الإصلاح بالتوبة النصوح:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والمعنى: أنه من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه، أي قبلت توبته، ولس في الآية ما يدل على إسقاط عقوبة السرقة عن السارق إن تاب قبل عقابه، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ ترغيب لهؤلاء العصاة في التوبة والبشارة، وتوجيه للجماعة المؤمنة أن تسعى لاستنقاذ هؤلاء الذين مارسوا السرقة، وفتح باب الإصلاح لهم بتدبير المهن والعمل لكفالة رزقهم وتوفير البيئة الصالحة لهم، حتى لا يعودوا لجرمة السرقة، وينقطع ما بينهم وبين البيئة الفاسدة، فقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ توجيه للجماعة المسلمة أن تحسن إصلاح المجرمين، وهدايتهم، واستثارة تقوى الله في قلوبهم، وإشعارهم بأن باب رحمة الله مفتوح لهم وأخطر ما يساعد المجرم على التمادي في إجرامه سد باب التوبة في وجهه وحرمانه من التوجيه الصالح والتدابير الحكيمة لإنقاذه وإصلاحه وهدايته.

ومسؤولية هداية المجرمين وإصلاحهم تقع بالدرجة الأولى على أسرهم وعشائرتهم كما تقع على الدولة ومؤسسات المجتمع المدني وإدارة السجون.

وإن الذي يدرس حالات المجرمين وأنواع الجرائم وتكرار المجرم لجرمته بعد عقوبة السجن و انتهاء زمنها يعرف الخلل الكبير في قانون العقوبات، ونظامنا

الاجتماعي الذي لم يحسن استنقاذهم ولا توجيههم. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وبيان البشارة للتائب المصلح وتأكيدها مرتين بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ليجد التائب في وعد الله بالتوبة عليه، وفي أسمائه الحسنی ما يزيده ترغيباً بالتوبة والإقلاع عن الجريمة.

وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُد مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ما يزيد التائب عزماً على المضي في طريق التوبة والإصلاح، وأن مغفرة الله ورحمته تنتظر من انقلبت حياته من الإحرام والعدوان إلى الطاعة والصلاح والإحسان لأن الله وحده هو المتصرف في السموات والأرض وما فيهما، فهو العليم بمواضع العقاب ومواضع العفو.

لفتات تربوية مستخلصة من الآيات:

في قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿فَأَقْطَعُوأ

أَيْدِيَهُمَا﴾ ما يصلنا بحكمة العقوبة، فالجزاء هو المكافأة على العمل بما يناسب ذلك العمل من خير أو شر، والنكال هو العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصدّ المعاقب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء، أي النكوص عنه والخوف منه.

فالنكال ضرب من جزاء السوء، وهو أشده، وانتصب ﴿جَزَاءً﴾ على الحال أو

المفعول لأجله، وانتصب ﴿نَكَالًا﴾ على البدل من ﴿جَزَاءً﴾ بدل اشتمال، لتبين لنا
حكمة مشروعية الجزاء على السرقة جزاء يقصد منه الردع وعدم العود، فهو جزاء
وليس بانتقام ولكنه استصلاح، لإصلاح المعاقب، وإصلاح المجتمع وحفظ أمنه.

وبعض الناس يحسبون أن القطع تعويض عن المسروق، وهذا خطأ كبير وأثاروا
بسبب ذلك السؤال التالي: كيف تكون دية اليد بخمس مئين ذهباً وتقطع إن سرق
صاحبها بربع دينار، وقال أحدهم في ذلك شعراً:

يد بخمس مئين عسجدٍ وُدِيتِ ما بالها قطعت في ربع دينار^(١)

وأجابه أحد العلماء بقوله:

عزّ الأمانة أغلاها؛ وأرخصها ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

فالسرقه عدوان على الفرد وعدوان على المجتمع وترويع لأمنه، فلا بد من العقوبة
الراجرة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ما يستثير في القلوب معاني التعظيم لله ويدعوها للتوبة و الإصلاح. قال بعض
العلماء: (جعل الله تعالى هذه الآية نهاية ذيلاً لهذا السياق، بين فيه ما ينبغي أن يحضر
القلوب بعد تلك العبر والأحكام، فقال ما حاصل المراد منه: ألم تعلم أيها السامع لهذا
الخطاب أن الله تعالى له ملك السموات والأرض، يدبر الأمر فيهما بالحكمة والعدل،

(١) التحرير والتنوير / تفسير الآية.

والرحمة والفضل، فكان من متعلقات اسميه العزيز الحكيم أن وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقاً من ذكر أو أنثى، كما وضع ذلك العقاب للمحاربين المفسدين، ومن مقتضى اسميه الغفور الرحيم أن يغفر لمن تاب من هؤلاء ويرحمه، إذا صدق في التوبة وأصلح عمله، فهو بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، يعذب من يشاء تعذيبه من الجناة تربية له، وتأميناً لعباده من شره، ويرحم من يشاء من التائبين المصلحين برحمته وفضله ترغيباً لعباده في تزكية أنفسهم، وإصلاح ذات بينهم، وهو على كل شيء من التعذيب والرحمة قدير، لا يعجزه شيء في تدبير ملكه. (١).

تحصين الأمة في مواجهة اليهود وأعدائهم:

وبعد أن بينت الآيات السابقة حد الحراية وحد السرقة لتحصين أمن المجتمع في الداخل ومحاربة الجريمة وردع المجرمين ناسب أن يذكر بعدها ما يتعلق بتحصين المجتمع الإسلامي في مواجهة أعدائه المتربصين به في الداخل والخارج.

فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا مَحْزَنًا الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا كَلِمَةً مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي

(١) المنار / المائدة / الآية .

الْآخِرَةَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْلُونَ لِّلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١١٦﴾

وهذه الآيات الكريمة تضيء لنا الطريق في مواجهة الطابور الخامس من الذين يكيّدون للإسلام ونبيه ﷺ وأهله من اليهود ومن يتعاون معهم من المنافقين وتضعنا أمام التوجيهات التالية:

١- بيان مقام الرسول ﷺ النبي القائد الذي كان يتقطع قلبه حزناً وهو يرى كيد الأعداء ومكرهم، ليخاطبه الله بأشرف صفاته وهي صفة الرسالة عن الله، وقد ورد في هذا الموضوع وفي موضع آخر من هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة/٦٧]، ومثله: (يا أيها النبي) وفي هذا التشريف والتكريم ما يزيد النبي إيماناً برسالته وثباتاً عليها، وفيه أيضاً تعليم وتأديب للمؤمنين يتضمن معرفة قدر هذا النبي الكريم ﷺ، والنهي عن مخاطبته باسمه، والأمر بأن يخاطبوه بوصفه.

٢- وفي قوله: ﴿لَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ما يفضح

هؤلاء الذين يهرولون ويسارعون لمرضاة اليهود، في التطبيع معهم، وموالاهم والتعاون معهم والمضي في تنفيذ مخططاتهم الرامية لتهويد أرض فلسطين وهدم المسجد الأقصى المبارك وبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، وإقامة المشاريع المشتركة معهم في المجال الأمني والثقافي والاقتصادي والإعلامي والصناعي والطبي والعلمي وغيره، وقد حرم

الله علينا ذلك كله بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَّهُرُوا عَلَىٰ إخراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة/٩].

وبقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة/١].

وفي قوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يُسرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴾ [المائدة/٥١-٥٢] وفي

قوله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا

نَصْرِي ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

[المائدة/٨٢].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزُنْكَ﴾ مواسة وتسرية عن قلب النبي الكريم يخاطبه الله ألا يحزن، ولا يملك قلبه الشريف الأسى، ولا تهتم ولا تبال بهؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ويهرولون لكسب رضا الأعداء، على حساب دينهم وأمتهم وأوطانهم، فإن الله يكفيك شرهم، وينصرك عليهم وعلى من يتعاونون معهم.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن

قُلُوبُهُمْ﴾ بيان حقيقة حال المتعاونين مع يهود العاقدين المعاهدات والمطبعين معهم، المتنازلين لهم عن أرض الوطن، الحارسين لأنهم، فهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ يخدعون الأمة بأسمائهم الإسلامية وألقابهم ومظاهرهم، آمنت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم!!

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ عطفاً على ما سبقه من المنافقين ما

يبين أن اليهود والمنافقين المسارعين في تنفيذ أوامرهم ومخططاتهم في خندق واحد، يكيّدون لهذا الدين ونبيه ﷺ وأهله.

٥- التحسس والتعاون الأمني لصالح أعداء الإسلام: وفي قوله تعالى:

﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ ما يبين

صورة من صور التعاون الأمني بين اليهود والمنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول

الله ﷺ ليكيدوا لهذا الدين عن طريق سماع ما يدور في مجلسه ﷺ ثم نقله محرفاً، منقوصاً، مضافاً إليه من كذبهم ما يروجون به أخبارهم الملفقة وإشاعتهم الكاذبة لبثّ الفرقة بين المسلمين أو تشويهه كلام النبي ﷺ واختلاق الأكاذيب عليه.

ففي قوله تعالى: ﴿سَمْعُونََ لِلْكَذِبِ﴾ بيان أنهم يأتون مجلس رسول

الله ﷺ ليكذبوا وليختلقوا الأكاذيب عليه، فاللام للتعليل، والهدف الآخر من مجيئهم هو توصيل الأخبار لقوم آخرين لم يحضروا مجلس رسول الله ﷺ، منهم من الجواسيس المرتبطين بجهات أخرى، وقوم آخرين ينقلون إليهم الأخبار ليكيدوا للإسلام ونبية ﷺ،

وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿سَمْعُونََ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ﴾ وبين الله وسيلتهم بالكذب والافتراء وترويج الإشاعات الجامعة لأهداف العدو بقوله:

﴿مُحْرِفُونََ الْكَلِمَةَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ فصنعوا الإشاعات الضارة يحرفون الكلم

عن مواضعه ويفسرونه على غير وجهه، ويخلطون بعض الوقائع والأخبار الصحيحة، بكذبهم ويخرجونها عن حقيقتها، لتخدم أهداف الأعداء، وينتقون من هذه الأخبار، ليخرجوها إخراجاً خادعاً يخدم أهداف العدو، وما يكيد به للإسلام والمسلمين، وهذا ما ينبه إليه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا أَوْتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتَوْهُ

فَأَحْذَرُوا﴾.

٦- خراب قلوب الجواسيس والمتعاونين مع الأعداء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي

الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة/٤١].

هؤلاء هم الخونة المتعاونون مع أعداء الإسلام من يهود وغيرهم: معادن رخيصة امتحنهم الله واختبرهم وفتنهم فانكشفوا على حقيقتهم موالين لأعداء الإسلام يخدعون الناس بمظاهرهم وأسمائهم العربية أو سابقتهم في المقاومة أو مراكزهم ورتبهم (ومن تعلقت إرادة الله تعالى بأن يختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله، كما يفتن الذهب بالنار، فيظهر مقدار ما فيه من الغش والزغل، فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئاً من الهداية والرشد، كما أنك لا تستطيع أن تحول النحاس إلى الذهب، لأن سنة الله تعالى لا تتبدل في معادن الناس، ولا في معادن الأرض، وكذلك هؤلاء اليهود والمنافقون الموالون لهم الخادمون لأغراضهم، الحارسون لظلمهم وعدوانهم، لا يحزنك أيها النبي مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان بك، فإنك لا تملك لأحد هداية ولا نفعاً، ولا تخف عاقبة نفاقهم فإنما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان، ولهم الخزي والهوان، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ

قُلُوبَهُمْ﴾ فالقلوب التي تشربت نجاسات الأعداء وحبهم لتحقيق أرباحها ومكاسبها عن طريقهم، والقلوب التي تشربت فتنة المنصب والمال والهوى، والرتبة والراتب ورأت في موالاته أعداء الإسلام ما يحققها أو يحفظها لهم، هم من الذين ينتظرون وعيد الله بقوله: ﴿هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقد كشف

الله نفاقهم ومرض قلوبهم في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ بين علة قلقهم وكيف يدورون حول

مصالحهم فهم ينظرون إلى الأمور من خلال مصالحهم الشخصية لا من خلال مصلحة الدين والأمة، فيقولون نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان، أو من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، فنحتاج إلى نصرهم لنا، والمراد أن هؤلاء المنافقين الذين في قلوبهم مرض، أي إيمانهم معتل غير صحيح إذ لم يصلوا فيه إلى مستقر اليقين، ويخشون أن تدول الدولة لأعداء الإسلام على المؤمنين، فيستبقون الأمور، ويوالونهم، ويقىمون معهم الأحلاف على النصرة وتقدم العون لهم، وقد كشف الله خراب قلوب هؤلاء الموالين لأعداء الدين وخيانتهم لدين الأمة وقيمها وثوابتها بقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا

قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾
 وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ
 وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ۗ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ
 وَرَهْبَانًا وَآنَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ [المائدة/٨٠-٨٢].

عودة إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا مَحْزَنَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي

الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۗ وَمِنَ
 الَّذِينَ هَادُوا ۗ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ

يَأْتُولِكُمْ^ط مُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ^ط يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا^ط وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ^ط مِنْ اللَّهِ شَيْئاً^ط أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ^ط لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ^ط وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^ط.

والدارس لسبب نزول الآية يجد شاهداً من السيرة يفسر لنا مكر يهود وكيدهم لهذا الدين، وحضورهم مجلس رسول الله ﷺ وإثارة قضية تتعلق بحكم رجم الزانية، من أجل أن يخدعوا النبي الكريم ﷺ ويصرفوه عن الحكم الحق، متخذين من الكذب وتعاون المنافقين معهم، وتحريف الكلم عن مواضعه، وقلب الحقائق سلاحاً لحرب الدعوة والنبي - عليه الصلاة والسلام - .

قال أحد العلماء في تفسير الآيات: (وهي استئناف بياني لتهوين تألب المنافقين واليهود على الكذب والاضطراب في معاملة الرسول ﷺ وسوء طواياهم معه، بشرح صدر النبي ﷺ مما عسى أن يحزنه من طيش اليهود واستخفافهم ونفاق المنافقين. وافتتح الخطاب بأشرف الصفات وهي صفة الرسالة عن الله.

وسبب نزول هذه الآيات حدث أثناء مدة نزول هذه السورة هو ما رواه أبو داود والطبري وغيرهما: أن اليهود اختلفوا في حد الزاني بين أن يرحم وبين أن يجلد ويحتم أي يلطخ وجهه بالسواد تمثيلاً به، اختلافاً ألجأهم إلى أن أرسلوا إلى يهود المدينة أن يحكموا رسول الله في شأن ذلك وقالوا: إن قبل بالتحكيم قبلنا حكمه، وإن حكم بالرحم فلا تقبلوه، وأن رسول الله ﷺ قال لأخبارهم بالمدينة: (ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن) قالوا: يحمم ويجلد ويطاق به، وأن النبي ﷺ كذبهم وأعلمهم بأن حكم التوراة هو الرجم على من أحسن، فأنكروا، فأمر بالتوراة أن تنشر (أي

تفتح طياتها) وكانوا يلفونها على عود بشكل اسطواني، وجعل بعضهم يقرأها ويضع يده على آية الرجم (أي يقرأها للذين يفهمونها، فقال له رسول الله ﷺ: (ارفع يدك، فرفع يده، فإذا تحتمها آية الرجم)، فقال رسول الله ﷺ: (لأكونن أول من أحيا حكم التوراة، فحكم بأن يرحم الرجل والمرأة. ^(١)).

وفي رواية أبي داود أن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا تَحْزُنكَ الَّذِينَ

يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ نزل في شأن ذلك، ^(٢).

وسبب التزول لم يذكر شيئاً يدل على سبب الإشارة إلى ذكر المنافقين ولكن العبارة القرآنية المعجزة ذكرت هؤلاء المنافقين المخادعين وعظفت عليهم الذين هادوا لترسم لنا اللوحة القديمة الجديدة في اصطفاة المنافقين واليهود في خندق واحد للكيد والمكر بالإسلام وأهله وهذا ما بينه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة/١٤].

وما ذكره صاحب الكشاف في تفسيرها: (كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، ﴿مَّا هُمْ مِنْكُمْ﴾ ، يا مسلمون ﴿وَلَا

(١) تفسير ابن جرير الطبري / المائدة / الآية - وانظر ابن عاشور / ١٩٤/٦ و ١٩٥.

(٢) المرجع السابق

مِنْهُمْ﴾ ولا من اليهود كقوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُّوَلَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُّوَلَاءٍ﴾.

﴿وَمُخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ﴾ أي يقولون: والله إنا لمسلمون، وهم يعلمون كذبهم وخداعهم... وكان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: (يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعين شيطان، فدخل ابن نبتل وكان أزرق، فقال له النبي ﷺ: (علام تشمني أنت وأصحابك؟). فحلف بالله ما فعل، فقال عليه السلام: (فعلت) فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبوه، فنزلت الآية. (١).

وقد ذكر الله مهمة اليهود والمنافقين التجسسية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة/٦١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ءَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/٧٦].

وفي هذا الحديث الشريف نجد من إعجاز النبوة إخبار النبي ﷺ لأصحابه بمجيء هذا المنافق الجاسوس، ووصفه قبل أن يحضر، كما نجد حرص النبي الكريم على توعية أصحابه أمنياً ليأخذوا حذرهم من جواسيس الأعداء المتلبسين بثياب الإسلام خداعاً

(١) الكشاف ٤ / ٤٩٥ / المجادلة / ١٤.

وكذباً، وكذلك نجد في وصف هذا المنافق العميل (قلبه قلب جبار، وينظر بعين شيطان) ما يكشف لنا صفات العملاء ممن يسلمهم العدو المسؤوليات ويعهد إليهم بحراسة أمنه وتأمين مصالحه، فقلب كل واحد منهم قلب جبار، لا يبالي في سبيل مصالحه الرخيصة، بارتكاب جرائم القتل الجماعي والإبادة والسجن والتنكيل بالمؤمنين والمجاهدين، وعينه عين شيطان: يعمل عمل الشياطين في نقل الأخبار للأعداء والتجسس لخدمتهم، صورة قديمة جديدة تدعونا للتأمل والتدبر!!

وكذلك نجد مع هذا المنافق أصحاباً مجندين لخدمة العدو، ويحفظون درسهم في الخداع وحلف الأيمان الكاذبة.

إن تجنيد العملاء وتدريبهم للقيام بمهمتهم الخيانية مهمة قديمة جديدة، فقاومها بالوعي والحذر، والحزم، والله المستعان.

من خصائص المجتمع الإسلامي ولاؤه لله ورسوله وجماعة المؤمنين:

من أقوى الحصون التي تحمي أمة الإسلام ولاء أبنائها لله ورسوله وجماعة المؤمنين، ومن أخطر ما يهدد هذه الحصون من الداخل زعزعة هذا الولاء، أو ضعفه، أو تحوله إلى ولاء لعصبية الدم أو الإقليم أو الطائفة على حساب الولاء لله ورسوله، وللأمة المسلمة ومصالحها العليا وقد حاول المستعمرون الذين احتلوا أرض الإسلام وهزموا الخلافة الإسلامية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أن يضعوا (ولاءات) جديدة تحل محل الولاء لله ورسوله، ورابطة الأخوة الإسلامية التي توحد بين أبناء أمة الإسلام.

فأثاروا الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والفينيقية في سوريا، والبربرية في المغرب، وقطعوا الوطن الإسلامي والعربي تقطيعاً سياسياً وعرقياً وعملوا على تفرغ القومية العربية من مضمونها ورسالتها الإسلامية، وكذلك أثاروا أسباب التقطيع

العرقى والقومى فى داخل الوطن العربى وليحيوا القوميات الكردية، والتركية والفارسية وغيرها، وليهدموا روابط الإسلام بين العرب وجيرانهم من أصحاب القوميات الأخرى كما فعل أصحاب الفكر العلماني القومى المنسلخ من إسلامه وحضارته، وكما تفعل أمريكا فى العراق بعد احتلاله.

الماسونية تنظيم يهودى لتفريغ مضمون الولاء؛

وقد نشر المستعمر مع احتلاله العسكرى الفكر المنحرف وشجع الحركة الماسونية وحرص على تجنيد أصحاب القرار وقادة الفكر وكبار التجار فيها ليقطع ولاء المنتسبين للمحافل الماسونية عن الله ونيبه وجماعة المؤمنين، وليقيم ولاءً جديداً للحركة الماسونية وقيادتها التى تؤاخى بين المسلم واليهودى والنصرانى والهندوسى وتقيم هذه الأخوة والرابطة تحت شعارات خادعة تحمل اسم الإنسانية، وهى فى حقيقتها يهودية يتحكم بها قادة يهود، وقد جعلوا هدم الأقصى وبناء الهيكل من أعظم أهدافهم وجعلوا تقدم الخدمات للمتسبين لهذه الحركة الطعم المسموم الذى يغيرهم بدخولها والاستفادة من دعم كبار المتسبين إليها من رجال الدولة.

وكان ذلك على حساب تجريدتهم من هويتهم الإسلامية وولائهم لدينهم وأمتهم.

لفتات بيانية وإعجاز القرآن؛

والدارس لآيات سورة المائدة التى حددت هوية الأمة وقاعدة انتمائها يجد البيان مع الإعجاز، وهذا ما نلمح فيما يلى:

١- معرفة الحكمة في تحريم موالة اليهود والنصارى وبيان القرآن ﴿بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وقد كان اليهود والنصارى حين نزول الآيات يعادي بعضهم بعضاً،

إنه إعجاز القرآن الذي أنزله الله العليم الخبير ليعرفنا بمسؤوليتنا في مواجهة تحالف اليهود والدول الغربية لدعم باطل اليهود وإقامة دولة لهم على أرض فلسطين، ويفرض الله علينا أن يكون ولاء الأمة المسلمة لله ورسوله ليكونوا صفاً واحداً في وجه تحالف أعدائهم من اليهود والدول الغربية والأمريكية التي تواليهم وتقدم العون لهم.

٢- والله يعلم أن أعداء الإسلام سيخترقون حصوننا من الداخل، ويوظفون بعض الحكام، وكثيرين من رجال السياسة والإعلام والاقتصاد لترسيخ عدوانهم وتحقيق أهدافهم في فلسطين وبلاد الإسلام.

٣- فيين لنا الله حكيمين عظيمين وتحذيرين كبيرين الأول في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ ..﴾ والثاني في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

٤- وبين ربنا قاعدة الولاء الذي يحرم على المسلم أن يخرج عنها بقوله: ﴿إِنَّمَا

وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

وفي ظل هذه الآيات نستخلص ما يلي:

١- عقيدة الولاء والبراء، فمن صفة المسلم الذي يجب الله ورسوله صادقاً أن يحب أحبابهما، ويكره أعداءهما، وإذا أحب المسلم أحباب الله ورسوله صادقاً نصرهم ووالاهم وإذا كره المسلم الصادق أعداء الله ورسوله صادقاً فلا يوالاهم ولا يناصرهم ولا يكون إلا في خندق الإسلام وصف المسلم إذا حصل قتال بين المسلمين

والكافرين، وهذا ما بينه الله تعالى في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة/ ٢٤] وبجد الشاهد في الآية في حكمة عطف كلمة ﴿وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ﴾ على كلمة (الله ورسوله) ، في قوله : ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ وهذه الحكمة هي أن الجهاد في سبيل الله هو التعبير العملي عن حب الله
ورسوله بنصرة أوليائهما، وقاتل أعدائهما، ولذلك عطف كلمة جهاد على ﴿أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

قال صاحب الكشاف: «كان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر
ويصادم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاهم، فقالوا يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا
في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرتنا، وهذبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت
ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت فهاجروا....»^(١).

وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من
رخاوة عقد الدين، واضطراب جبل اليقين، فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه،
هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على
الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها
لأجله... (الكشاف/ تفسير الآية).

(١) الكشاف / التوبة / آية ٢٤.

٢- إن التعبير القرآني ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ... ﴾ يبين لنا

الحقيقة وهو أن الذين يوالون اليهود أو أمريكا ويسهلون لهم أمر احتلالهم لفلسطين والعراق، وتقديم الدعم السياسي والأمني والاقتصادي والعسكري لهم يأخذون حكم أعداء الإسلام وهم يعملون، يعملون عملهم ويخدمون أهدافهم بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ... ﴾ أي يهرولون في خدمة مصالح الأعداء، ومرضى القلوب هم المنافقون الذين لم يصح إيمانهم، وكذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ فالذين يوالون أعداء الإسلام ويمضون في تنفيذ مخططاتهم باحتلال أرض الإسلام، أو التنازل عنها، أو إبعاد شريعة الله وأحكامه عن الحكم والتطبيق، أو إبعادها عن التربية والتعليم وتربية أبناء المسلمين، هم في الواقع (من هؤلاء اليهود والنصارى) وكلاء عنهم بتنفيذ مخططاتهم، ويخدعون الأمة بأسمائهم الإسلامية ولافتاتهم الإسلامية.

وإن من أعظم المصائب التي حلت بالأمة الإسلامية في هذه الحقبة من الزمان أن يجند أعداء الإسلام من اليهود والنصارى الأمريكان والغربيين، طابوراً خامساً من أبناء المسلمين وينهبوا أموالهم ليغتصبها أعداؤهم، وهذا ما يدعونا للتذكير بعقيدة الولاء والبراء التي أجبر الأعداء بعض الدول الإسلامية على حذفها من مناهجها وكتبها المدرسية.

ولبيان الحكم الشرعي في الموالين لليهود والأمريكان وغيرهم من أعداء الإسلام ولاء تبعية ومحاربة للإسلام عقيدة وأرضاً ومقدسات، وقانوناً، ونظاماً، وتربية، وأخلاقاً، فهؤلاء مشمولون بنذير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ... ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ وكذلك من سارع وهرول في طريق التطبيع بالصناعة والتجارة والزراعة والسياحة والتعاون الأمني

وغيره مشمولون بهذا النذير ويخشى أن يموتوا على غير ملة الإسلام إذا لم يسارعوا للتوبة النصوح والعودة لإصلاح دينهم وأمتهم.

قال الإمام الطبري: (إن الله تعالى ذكره نهي المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله. وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله فإنه منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريثان. (١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا تعليل للوعيد وبيان لسببه وهو

أن من يوالي أعداء الإسلام الذين نصبوا لهم الرب واحتلوا ديارهم ونهبوا خيرات بلادهم أو ينتصر بهم، مستعيناً بهم على المسلمين، فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها، ولن يهتدي مثله إلى الحق والنجاة أبداً. (٢).

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ فهم يسارعون في

أعمال موالاتهم مسارعة الداخل في الشيء الثابت عليه، الراغب فيما يزيده تمكيناً وثباتاً، ولهذا قال: ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ ولم يقل يسارعون إليهم، فهؤلاء المنافقون أصبحوا جزءاً من نظام الهيمنة اليهودية والأمريكية الصليبية على بلاد المسلمين واحتلوا مواقعهم السياسية والعسكرية والاقتصادية داخل بيت الطاعة الأجنبي، فهم يسارعون في ضمن الهيمنة لتقدم العون و (الفواتير) والخدمات لليهود والنصارى لتثبيت مواقعهم وحكمهم، والحفاظة على مكاسبهم ولا يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعذرهم في موالاتهم لليهود والنصارى خشيتهم على مصالحهم الشخصية وأن يغضب عليهم سادتهم فيعاقبهم، أو يحرمهم مما جندوهم له من هبات و امتيازات.

(١) تفسير الطبري / المائدة / الآية .

(٢) المنار / المائدة / الآية .

طريق التحرير:

ويوجهنا ربنا -تبارك وتعالى- لطريق التحرير والخلاص من أعداء الإسلام وأعدائهم الموالين له بإرشادنا إلى التنظيمات الشعبية الإيمانية التي تجمع صفوف الأمة وتوحدها بالطريق الحكيم. تنتزع ولاءها من هذه الأنظمة الموالية لأعداء الإسلام ومن كل ولاء يمزق الأمة مستند على العصبية والإقليمية واللا دينية ليقلق ولاءها لله ورسوله وجماعة المؤمنين، وتنظيم مقاومتها لتحرير أرضها ومقدساتها من الأجنبي وأعدائه، وتنتزع اليأس والوهن من القلوب، وهذا ما بينه الله في هذه الآيات ومن خلال النقاط التالية:

١- من قواعد المقاومة وعي الأمة وأثره في فضح المنافقين وإنقاذها

من خديعتهم ففي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا

بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ تجد استهجان موقف المنهزمين الذين كانوا في وقت السلم

يرفعون الشعارات الخادعة ويعلنون أنهم في صف المسلمين ونصرتهم ويحلفون الأيمان

المغلظة على ذلك، ثم انكشفوا على حقيقتهم موالين لأعداء الإسلام فحسروا الدنيا

والآخرة، وصار المؤمنون يتحدثون ويعجبون من أصدقاء الأمس كيف أصبحوا أعداء

اليوم، ومن مدعي المواقف والغيرة والنصرة للأمة ودينها، كيف سقطوا هذا السقوط

في خندق أعداء الإسلام، وأسرعوا يأخذون مواقعهم في خدمة الكافرين، وهذا ما

نستخلصه من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

والمعنى: يقول بعض المؤمنين لبعض متعجبين من مواقف المنافقين وتقلبهم: أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الأيمان مجتهدين في توكيدها، إهم منكم أيها المؤمنون وعلى دينكم ومعكم في حربكم وسلمكم، وقد فضحهم الله أيضاً في سورة براءة ﴿وَمُخَلَّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي جناء لا يفكرون إلا بأنفسهم ومصالحهم الشخصية، وليس عندهم انتماء لدين ولا أمة ولا وطن، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ تَجْمَحُونَ﴾ فهم من شدة خوفهم يحرصون على البعد عن مواطن المواجهة والخوف بحيث لو وجدوا أي مكان يحمي أشخاصهم وثرواتهم لأسرعوا إليه إسراع الفرس الجموح.

وإنني لأجد في إعجاز هذه الجملة القرآنية ما يصور لنا قبل أربعة عشر قرناً نفوس المنهزمين المنافقين المتاجرين بالشعارات المخادعين لأمتهم وكيف ينقلون ثرواتهم خارج البلاد في بنوك أوروبا وأمريكا، ويشترون هناك البيت والمقام الآمن، ويعدون حقايبهم ليكونوا جاهزين للفرار والله المستعان.

٢ - الاستبشار بنصر الله:

إن اليأس قاتل للأمة محطم للمقاومة، ومن هداية القرآن أن يبعث في الأمة الأمل بنصرة الله في مواجهة ظلام الأعداء وكيدهم، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى في الآية السابقة.

﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا

أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴾ أي فالرجاء بفضل الله تعالى وصدق ما وعد به

رسوله ﷺ أن يأتي بالفتح والنصر على أعداء الإسلام، أو بأمر من عنده في هؤلاء المنافقين الموالين لأعداء الإسلام بفضيحتهم وكشف أوراقهم للمسلمين وإبطال كيدهم وأذاهم، وقد حصل ذلك في تحرير الجزيرة العربية في المدينة المنورة وخيبر وتيماء وغيرها من سلطان اليهود وفتح قلاعهم وحصونهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وإجلائهم عن أرض الإسلام.

وكذلك نجد البشري بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَخَفُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

التنظيم الحزبي الذي أعطى ولاءه وبيعته لله ورسوله :

وفي هذه الآية نجد وعد الله بأن من يوالون اليهود وينقضون عهد الله ويرتدون عن دينهم، لا يضرهم إلا أنفسهم وقد انسلخوا من الولاية لدينهم فحسروا الدنيا والآخرة، وأما جند الله الموالون له فهم الذين يواجهون الردة وهم الذين هياهم الله لذلك عن طريق القيادة المؤمنة بمبادئها الثابتة عليها وعن طريق الأمة المؤمنة الملتفة حول قيادتها المتصفة بأخلاق الإسلام التي تزيد الصف قوة ومنعة وعزة في وجه أعدائه.

من أسس التربية الإيمانية الحركية للتنظيم الشعبي الجهادي:

١- ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ومن أحب الله أحب أحبائه فوالاهم ونصرهم وكره أعداءه فقاتلهم وحذلهم، وإن من خير ما يزيد المؤمن ثباتاً وقوة وتجرداً لله أن يشعر بأن عمله في نصرة دين الله وصدق وولائه له يجعله أهلاً لمحبة الله له.

٢- ﴿ أَدِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . ويرشدنا ربنا -تبارك

وتعالى- بهذا الوصف كيف نجعل التنظيم حياً فاعلاً بحسن تعامل أبنائه بعضهم مع بعض ورحمة بعضهم ببعض، وتكافلهم وتناصرهم، واتساع صدورهم لإخوانهم، فالأخ الذي يضيق ذرعاً بإخوانه، ولا يحسن حوارهم ومخاطبتهم، لا يتحلى بهذا الخلق، والأخوة الذين يعيشون لأنفسهم ودنياهم ولا يتعاطفون مع هموم إخوانهم، بعيدون عن هذا الخلق، وقد وصف الله مجتمع المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر/٨-٩]. ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

ووصف مجتمع النصر والقوة بقوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شَطْعُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغَلَّظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً ﴾ [الفتح/٢٩].

قال في الكشاف: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعاشروا إخوانهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة، والاحتمال والأخلاق السهلة، ووصف الله قوة التنظيم وقدرته على جمع الأمة حوله بقوله: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ أي

وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعاً في التوراة والإنجيل كزرع بدأ قليلاً فأخرج شطأه: سنبله، فأزره من المؤازرة وهي المعاونة فصار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق.

وقيل: مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر... «وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيته في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتوالد منها حتى يعجب الزراع وليغيب ترقيمهم في الزيادة والقوة الكفار وليستبشر المؤمنون بعد ذلك بوعده الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

إن تشبيه الجماعة المسلمة في بداية عهد الدعوة بالزرع ومؤازرة بعضه لبعض حتى يقوى ويستحكم ويعطي ثمراته، هو توجيه للجماعة المسلمة لتعرف سر قوتها بالتعاون والتنظيم والالتفاف حول القيادة المؤمنة التي ترسم لها طريق عملها وتنظم لها حركتها لتصل إلى الأهداف المنشودة.

﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

فالمؤمنون الذين وصفهم الله بقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه ضمن الذل

معنى الحنو والعطف، كأنه قال: عاطفين على وجه التذلل والتواضع لإخوانهم، وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم، خافضون أجنحتهم لإخوانهم، وهذا ما يميز المؤمنين والحركات الإيمانية أما تواخي بين الغني والفقير، والقوي والضعيف وأصحاب الرياسة والمكانة في المجتمع، وإخوانهم الكادحين العاملين من مختلف الطبقات لأن شرف

الأخوة بشرف التقوى والإيمان والعمل الصالح وحسن التواضع وكرم الخلق الذي يجعل صفّ الجماعة والمؤمنين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

﴿أُعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

فتراحمهم فيما بينهم يزيدهم قوة ليقفوا وقفة العز والكرامة في وجه أعداء الإسلام ومكرهم وكيدهم للمسلمين، وهذا ما عبر عنه شاعر الإسلام محمد إقبال بقوله:

يتسّم المسلم في سلمه عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ في عزمه إذا دعا الداعي ونادى النفير

إن التنظيم القوي بقيادته وأفراده هو الذي يستطيع أن يفرض هيئته، ويرهب أعداءه وهو الذي يحسن الجهاد والبذل وهذا ما وصفهم الله بقوله:

﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

شامل لجهود الفكر والتخطيط، وجهد وضع الأهداف الاستراتيجية البعيدة، وجهد رسم الأهداف المرحلية القريبة، وجهد تنظيم طاقات الأفراد وحسن توظيفها لتحقيق الأهداف المرجوة، وجهد البذل والعطاء بالمال والعلم والسلاح والدعوة وجميع ميادين القوة التي تحتاجها الأمة المسلمة والحركة المجاهدة لبلوغ أهدافها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

وهذا الوصف يعني أن قيادة الحركة المجاهدة وأبنائها قد تتعرض للوم اللائمين من الذين يأثمرون بأمر أعداء الدين، فإذا أمروا بمعروف ونهوا عن منكر لا يتفق مع رغبات الحكام تعرضوا للوم، إذا بينوا حكماً شرعياً يخالف سياسة الحاكم أو ألقوا خطاباً تعترض على سياسة ظالمة لامرهم، فكلمة ﴿لَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

تحصين نفسي لأصحاب العقائد والمبادئ الذين يسعون لإنقاذ الأمة والوقوف في وجه تيار الردة وموالات الأعداء والخضوع لرغباتهم، أن يثبتوا على مبادئهم، وأن ينتصروا لها، وألا تأخذهم في نصرة دينهم لومة لائم، ولا تعرضهم لاستحواب أممي، أو أذى نفسي، أو مادي لأنهم يعملون العمل طلباً لمرضاة الله، لا رغبة في جزاء أو ثناء من الناس، ولا خوفاً من مكروه يصيبهم فيخافون لوم هذا أو ذاك، وإنما يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل وتقرير المعروف وإزالة المنكر.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

ويزيد الله الجماعة المؤمنة قوة ورغبة بالتحلي بهذه الأوصاف الجهادية لمقاومة الردة والمرتدين إذ يعرفها بأن من وفقه الله ليكون في صف أوليائه، وأنصار شريعته، الذين يواجهون الردة والمرتدين، فإنه قد حصل على فضل عظيم كالذي حصل عليه أحبابه وأنصار نبيه الذين عزّروه ونصروه، وفي هذا فليتنافس المتنافسون ويتسابق المتسابقون ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا ينبغي لمؤمن أن يغفل عن فضل الله ومنتته، وما يقتضيه من شكره وعبادته، وهذا ما يدعو أبناء الحركة الإسلامية أن يضاعفوا جهادهم وجهودهم لحشد الأمة المسلمة وتكثيلها لنيل هذا الفضل ونصرة دين الله وهذا ما أرشدنا الله إليه بقوله:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وفي هذه الآية نجد ترغيب المؤمنين بتوحيد صفوفهم لنصرة دين الله ومقاومة أعدائه من خلال تذكيرهم بولاية الله لهم، فمن كان الله وليه وناصره كان له الفوز

والغلبة، وليس للمؤمنين أن يعتمدوا إلا على الله ثم على أنفسهم بموالاته بعضهم لبعض فلا يباليون بمرضى القلوب، وليحرصوا على النوع قبل الكم والعدد، فالتنظيم القوي بإيمانه وقيادته وأفراده وحسن استجابتهم لأوامر ربهم وهذا ما نهىنا الله إليه بقوله في وصفهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فالأمة المسلمة مدعوة لتنظيم صفوفها وحشد طاقاتها لنصرة دين الله ومواجهة الردة والمرتدين من خلال تنظيمات إيمانية تعرف كيف تختار قيادتها وأفرادها، رجال عقيدة، وجند رسالة، مقتدين بالنبي العابد المجاهد ﷺ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويسارعون في مرضاة الله يصدق فيهم قول الشاعر:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أعظم المحراب في المحراب

وهذا ما وجهنا الله إليه حين ذكر بيعة المؤمنين لله على الجهاد والنصرة بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة/ 111] ثم ذكر بعدها صفاتهم بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الِاسْتِخْوَاتُونَ الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/ 112].

وفي هذه الآيات تنبيه للأمة وتحذير أن تغتر بهؤلاء الذين يرفعون شعارات التحرير والإنقاذ والوحدة، دون أن تمتحن صدقهم مع الله، وإحباطهم إليه وغيرهم على دينه ومسارعتهم لمرضاته.

﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾

وفي هذه الجملة القرآنية نور من الهداية يبصرنا بروعة الإعجاز في قوله تعالى:

﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ وحتى نفق عند هذا الإعجاز يحسن أن نعرف معنى: ﴿ وَهُمْ

رَاكِعُونَ ﴾.

قال الزمخشري في أساس البلاغة: «كانت العرب تسمي من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راعياً، ويقولون: (ركع إلى الله) أي اطمأن إليه خالصاً، فجملة (وهم راعون) تفيد في سياقها في الآية الكريمة صفة المؤمنين الموالين لله ورسوله، المنتظمين في سلك أنصاره، وأنهم في مواقعهم في صفّ الدعوة يبذلون، وينفقون من مالهم، وعلمهم، وجهدهم ومسارعتهم للطاعة فيما يرضي الله ورسوله وقيادة الدعوة، فالراكع وهو في صفّ الدعوة والجماعة، مطمئن إلى ربه، ثابت على مبدئه، متجرد من الهوى والمصلحة، مخلص لله رب العالمين، ويعطي زكاة قلبه إخلاصاً وزكاة ماله وعلمه وجهده، يزيد الصفّ قوة ويزداد به قوة. وقد ذهب بعض المفسرين إلى قريب من هذا المعنى، وإلى معنى آخر وهو تفسير الركوع بالتطامن والخشوع لله، أو لضعف وانحطاط القوي فاستعمل الركوع في المعنى النفسي، لا الحسي». (تفسير المنار/ الآية).

وهنا يبرز معنى آخر لا يتعارض مع المعنى الأول وهو أن المؤمنين المنتظمين في سلك دعوة الله ونصرتهم، يقدمون زكاة جهدهم، وعملهم، للدعوة، على تفاوت قدراتهم، وإمكاناتهم، وقوتهم، وضعفهم، والقيادة الحكيمة هي التي تحسن توظيف هذه الطاقات، كما تحسن توظيف الزكوات في مصارفها الشرعية.

وفسره بعضهم بركوع الصلاة، وهو الانحناء فيها وقد استبعد هذا المعنى صاحب المنار، أما أفراد (وليكم) مع إسناد الجمع إليه فهو لبيان أن الولي الناصر بالذات هو الله تعالى، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأن ولاية الرسول والمؤمنين تبع لولايته، ولو قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لما أفاد هذا المعنى.

نداء للأمة:

وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ نجد نداء للأمة ألا تقف محايدة متفرجة والمجاهدون والدعاة يواجهون أعداء الإسلام وحدهم، فالحياء إذا كان خذلاناً للمجاهدين والدعاة جريمة كبرى، وإذا كانت المعركة بين الحق والباطل، فإما أن تنصر الحق بنصرتك لأولياته، وإما أن تحذله، فيجتمع أهل الباطل على باطلهم ويتفرق أهل الحق عن حقهم، وتكون الكارثة الكبرى التي تحل بالإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال/٧٢].

ثم بين الله بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي الذين

كفروا يوالي بعضهم بعضاً لنصرة دينكم، كما اجتمع أهل الباطل على باطلهم ﴿إِلَّا

تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿١﴾ أي تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة حين يصبح الحكم والقوة لأعداء الإسلام يفسدون في الأرض، ويبطشون وينكلون بالمسلمين ويعتدون على شرع الله شهادة بالإيمان الحق لأولياء الله وأنصاره.

وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ما يثبت صفة الإيمان الحق للذين انتقلوا من الحياة المطمئنة بين أهلهم وفي أموالهم وعشيرتهم في مكة المكرمة إلى الحياة المجاهدة التي ينتظمون بها في صفوف المؤمنين تحت قيادة النبي الكريم لنصرة دينه وللذين آووهم وأحسنوا ضيافتهم ورعايتهم من أهل المدينة المنورة وكذلك نجد في قوله تعالى بصيغة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ما ينفي صفة الإيمان الحق والبشرى عن هؤلاء الذين ينتسبون للإسلام بأسمائهم، ولا يقدمون ولاءهم ولا نصرتهم ولا أموالهم للدعوة والدعاة والمجاهدين في سبيل الله، ويكتفون بسماع آخر الأخبار، ولا يغضبون، ولا تتحرك قلوبهم لما يحل بأمته من تكبات، ولما يفعل عدوهم بإخوانهم في فلسطين والعراق وغيرها من بلاد الإسلام من مذابح جماعية، وإبادة للإنسان والزرع وأسباب الحياة.

وما أجمل قول الشاعر:

وأحط خلق الله في بلد طغت فيه الرزايا من يكون محايذا

وهنا نحسن فهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي إذا كان الله هو وليكم وناصركم، وكان

الرسول والذين آمنوا أولياء لكم بنصرهم لله ودينه، فهم بذلك حزب الله والله ناصر لهم، ومن يتول الله تعالى بالإيمان به والتوكل عليه، ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزهرهم، وبالاستنصار بهم دون أعدائهم، فإنهم هم الغالبون، فلا يغلب من يتولاهم، لأنهم حزب الله تعالى، وقد وضع المظهر وهو اسم الله موضع الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لبيان علة كونهم هم الغالبين. (انظر المنار/ تفسير الآية).

النصرة والهجرة:

ويحسن البيان هنا أن مفهوم الهجرة هو نصره الله بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من دار الاستضعاف والذلة، إلى معسكر الإيمان والعزة ليأخذ المسلم دوره في نصره دين الله.

ويمكن ان نقول إنه انتقال من الحياة الوادعة الرتيبة المحاصرة بهموم الإنسان الشخصية وحاجاته الدنيوية، بعيداً عن حرارة النصرة، وما تتطلبه من بذل للمال أو الجهد، وما يتعرض له صاحبها من مساءلة الظالمين وفتنتهم وأذاهم. فالنبي ﷺ بعد فتح مكة قال كلمته المعروفة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» لأن الدين قد انتصر وحرر المسلمون البيت الحرام من الشرك والمشركين، وأصبحت مكة المكرمة قاعدة التوحيد وحصن الإسلام الذي تشد إلى مسجدها الحرام الرجال.

وبقيت الهجرة فرضاً بعد ذلك على المسلمين الذين يحتاج الإسلام إلى نصرهم أو هم يحتاجون لحماية دينهم ودين أبنائهم ممن يعيشون في بلاد الكافرين. ولا نستطيع في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الإسلام أن نكتل الأمة للقيام بنصرة دينها في مواجهة القوى الظالمة المستكبرة إلا من خلال إحياء مفهوم الولاية

والنصرة والهجرة في ظل الاقتداء بسيرة النبي الكريم ﷺ ومنهجه في تكتيل أبناء المسلمين وتنظيم صفوفهم وحشد طاقاتهم لمواجهة أعداء الإسلام، وتحرير الأرض والمقدسات، وحفظ الإسلام من أعدائه في الداخل والخارج والله المستعان.

تحسين الأمة بهويتها وثقافتها الإيمانية:

ويرغب الله الأمة ويستنهض هممها لتعصم بموالاتها لله ورسوله، وأن لا تتخذ أهل الكتاب والمشركين أولياء وهم الذين اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً، واتخذوا النداء إلى الصلاة والعبادة هزواً ولعباً، وفي هذا التوجيه الإلهي يدعو الله أمة الإسلام لتغار على دينها ولا ترضى أن يُستهزأ بالإسلام وأحكامه، أو أن تكون عقيدة الإسلام وشريعته موضع استهزاء أو ازدراء، وإن من خصائص الأمة الإسلامية الحضارية احترامها لدينه وشعائره وأحكامه، واعتزازها به، وأن تواجه بقوة الإعلام الفاسد، التوجيه المنحرف، والثقافة المستوردة التي يحرص أصحابها أن يضعفوا من ولاء المسلم لدينه بالاستهزاء بأحكام الشريعة ووصف من يلتزم بأحكامها وآدابها، بالرجعية والجمود، والتأخر، إلى غيرها من أساليب الحرب النفسية التي يسعى أهلها لتحويل أبناء المسلمين إلى موالاة الغرب الكافر بعقائده، وقيمه وأخلاقه وعاداته في الطعام والشراب، وطريقة اللباس، واستباحة المحرمات.

وهذه الآية تدعونا لنعطي ولاءنا لله ورسوله ونقف بقوة وحزم في مواجهة الأجنبي الذي يسعى لفرض ثقافته علينا بتغريب المرأة، وإدخال التعديلات على المناهج والكتب المدرسية، لينشأ جيل جديد، لا يقيم للدين وزناً، ولا لعقائده وأحكام الله احتراماً، يستهزئ بالدين واللغة والتاريخ، ومبهور بالغرب، مفتون به.

وقد وجهنا ربنا تبارك وتعالى أن نعلن إنكارنا ومقاطعتنا وانسحابنا من كل

مجلس أو حفل، يُستهزأ فيه بالإسلام وأحكامه قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

الْكَتَبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء/١٤٠].

وقبلها نسبة الله إلى علة هذه الجحاسة بين المنافقين، والكافرين المستهزئين بدين الله، وأنهم يجاملونهم على حساب دينهم أو يقلدوهم في أفكارهم وثقافتهم وعاداتهم وأخلاقهم المنافية لدينهم طلباً للرياسة والزعامة، والعزة عن طريق الأعداء فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ أَيْبَتُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء/١٣٨-١٣٩]، فينكر الله عليهم طلب العزة عند أعداء الإسلام وقد علموا أن العزة جميعها بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، فمن أراد العزة فليطلبها عند ربه بولائه لدينه ونصرته له.

وفي سورة الأنعام يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن إعراضه وانسحابه من مجالس يخوض فيها أصحابها بدين الله مستهزئين، وأن يترك هؤلاء، ولا يبالي بهم، وقد اتخذوا دين الله لعباً ولهواً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنِّ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَبِهِ أَنْ

تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿[الأنعام/٦٨-٧٠].

وفي هذه الآيات يخاطب الله المؤمنين بصفة الإيمان ألا يوالوا الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً ليكون الشعب كله حارساً لدينه، موالياً له، معلناً سيف المقاطعة والإنكار في وجه كل من استهزأ بدين الله.

وقد رأينا أعداء الإسلام كيف يجندون كتاباً وحكاماً ورجال أعلام ليقوموا بدورهم الماكر بالسخرية من عقائد المسلمين وأحكام دينهم، وأن وعي الأمة الإيماني والثقافي والحضاري وإعلان غضبها لله وولائها له، في التفافها حول قادتها وعلمائها في زجر المنافقين والمستهزئين.

قال العلماء في تفسير الآيات: يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم الذي هو سر سعادتكم وصانع أمجادكم وباني أمتكم وعزتكم، هزواً ولعباً، أي: اتخذوا مادة لسخريتهم واتهامكم، وموضعاً لعبثهم وهوهم.

وفي قوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ تذييل قصد به استنهاض أمتهم لامثال أمر الله، وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالة أعدائهم بقوة وحزم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يبين لنا كبير المنافقين القلسم الجديد بالاستهانة بشعائر الإسلام، وقد كان المنافقون يتضحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس

منها، وإذا ناديتهم —أيها المؤمنون بعضكم بعضاً إلى الصلاة عن طريق الأذان اتخذ هؤلاء المضلون الصلاة والمناداة بها موضعاً لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعقلون حقيقة

الدين وما يجب لله تعالى من الشاء والتعظيم، ولو كانوا يعقلون ذلك لخشعت قلوبهم، وسارعوا لأداء الصلاة.

وفي هذا التعبير القرآني ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يصور لنا فراغ عقول هؤلاء

وهزيمتهم النفسية، وتشبعهم الفتنة بالغرب وقيمه وانسلاخهم من الإسلام وتعظيمه، كما يدعو الأمة المسلمة لتفرض على مدارسها وحكامها وإعلامها وصحافتها الاحترام لشعائر الإسلام، وثقافة الأمة وهويتها ليكون الولاء لدين الأمة وهويتها وحضارتها عزيزاً كريماً لا يقبل العدوان على أرض الوطن كما لا يقبل العدوان على هوية الأمة وشعائر دينها.

تحصين الأمة بالحجة والبرهان:

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّن

ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ

وَالْحَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۗ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ

﴿١٧٦﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۗ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ
الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا
قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ [المائدة/٥٩-٦٦].

في هذه الآيات الكريمة يقيم القرآن الحجة على أهل الكتاب من خلال النقاط

التالية:

أولاً: يسجل القرآن على أهل الكتاب مكابرتهم وخروجهم عن أهداف رسالة
الأنبياء ومقاصدها حيث جعلوا الإيمان بالله وبكتبه التي أنزلها رسله ومنها القرآن الذي
أنزل على خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، موجبا للنقمة، مع كونه في نفسه موجبا
للقبول والرضا.

فلاستفهام في قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا ﴾ إنكارى وتعجيبى،

ومفعولات (تنقمون) كلها محامد لا يحق نقمها وإعابتها، يقال نقم منه، ذا ينقم (من باب ضرب يضرب) إذا أنكره عليه بالقول والفعل وكرهه لأجله.

ثانياً: مكابرة أهل الكتاب بخروج أكثرهم عن هداية كتاب الله والأنبياء وأن رسالة القرآن المنقذة هم من أحوج الناس لهدايتها لتشفى أمراضهم وصدورهم، وكان أولى بعلمائهم وعامتهم أن يسارعوا للإيمان بها والانتفاع بهدايتها وهذا ما نبه الله إليه بقوله: ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

ثالثاً: مكابرة أهل الكتاب بعدم الانتفاع بتأديب الله له بعقوبات المسخ واستنزاهم غضب الله ولعنته لسوء حالهم مع أنبيائهم، وكان أولى بهم أن يحسنوا دراسة التاريخ والاعتاظ بما حصل لآبائهم بسبب استهزائهم بآيات الله واستخفافهم بالرسالة والرسول.

قال صاحب المنار: انتقل القرآن بهذه الآية من تبيكيت اليهود وإقامة الحججة على هزئهم ولعبهم، إلى ما هو أشد منه تبيكيتاً وتشنيعاً عليهم بما فيه من التذكير بسوء حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائهم على فسقهم وتمردهم، بأشد ما جازى الله تعالى به الفاسقين الظالمين لأنفسهم، وهو اللعن والغضب والمسخ الصوري أو المعنوي، وعبادة الطاغوت، وقد عظم هذا المعنى بتقدم الاستفهام عليه وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ

هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾؟؟ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود

الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية، والذين قالوا لكم: ((ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم...)) قل لهم على سبيل التبيكيت والتنبية على ضلالهم، هل أخبركم بشراً من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة فالثوبة مصدر ميمي مشتقة من تاب يثوب، أي رجع، فهي بوزن

مفعوله سمي بها الشيء الذي يثوب به المرء إلى منزله إذا ناله جزاء عمل عمله أو سعي سعا، وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة تهكماً بهم هو من (لعنه الله) أي أبعدته من رحمته، (وغضب عليه) بأن منع عنه رضاه (وجعل منهم القردة والخنازير) بأن مسح بعضهم قردة وبعضهم خنازير وجعل منهم من (عبد الطاغوت) أي من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات الباطلة التي اتبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم» (تفسير الوسيط/ الآية...).

عقوبات ومواعظ:

ومن هداية القرآن وهو يذكر بالعقوبات التي أنزلها الله بأهل الكتاب أو بالأُمم السابقة، أن يربطها بأسبابها حتى لا يقع المسلمون أهل الكتاب الخاتم بمثلها فيصيبهم ما أصاب غيرهم.

وقد ذكر الله اللعنة التي نزلت على بني إسرائيل وأتبعها بسببها وهو ذكر جرائمهم كنقض الميثاق، والفرية على مريم العذراء، وترك التناهي عن المنكر ومنها لعن أصحاب السبت الذين اعتدوا فيه وشرعوا شرعة الاحتيال على تطبيق الأحكام الشرعية (انظر سورة المائدة/ ٧٨-٧٩، والأعراف/...).

كما ذكر استهزاءهم وتهاونهم بالأوامر الإلهية بالقول والفعل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف/ ١٦٦-١٦٧].

وفي سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف/١٦٦] ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الْمُصَلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَدَاةُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصَلِحِينَ﴾ [الأعراف/١٦٧-٧٠].

مواعظ من سيرة أهل الكتاب:

والتأمل في هذه الآيات يجد الدروس والمواعظ التالية..

١- إن الاستكبار عن تطبيق شرع الله يؤدي إلى الذلة والصغار ويعاقب الله الأمة المستكبرة عن دين الله بانسلاخها من هويتها الإنسانية المؤمنة وطمسها إلى حيوانية القردة والخنازير، وهذا هو المسخ المعنوي الذي رجحه بعض المفسرين وقال: (مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة).

انظر تفسير المنار / الآية....

ويرجحه قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ وَجَعَلْ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ

الطَّغُوتَ ۗ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة/٦٠].

فقوله تعالى: ﴿ وَعَبَدَ الطَّغُوتَ ﴾، يعني الانسلاخ الكامل من هداية التوراة

وعبادة الله الواحد إلى عبادة الطاغوت، والطاغوت اسم فيه معنى المبالغة من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد المشروع والمعروف إلى الباطل والمنكر، فهو يشمل كل مصادر طغيانهم، وقرأ الجمهور عَبَدَ بالتحريك على أنه فعل ماضٍ من العبادة والطاغوت بالنصب مفعوله. والجملة على هذا معطوفة على قوله: (لعنه الله)، أي هم من لعنه الله وغضب عليه.... وعبد الطاغوت، والقراءة الأخرى بفتح العين والبدال وضم الباء، وهو لغة في عبد بوزن (بحر) واحد العبيد، أي جعل منهم عبيد الطاغوت، بناء على أن عبداً يراد به الجنس لا الواحد.

والمقصود من ذكر ذلك تذكير اليهود المجادلين للمسلمين بمساوي أسلافهم، إيكاتاً لهم عن التطاول، وأن العقوبات التي حلت بأسلافهم جديرة بأن توقظهم للتوبة وعدم تكرار أسبابها، وأن الخروج عن هداية الأنبياء يؤدي إلى طمس الهوية، وهو نوع من المسخ الذي يعاقب الله به من اختاره الله لحمل رسالته ثم هاون بها وعتا عن الالتزام بأحكامها.

وهذا ما ذكر الله به ونعى به على بني إسرائيل في سورة الجمعة: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ

حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة/٥].

﴿أَوْلَيْتِكَ شَرًّا مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي أولئك الموصوفون

بما ذكر من المخازي والشنائع شرًّا مكاناً، إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار وأضل عن قصد طريق الحق ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفریط.

٢- إن الاستكبار عن الاحتكام لشريعة الله وتعظيمها يفقد الأمة الرابطة التي توحيدها، والهوية الثقافية التي تجمعها، ويجولها إلى أمم وشعوب ممزقة مفرقة يطمع أعداءها فيها ويقطعها في البلاد.

٣- إن الانحرافات الباطلة والأوهام الخادعة من شر ما أصاب أهل الكتاب وأخرجهم عن منهج الدين الحق بالإنابة والطاعة والالتزام، إلى الأماني الخادعة، وهذا ما نبه إليه القرآن بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

٤- إن التمسك بالكتاب عقيدة وعبادة وشريعة ونظام حياة هو سفينة النجاة والإصلاح ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف/١٧٠].

المسخ والانسلاخ وطمس الهوية:

نبه القرآن في كثير من آياته إلى حالات طمس الهوية بتشبيهات بليغة تصور انتقال الإنسان وتحوله من شخصيته الإنسانية الإيمانية إلى صورته البهيمية الحيوانية، وأن ذلك عقوبة ربانية للأمة التي آتاه الله كتاباً وبعث فيها أنبياء فخانت الرسالة والرسول، ولم تلتزم بأحكام الله، وآثرت الدنيا والشهوات واللهو والشح، واستهانت بالدين وأحكامه، وتعبير القرآن عن حالة الطمس والمسح إلى قردة وخنازير وتشبيه

أصحابها ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَمَحَّمِلُ أَسْفَارًا﴾ أو كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، كل ذلك يدعونا لنقف عند مقصد القرآن الكريم بالمحافظة على شخصية الأمة الإسلامية الإنسانية الحضارية والتحذير من عقوبة وعاقبة المسخ والطمس والانسلاخ وتدبر هذه الأوصاف ودلالاتها البليغة في طمس الهوية.

فمسخ بعض عصاة اليهود إلى قرودة وخنازير عقوبة لمن اجترأوا على شريعة الله، والقرودة تتقن المحاكاة والتقليد، وتغلب عليها شهواتها وشراتها والخنزير حيوان تغلب عليه صفة انعدام الغيرة على أئناه والكلب تغلب عليه صفة الشر واللهاث الدائم، وهذا سر التعبير والتشبيه بقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف/١٧٦-١٧٨].

فالعالم الذي أكرمه الله بآياته، والأمة التي أكرمها الله بحمل رسالته تنتظرها العقوبة الربانية والعاقبة المخزية إذا انسلخت من هداية ربها وآثرت شهواتها على دينها ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ
الرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا
قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿المائدة/٦١-٦٦﴾.

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يرى مشهداً حياً وصورة ناطقة ليهود المدينة،
وأخلاقهم كذلك يرى ما أصاب هؤلاء من انحرافات عن هداية الدين الحق، من خلال
الأوصاف التالية:

١- التجسس والنفاق ومحاولتهم خداع النبي والمسلمين إذ يحضرون مجلسه ﷺ

لنقل الأخبار والتجسس قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا

بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ والتعبير

القرآني البليغ ﴿ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾^١ يعني: أن الإيمان لم يخالط قلوبهم طرفة عين، أي هم قد دخلوا كافرين، وخرجوا كذلك لشدة قسوة قلوبهم، فالقصد استغراق الزمنين وما بينهما وهذا شأن الجاحدين المنافقين لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة، ولا النذر مهما كانت قوية بخلاف المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة/١٢٤-١٢٥] وفي قوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾

عند دخولهم من قصد نقل الأخبار وعند خروجهم من الكيد والمكروه والكذب.

٢- مسارعتهم في الإثم والعدوان ومجاهرتهم به:

الفساد الأخلاقي، وترويجه، صناعة اليهود القديمة الجديدة وهذا ما بينه الله

بقوله: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴾.

والمعنى: وترى أيها الرسول الكريم أو أيها السامع كثيراً من هؤلاء اليهود يسارعون في ارتكاب الآثام، وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام، مدفوعين إلى ذلك اندفاعاً عن قصد وإصرار، والتعبير بقوله: ﴿ وَتَرَى ﴾ والرؤية هنا بصرية تفيد أن

ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافياً أو مستوراً، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية لإغراء الناس بالمعاصي وتشجيعهم عليها.

والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، والتعدية بحرف (في) تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام، وأهم ينتقلون فيها من حال إلى حال أخرى شرّ منها، حتى لكان السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم.

وأهى الله هذه الآية بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لتبجح أعمالهم التي يأبأها الدين والخلق الكريم. الوسيط / الآية.

مسؤولية العلماء في مواجهة الفساد :

وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ

الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ما يبين مسؤولية علماء

الشرع والفتوى ورجال التربية والإعلام والسياسة والتوجيه، ونواب الأمة، وأعيانها، في مواجهة الفساد و (لولا) تحضيض أريد به التوبيخ، ومعنى الآية: هلا ينهى هؤلاء

المسارعين فيما ذكر أئمتهم وعلمائهم وأخبارهم ورجال التوجيه منهم عن قول الإثم كالكذب، وأكل السحت، كالرشوة! لبئس ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والأخبار من الرضا بهذه الخطايا والآثام، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن أشد توبيخاً لعلماء السوء من هذه

الآية يقول صاحب المنار: وإذا كان حير الأمة يقول هذا، فما قول علماء السوء الذين

أضاعوا الدين، وأفسدوا الأمة بترك هذه الفريضة.

صناعة الإعلام المنافق لأهل الفساد:

وقد نبه علماء التفسير في مباحث بيانية إلى حكمة انتهاء الآية بقوله تعالى:

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وفرّقوا بين (يعملون) و (يصنعون) وأن كلمة

(يعملون) صفة لغالب الناس، وأما كلمة (يصنعون) فهي تعني ما يحتاج إلى دربة وقصد، وهذا ما يتصف به من أعطوا ولاءهم للظالمين، وصار ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صناعة يتقنونها، ليخدعوا المسلمين بسكوهم أو بممالأهم للظالمين أو بتكلفهم أن يظهروا بمظهر الغيور على الشريعة، الحريص عليها، من خلال فتاواهم التي يجارون بها هوى الحاكمين ومصلحة الظالمين، ويختفون تحت لافتات خادعة من مجارة العصر، والتطور، فيفتون مثلاً بتحريم العمليات الاستشهادية التي تنكل بالمحتلين أو يستحلون فوائد الربا، ويستهيون بأمر الله بالحجاب وستر المرأة المسلمة وغيرها من مآثمهم ومنكراتهم، ويزعمون أنهم فقهاء العصر!

وفي هؤلاء يصدق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا

قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا

وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[آل عمران/١٨٧-١٨٨].

ما أصدق هاتين الآيتين على بعض علماء السوء الذين يحبون أن يحمدا بغيرهم

على دين الله، في إصدار فتاوى تخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ولا ترضي إلا الظالمين.

وما أصدق هذه الآيات على صناعة الإعلام والرأي العام والتوجيه ما تفعله الدول في بلاد المسلمين من هيمنة على أجهزة الإعلام والوعظ والإرشاد والفتوى والخطابة والإعلام لتصادر من خلالها الرأي العام وتصنعها كما تريد وتصرف المسلمين عن الوعي الإيماني والجهادي المطلوب.

فإذا بالإعلام، والتوجيه العام، والعلماء المناطة بهم مسؤولية الفتوى يخضعون لصناعة واحدة وخطة إعلامية محكمة تكمم بها الأفواه وتخدع بها الجماهير ويزداد بها الظالمون طغياناً وعتواً.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ إن الدارس لهذا النص الكريم يزداد عمقاً

وإدراكاً لمقصد القرآن الكريم من التحذير من صناعة (الخداع، والتضليل الذي يمارسه الحكام الظالمون والعلماء والإعلاميون وأجهزة الحكم التي تتقن هذه الصناعة التي تحول أبناء المسلمين إلى أموات بصورة أحياء، وتعجل بهزائم الأمة وهلاكها، وتشل إرادة الأمة عن العمل والإبداع والمقاومة ومحاربة أسباب التخلف، ويحضرني هنا قول الشاعر بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧: نحن موتى، وشر ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب تسير!!

نحن موتى، وإن غدونا ورحنا، والقصور المزوقات قبور!! .

عودة للفرق بين يعملون ويصنعون لاستخلاص المعاني السابقة: قال الإمام الراغب: (الصنع إجادة الفعل، فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعاً، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب الفعل).

وقال غيره: (يصنع) أخص من العمل، فهو ما صار ملكة منه، والعمل أخص من الفعل، لأنه فعل بقصد، وقال في الكشف: «كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير لأن كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه، ويتدرب، وينسب إليه)). وقال صاحب المنار: والذي أفهمه أن معاصي العوام من

قبيل ما يحصل بالطبع، لأنه اندفاع عن الشهوة بلا بصيرة، ومعصية العلماء بترك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف من قبيل الصناعة المتكلفة، للصانع فيها فائدة، يلتمسها من يصنع له. وما ترك العلماء النهي عن المنكر، وهم يعلمون ما أخذ الله عليهم من الميثاق إلا تكلفاً لإرضاء الناس، وتحامياً لتنفيرهم منهم، فهو إثارة لرضاهم على رضوان الله وثوابه والأقرب أن يكون من الصنع لا من الصناعة، وهو العمل الذي يقدمه المرء لغيره يرضيه به. المنار ٦/٤٥١/ الآية.

وأقول بعد ذلك ما ذكرته آنفاً عن صناعة الرأي العام بما يوافق هوى الظالمين جريمة تشارك فيها مؤسسات التوجيه والفتوى والوعظ والإرشاد، وإن قوانين الإعلام والوعظ والإرشاد والثقافة والتوجيه هي أدوات المصنع وإن مسارعة العلماء وقبولهم ما تمليه عليهم هذه المؤسسات في فتاواهم، أو سكوتهم، أو تزيينهم للباطل، أو تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مشاركة آثمة في مصنع الإعلام والتوجيه المسخر لخدمة الظالمين وأعداء هذا الدين.

إقامة الحجّة على بني إسرائيل باجترائهم على الله وحسدكم ومكابرتهم

وايقاد الفتن:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ هذا القول الفظيع من شواهد قولهم الإثم

الذين لم ينه عنه علماءؤهم، وهو يصور هزيمتهم الثقافية والفكرية والخلقية حين يجرؤ في مجتمعاتهم من يقول هذا القول الخطير، ولا ينكره علماءؤهم!! وهذا يذكرني بما نشرته مجلة عسكرية في بلد عربي قبل هزيمة حزيران/ ١٩٦٧ تحت عنوان (سنحس الله في متحف) وكانت الهزيمة والكارثة الكبرى وهذا ما يذكرنا بملاحدة العرب الذين يسعون لأن يضعوا شريعة الله في الأغلال ويجترثون على حكمة الله وشرعه وينكرون صلاحه وإصلاحه للبشرية.

وكذلك يذكرنا بمن ينكرون رحمة الله التي وسعت حاجات الناس وأرزاقهم

بقوله ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي

يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا

وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت/ ٩-١٠] أي قدر

فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من أهل الأرض .

وفي هذه الآية دعوة للعلماء وأصحاب القرار أن يحسنوا استثمار الأرض

ومواردها وأن يضعوا الخطط الحكيمة لذلك، وأن ينفقوا الأموال للوفاء بحاجات الرزق

بدل أن ينفقوها على أسلحة الدمار والاستعلاء في الأرض بغير الحق.

روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس: قال: قال رجل من اليهود: إن ربك

بخيل لا ينفق، فأنزل الله الآية. والمراد بقولهم: يد الله مغلولة: أنه سبحانه بخيل عليهم

ممسك خيره عنهم كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن ييسطها بعباء وقد ذكر الله

اجترأهم على الله تعالى في كثير من آياته ومنها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ [آل عمران/١٨١].

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ والمعنى: كلا - أيها اليهود -

ليس الأمر كما زعمتم من قول باطل، بل هو سبحانه الواسع الفضل، الجزيل العطاء،
فبسط اليد هنا كناية عن الجود والفضل والإنعام منه سبحانه على خلقه، وعبر بالثنى
فقال: بل يدها للإشارة إلى كثرة الفضل والفيض والإنعام لأن الجواد السخي إذا أراد
أن يبالغ في العطاء أعطى بكلتا يديه.

وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن
يمين الله مألَى، لا يغيضها نفقة - أي لا ينقصها الإنفاق - سحاء - معطاءة - الليل
والنهار - أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يفيض ما في يمينه...
وقال: يقول الله تعالى: (أنفق أنفق عليك) تفسير ابن كثير - الآية.

حسد اليهود واستعلاؤهم:

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ما يبين لنا علة قلوبهم في عداوتهم للإسلام ونبيه ﷺ وأهم قوم لا
تزيدهم آيات الله البينات إلا استكباراً وطغياناً بدل أن يهتدوا ويخشوا ويتوبوا.

والمعنى: إن هذا الذي أنزلناه عليك من خفي أمور هؤلاء اليهود المعاصرين

لك، ومن أحوال سلفهم، وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم هو من أعظم الحجج

والآيات على نبوتك، فكان ينبغي أن يجد بهم إلى الإيمان بك، لأنك لولا النبوة والوحي لما علمت من ذلك شيئاً.

ولكنهم لتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب والمسلمين، والعصبية الجنسية لأنفسهم حاربوك وعادوك، قال قتادة: (حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن كفروا به....) وفي الأثر بمعناه (لا يحسدنا اليهود كما يحسدوننا على الدين الذي هدانا الله إليه وضلوا عنه والجمعة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها والقبلة التي هدانا الله إليها وقولنا خلف الإمام (أمين)، والمتأمل في هذا الأثر يجد الدين والقبلة والجمعة والصلاة الجامعة واتحاد كلمة المؤمنين في الدعاء تمثل وحدة الأمة الإسلامية، وهذا ما فقده اليهود في أيام ضعفهم وتشردهم بسبب خروجهم عن هداية الله، وهذا ما ذكره الله بقوله: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وهذه العداوة والبغضاء كانت في زمن الرسالة واستمرت إلى قرون عديدة بين اليهود والنصارى، وبين اليهود بعضهم وبعض، ولئن وجد اليهود فرصتهم في ظلال ضعف دولة الخلافة العثمانية وانتصار الدول النصرانية عليها، وتحالفهم معها لاحتلال فلسطين وأرض الإسلام ووحدوا صفهم ونظموا جهودهم فإن بذور الفساد والظغيان كامنة في سياستهم ومعتقداتهم، وأن نهايتهم وهلاكهم قريب بإذن الله ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

في هذا النص الكريم من الآية ما يكشف لنا سلاح اليهود القديم والجديد في إشعال نار الفتنة والفساد، وبناء دولتهم وقوتهم على تفرق المسلمين وضعفهم،

وكذلك يكشف لنا ربنا كيف نواجه كيد اليهود بصدق التوكل على الله وتحكيم شرعه وتوحيد الأمة على منهجه.

ومن المفصل في السيرة النبوية أن اليهود حرضوا قبائل العرب على غزو المدينة المنورة في غزوة الأحزاب، وحرضوا المشركين على المسلمين، وحرضوا الروم على المسلمين، وكذلك يحرضون في زمننا هذا الدول الغربية والأمريكية على حرب المسلمين، ويحتفون وراءهم، ويحرضون الحكام الظالمين على المجاهدين، ليحرسوا أمن الأعداء.

سنة الله في سعة الرزق وفتح البركات:

ومنهج القرآن في ترغيب أهل الكتاب بالإسلام بعد أن وجههم ربنا تبارك وتعالى لينتفعوا بما وقع لأبائهم وذكرهم بمخالفاتهم السابقة وفتح لهم باب التوبة ليعودوا صالحين مصلحين فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ودعوة القرآن لهم تظهر فيما يلي:

١- الإيمان برسالة محمد ﷺ: أي لو أنهم آمنوا بمحمد ﷺ خاتم النبيين

والمرسلين، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

وفي الحديث (إتيان يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم

آمن بي - أي عندما بلغته الدعوة المحمدية- فله أجران.

ورجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها ثم أعتقها فتزوجها فله

أجران.

٢- التقوى: أي اتقوا ما هم غارقون به من معاصي وآثام وتابوا إلى الله توبة نصوحاً.

٣- بركات الإيمان والتقوى: لوجدوا بركات الإيمان والتقوى بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات النعيم ووجدوا بركات ذلك في الدنيا بسعة الرزق وإصلاح الأحوال والسعادة في الدارين وهذا ما بينه الله تعالى في الآية التالية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّبِّ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^٤﴾ أي رزقوا من كل سبيل وفي سورة الأعراف ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف/٩٦] وفي سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٠٣﴾﴾ [نوح/١٠١-١٠٣].

وقفه عند معاني الآية:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّبِّ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^٤ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ إقامة الشيء جعله قائماً واستعيرت الإقامة لعدم الإضاعة، لأن الشيء المضاع يكون ملقى مهملاً غير قائم وإقامة التوراة والإنجيل العمل بهما على

أقوم الوجوه وأحسنها: سواء فيه عمل النفس، وهو الإيمان والإذعان، وعمل الجوارح، أي لو أقاموا ما في التوراة والإنجيل المنزّلين المبشّرَيْن بالنبى الذي يأتي من أبناء أخيهم إسماعيل، كما قال موسى عليه السلام وكما قال عليه السلام: (البارقليط روح الحق الذي يعلمهم كل شيء).

وأقاموا بعد ذلك ما أنزل إليهم من رهم على لسان هذا النبي الذي بشرت به كتبهم، وهو الفرقان الذي أكمل الله به الدين - لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرقوا بين رسل الله وكتبه - لوسع الله عليهم ببركة الإيمان والطاعة ما يهتمهم من موارد الرزق، فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الأرض، وتمتعوا بما وعد الله به هذا النبي وأمته من سعة الملك وقيام العدل وانتشار الأمن وحفظ كرامة الإنسان. المنار/ الآية.

إنصاف القرآن لأهل الكتاب:

ومن إنصاف القرآن لأهل الكتاب أنه لم يعمم عليهم الحكم بالفساد، واستثنى الصالحين منهم فقال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين، لا تغلو بالإفراط، ولا تهمل بالتقصير.. ولكنهم كانوا من القلة في العدد، والعمل العام، والتأثير في المجتمع، ما أدى إلى غلبة طوفان الباطل وفي هذا ورد قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الآية تنبه القلة الصالحة أن تعمل وسعها وألا تقف مكتوفة الأيدي أمام الفاسدين المفسدين في الأمة حتى لا يهلكوا جميعاً. قال رسول الله ﷺ في إجابته لمن سأله: (أهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم: إذا كثرت الخبث) وفي الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا﴾

فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿[الأنفال/٢٥].

رسالة الله الخاتمة ورسول الله المنقذ:

وبعد ذكر دعوة القرآن الكريم لأهل الكتب السابقة، والتذكير بما أصابها من تحريف وتبديل، وما أصاب أممهم من عذاب إلهي وتنكيل، وما ينتظر بعدها من حملات ظالمة على الإسلام ونبيه يقوم بها الظالمون والحاسدون، جاء الخطاب الإلهي للرسول ﷺ أن يبلغ الرسالة بقوة وتوكل على الله الذي يحميه ويرعاه فقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾.

قال الإمام الرازي بعد أن ذكر روايات في تفسيرها: «إن هذه الروايات وإن كثرت فإن الأولى حمل الآية على أن الله آمنه مكر اليهود والنصارى، لأن ما قبلها وما بعدها كان كلاماً مع اليهود والنصارى فجاءت هذه الآية في مكانها المحكم في الكتاب المحكم من لدن حكيم عليم.

وفي هذه الآية دعوة للعلماء ورثة الأنبياء أن يبلغوا رسالة الله وألا يضعفوا في مواجهة خطط اليهود والنصارى التي تسعى لإبعاد الإسلام عن التربية والتعليم، والتوجيه، والإعلام، والقانون، والأسرة والمجتمع.

وقفه عند معاني الآية:

١- ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة / ٦٧]. أعيد

افتتاح الخطاب له بوصف الرسول المُشعِرِ بمنتهى شرفه، إذا كانت واسطة بين الله وخلقه، والمذكر له بالأعراض عمن سوى من أرسله.

٢- وقد كان الخطاب الأول للنبي ﷺ في هذه السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا

الرَّسُولُ لَا تَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ تَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة/٤١].

فثبت الله قلب نبيه ألا يهتم بمكائد أعدائه، وجاء الخطاب الثاني: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ

بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ليعطيه القوة لتبليغ

رسالة الله كاملة، وألا يخشى في تبليغها لومة لائم، فحذره من ملاينتهم في إبلاغهم شريعة الله وأحكامه ولو خالفت آراءهم وأهواءهم، ثم عقب ذلك أيضاً بتثبيت قلبه

﴿بأن لا يهتم بكيدهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وأن كيدهم

مصروف عنه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فالتبليغ المأمور به على

هذا الوجه تبليغ ما أنزل إليه من القرآن في أحكامه التي قد يخالفها اليهود وغيرهم من الذين حرّفوا كتب الله، وأن يبلغ ما أنزل من القرآن في تقرير أهل الكتاب وكشف ضلالهم وتحريفهم، والتبليغ جعل الشيء بالغاً، والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرسالة للمرسل بما إليه من قولهم: بلغ الخير وبلغت الحاجة والمراد من الآية الأمر بالتبليغ العام بكل ما نزل عليه من القرآن، والتبليغ الخاص في المتعلق بالآيات التي تنزل عليه، فتبلغها ساعة نزولها، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها، ويقرأها على المسلمين في الصلاة، وفي تبليغ الأحكام، وفي محاورة أهل الكتاب، وفي ما تدعو إليه الحاجة أو قبله، ولذلك كان الرسول ﷺ يقرأ القرآن على الناس عند نزول الآية ويأمر بحفظها عن ظهر قلب، وبكتابتها، ويأمر الناس بقراءته وبالاستماع إليه، وكان أيضاً يأمر السامع مقالته بإبلاغها من لم يسمعها مما يكفل ببلوغ الشريعة كلها للأجيال من الأمة (التحرير/ الآية).

﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهنا نلفت النظر لما يلي:

١- وفي الإتيان بضمير المخاطب في قوله: ﴿إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إيماء عظيم

إلى تشريف الرسول ﷺ، بمرتبة الوساطة بين الله والناس، بتبليغ الرسالة، إذ جعل الإنزال إليه، ولم يقل إليكم، أو إليهم، وفي تعليق الإنزال بأنه من الرب تشريف للمنزل (التحرير/ الآية).

٢- وفي الإتيان بلفظ (الرب) هنا دون اسم الجلالة لما في التذكير بأنه ربه، من

معنى كرامته، ومن معنى ما أراد إبلاغه، والتعجيل والحث على تناوله والعمل بما فيه.

٣- وقد دلت الآية على أن الرسول مأمور بتبليغ ما أنزل إليه كله، بحيث لا يتوهم أحد أن رسول الله ﷺ قد أبقى شيئاً من الوحي لم يبلغه، لأنه لو ترك شيئاً منه لم يبلغه، لكان ذلك مما أنزل عليه، ولم يقع تبليغه، وإذا كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، علمنا أن من أهم مقاصدها أن الله أراد قطع تحرخص من قد يزعمون أن الرسول استبقى شيئاً لم يبلغه، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للناس عامة. فهي أقطع قول لإبطال قول الرافضة بأن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأن رسول الله اختص بكثير من القرآن علي بن أبي طالب وأنه أورثه أبناءه، وأنه يبلغ وقر بعير، وأنه اليوم محتزن عند الإمام المعصوم الذي يلقبه بعض الشيعة بالمهدي المنتظر وبالوحي (التحرير/ الآية ٦/٢٦٠).

٤- وفي قوله: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جاء الشرط بأن

التي شأها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط، لأن عدم التبليغ غير مضمون بمحمد ﷺ وهو النبي الأمين المعصوم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وإنما فرض هذا الشرط ليبيّن عليه الجواب، وهو قوله: (فما بلغت رسالته) ليكون درساً للذين يرجون أن يسكت رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين، وليبيّن من علم الله أنهم يفترون، فيزعمون أن قرآناً كثيراً لم يبلغه رسول الله ﷺ لأمته. (التحرير/ الآية).

٥- ومعنى (لم تفعل) أي لم تفعل ذلك، وهو تبليغ ما أنزل إليك. ومعنى ترتب هذا الجواب على هذا الشرط، أنك إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليكم فتركت بعضه، كنت غير مبلغ للرسالة، لأن كتم الشيء مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ.

٦- ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ افتتح باسم الجلالة للاهتمام به، وفي

هذا النص الكريم وثيقة تأمين إلهية للنبي الكريم بعد أن أمره الله بتبليغ ما أنزل إليه من

ربه، وما يتوقع من أذى الأعداء وعتتهم، وتكالبهم عليه، فوجه الله نبيه أن بلغ رسالتي، وهذا ما عليك، وأما ما علينا، فأن نعصمك ونحيطك بحفظنا ورعايتنا، والعصمة هنا الحفظ والوقاية من كيد أعدائهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لتبين هوية أعداء النبي ﷺ ورسالته

من الناس، وهم كفارهم، والمراد بقوله: (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) إن الله لا يسدّد أعمالهم ولا يتم لهم مرادهم، فهو وعد لرسوله ﷺ بأن أعداءه لا يزالون مخدولين لا يهتدون سبيلاً لكيد الرسول ﷺ والمؤمنين لطفاً منه تعالى، وليس المراد الهداية في الدين لأن السياق غير صالح له (التحرير/ الآية).

تبليغ أهل الكتاب ومكاثفتهم:

وبعد الأمر بالتبليغ جاء قوله تعالى داعياً أهل الكتاب ومبيناً لهم حقيقة الدين:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا

أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم

عن الله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعتدّ به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى

موسى وعيسى والنبين، حتى تقيموا التوراة والإنجيل، فيما دعيا إليه من التوحيد

الخالص، والعمل الصالح، وفيما بشرنا به من بعثة النبي ﷺ، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن

رَبِّكُمْ﴾ على لسان النبي الكريم وهو القرآن المجيد، فإنه هو الذي أكمل به دين الأنبياء

والمرسلين على حسب سنته تبارك وتعالى بهداية خلقه بما يتناسب مع استعداداتهم وتغير

أحوالهم فأنزل الشريعة الكاملة الخاتمة متفقة مع رشد البشرية وبلوغها رحلة النضج العقلي، لإصلاح أحوالها.

وقد أومأت هذه الآية إلى توغل اليهود في مجانبة الهدى، لأنهم قد عطلوا إقامة التوراة منذ عصور قبل عيسى عليه السلام، وعطلوا إقامة الإنجيل إذ أنكروه، وأنكروا من جاء به، ثم أنكروا نبوة محمد ﷺ، فلم يقيموا ما أنزل إليهم من ربهم.

طغيان أهل الكتاب وحسداهم:

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا

وَكُفْرًا﴾ أي من أهل الكتاب، وذلك إما بباعث الحسد على مجيء هذا الدين، ونزول

القرآن ناسخاً لدينهم، وإما بما في بعض آيات القرآن من قوارعهم وتفنيدهم مزاعمهم،

ويتميزون غيظاً ومكابرة وترى من يحمل الألقاب العلمية منهم، يختفي وراءها،

ليتصاغر إلى أحط درجات المكابرة والعناد والتجاهل، محاولاً الإساءة للنبي الكريم

والكتاب العظيم الذي أنزل إليه، وقد سمى الله فعلهم وكيدهم ﴿طُغْيَانًا﴾، لأن

الطغيان هو الغلو في الظلم، واقتحام المكابرة مع عدم الاكتراث بلوم اللائمين من أهل

اليقين.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم لأنهم قوم تمكن

الكفر منهم، لأنهم ما كانوا على إيمان صحيح بالله وبالرسل، ولا على عمل صالح مما

تُهدي إليه تلك الكتب، وإنما كان أكثرهم على تقاليد وثنية، وعصبية وأعمال فاسدة.

في الآية عظة للمسلمين:

وهذه الآية تنادي المسلمين ألا يقفوا فيما وقع به أهل الكتب السابقة وأن يعلموا أنهم لا يكونون على شيء يعتد به من أمر الدين، حتى يقيموا القرآن وما أنزل إليهم من ربه فيه ويهتدوا بهدأته، لتكون شريعة القرآن هي المصدر الوحيد للتشريع في جميع القوانين والتشريعات، وفي التوجيه والإعلام، وفي التربية وبناء الفرد والأسرة والمجتمع.

ولما كان الانتساب إلى الدين لا يتحقق بالمظاهر واللافئات والأعياد والمناسبات، وإنما يتحقق بإقامة كتابه، والحكم بشريعته وتعظيم شعائره، والمحافظة على أصوله ومقاصده للحكم بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة.

ولهذا جاءت الآية التالية مؤكدة لما سبق طلب من أهل الكتاب من إقامة التوراة والإنجيل، وذلك بإحياء روح الدين وحقيقته إيماناً وعملاً وعدم الوقوف عند الأشكال والصور الظاهرة الخادعة، فقال تعالى:

حقيقة الدين بالإيمان والعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة / ٦٩.

وتظهر مناسبة هذه الآية لما قبلها لبيان أن أهل الكتاب، وقد طال عليهم الأمد، فقسست قلوبهم، وابتعدوا عن حقيقة التوحيد الخالص، والإيمان الحي الفاعل كانوا أحوج لهداية القرآن لينقذهم، وبين لهم طريق السعادة والفلاح بالانتقال من مظاهر الانتساب القومي أو الطائفي للدين: لحقيقة الدين إيماناً وعملاً صالحاً، وهذا ما نفهمه

من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم المسلمون والمؤمنون برسالة محمد ﷺ،
 ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ جمع صابئ، وهو الخارج من
 دين إلى دين، والمراد بهم قوم يعبدون الملائكة أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين
 صابئ بن شبت بن آدم، ولا تزال بقية منهم تعيش في العراق ﴿وَالنَّصْرَى﴾ جمع
 نصران بمعنى نصراني. كل أصحاب هذه الأديان لا ينجيهم عند الله إلا الإيمان الصادق
 بالإسلام وكتابه ونبيه، والتزام منهجه وشرعه هداية وعملاً صالحاً، فأما المسلمون
 فيزدادون إيماناً وثباتاً وتمسكاً ودواماً على هذا الدين، وأما اليهود والصابئون
 والنصارى، فمخاطبون بالانتقال لدين الإسلام ومفارقة أديانهم الباطلة التي نسخها
 القرآن الكريم، وأن يغسلوا قلوبهم من العصبية الجنسية والإقليمية والمذهبية والدينية
 التي أبعدهم عن الدين الحق، كما أبعدهم عن جوهر الدين وحقيقته المزكية للنفوس
 من الشرك والرجس والفواحش والمعاصي التي انتشرت في المجتمعات الرومانية
 والفارسية والجاهلية العربية قبل عهد الرسالة، وعادت من جديد في المجتمعات الغربية
 التي يدين أكثر أهلها بالنصرانية وأصبحت الديانة صورة بلا روح، وما عادت الكنيسة
 قادرة على إصلاح المجتمع، ولا على رفع الفساد عن كثير من رهبانها ورجال دينها.
 فالذين هادوا والصابئون والنصارى في الآية هم قوميات أخذت هذه الأسماء،
 والدين بالنسبة إليهم عصبية جنسية وإقليمية، ولذلك كانت دعوتهم إلى الدين الحق،
 ليس إقراراً لهم على هذه الأديان أو اللاتفات التي يجتمعون تحت ظلها وإنما هي دعوة
 لهم ومخاطبة لهم من خلال الأسماء والعناوين الدينية التي يعرفون بها.

وقفة عند كلمة ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾:

والرفع في كلمة (والصابئون) وكان المتبادر أن يكون منصوباً معطوفاً على اسم
 (إنّ) المنصوب هو نكتة بلاغية، وهي تنبيه الذهن إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب،

وكان حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الإيمان الصحيح والعمل الصالح، الذين تتزكى بهما النفوس، وتستعد لإرث الفردوس.

ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين بهذه الآية، وكان الصابئون غير مظنة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السماوية، حسن في شرع البلاغة أن ينبه إلى ذلك بتغيير منسق الإعراب، فمثل هذا التغيير لا يعد فصيحاً إلا في مثل هذا التعبير، وهو ما كان لتغيير إعرابه وإخراجه عما يماثله، صفة خاصة يحسن التنبيه إليها، وهي قاعدة عامة في قواعد البلاغة العربية. (المنار/الآية).

وللشيخ ابن عاشور توضيح جيد هنا هو قوله: «من الشائع في كلام العرب، أنه إذا أتى بكلام مؤكد بحرف (إنّ) وأتى باسم إن وخبرها، وأريد أن يعطفوا على اسمها معطوفاً هو غريب في ذلك الحكم، جيء بالمعطوف الغريب مرفوعاً ليدلوا بذلك على أنهم أرادوا عطف الجمل، لا عطف المفردات، فيقدر السامع خيراً يقدره بحسب سياق الكلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة/

٢]، أي ورسوله كذلك، فإن براءته منهم في حال كونه من ذوي نسبهم وصهرهم أو كالغريب. لظهر منهم أن أصرة الدين أعظم من جميع تلك الأوامر، وكذلك هذا المعطوف هنا لما كان الصابئون أبعد عن الهدى من اليهود والنصارى في حال الجاهلية قبل الإسلام، لأنهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحقق لهم النجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، وكان الإتيان بلفظهم مرفوعاً تنبيهاً على ذلك. (التحرير ٦/٢٧٠-٢٧١).

وهنا نعرف إعراب كلمة (وَالصَّابِئُونَ) وأنه مبتدأ خبره محذوف، والتقدير:

والصابئون كذلك، من باب عطف الجمل لا عطف المفردات.

اجتراء بني إسرائيل على الدعوة والرسول والعلماء:

إن من أخطر ما يهدد أمة اجتباها الله برسالته ورسله بالهلاك أن تخون الرسالة والرسول، وتنقض عهد الله وميثاقه، وأن تضيق ذرعاً بالدعوة والدعاة فتنصب لهم المشانق، وتفتح لهم أبواب السجون، وتنكل بهم، وكان تاريخ بني إسرائيل الذين منّ الله عليهم بالرسالة والملك والاستقلال والتحرير من ظلم فرعون وطغيانه، ثم خرجوا عن هداية الله، وأقدموا على قتل الأنبياء والعلماء، فعاقبهم الله بزوال ملكهم، وضرب الذلة والمسكنة عليهم، كان هذا التاريخ صورة حية ناطقة تدعو المسلمين الذين أكرمهم الله بالرسالة الخاتمة، والرسول النبي الخاتم للأنبياء والرسول، لأخذ الدروس والعبر، ومنها:

- ١- استهانة ملوكهم وأصحاب الحكم بالشرعية وأحكامها، وفرض قبضتهم الحديدية الظالمة على الدعوة والدعاة، حتى لا يخرجوا من الدائرة التي رسمها لهم الحكام الظالمون في فتاواهم، وفي أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.
- ٢- إقامة المحاكم الظالمة لإصدار أحكام الإعدام على الأنبياء والعلماء والقادة المصلحين الذين يخرجون عن هوى الحاكم، وتوجيهاته.
- ٣- توجيه الإعلام المنحرف لتكذيب الأنبياء والعلماء الصالحين، ولصرف الأمة عن هداية شريعة الله.

وقد لفت الآيات الكريمة الأنظار لهذه الجرائم التي أهلكت بني إسرائيل من خلال التدبر بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة/٧٠].

وفي سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة/٨٧-٨٨].

ومع هذا النص الكريم نقف عند النقاط التالية :

١- ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ والميثاق هو العهد الموثق المؤكد،

وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم، و (بعد) المفيدة للتحقيق، والمعنى: أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم، وقيموا شرع الله وأحكامه التي جاءهم بها أنبياءهم ورسولهم.

٢- ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا ﴾ ذوي عدد كثير، وأولى شأن وحجة، لكي

يتعهدوهم بالتبشير، والإنذار، ولكي يرشدوهم إلى أحكام الله في أمور حياتهم.

٣- ولكن بني إسرائيل حكاماً وشعباً، كذبوا الرسل الذين جاؤوا لهدايتهم ولم

يؤمن بهم إلا قلة، وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام.

وعملوا على إطفاء نور الرسالة، وصار رجال الدعوة من الأنبياء والعلماء

والمصلحين، بين حكام ظالمين فجرة، لا يطبقون صوت داعية يخالف أهواءهم، وما

رسموه لشعوبهم من أسباب الفجور والعصيان، وبين شعب متفرج يائس من الإصلاح،

أو مجار للظالمين، وغارق في أهوائهم وشهواته، حتى إذا قام العلماء المصلحون ورفعوا

أصواتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال لهم الناس، أربعوا على أنفسكم،

صرخة في واد، ونفخة في رماد، ما عادت تصلح المواعظ، وقد قست القلوب، وصمت الآذان، وعميت الأبصار.

فقال العلماء الربانيون: (نحن نقدم العذر إلى الله، أنا ما سكتنا على المنكرات ولا تركنا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحين نزل عذاب الله ما نجا منه إلا الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، وهلك الآخرون.

٤- وهذا ما نبهنا ربنا إليه في سورة المائدة، وفي سور الأعراف والإسراء

والبقرة وغيرها، ففي سورة المائدة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَأَلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

[المائدة/٧٠-٧١].

وفي سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي

الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٦١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۗ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿١٦٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٦٣﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۗ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۗ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
 أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَعَجَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ [الإسراء: ٤-٨].
 والأعراف: ﴿وَإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
 مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۗ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١١٤﴾ فَلَمَّا
 نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَهَجَيْتُمُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
 ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّ
 عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ
 إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
 الْعِقَابِ ۗ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِّنْهُمْ
 الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ ﴿١١٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ
 هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۗ أَلَمْ
 يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا
 فِيهِ ۗ وَالَّذَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾ وَالَّذِينَ
 يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٠﴾

ويتدبر هذه الآيات الكريمة نجد ما يلي:

١- التعبير بقوله: ﴿ كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ

فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ وبقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا

تَهْوَىٰ أَنفُسَكُمْ أَتَكْبِرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة/٨٧]، يضعنا

أمام تاريخ بني إسرائيل في حرب الدعوة والدعاة، فأمرهم يدور بين أمرين، إما التكذيب للدعاة، والاستهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق

أرواحهم الشريفة، وفي قوله تعالى: ﴿ أَتَكْبِرْتُمْ ﴾ ما يصور لنا الاستكبار المدعوم

بالحديد والنار تستعمله السلطة الظالمة لحرب الدعوة والدعاة وشرعية الله.

عمى الأمة وسممها عن الأخطاء وأسباب الدمار:

٢- والتعبير بقوله: ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ما يصور لنا الغرور، والجهل الذي

أصاهم فمن شأن المصائب التي تحل بالأمة أن تذكرها بالله والتوبة إليه، ولكن

الاستكبار وغلبة الهوى يعمي القلوب، ويصم الأذان عن سماع كلمة الحق، ورؤية

الأخطار، أي فعموا عن آيات الله في كتبه الدالة على عقاب الله للأمم المفسدة الظالمة،

وعن سننه في خلقه المصدقة لها، وصموا عن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل،

وأندروهم بها عقاب الله لمن نقض ميثاقه... فلما عموا وصموا وانهمكوا في الظلم

والفساد، سلط الله عليهم نبوخذ نصر وجيشه، فجاسوا خلال الديار، وأحرقوا

المسجد الأقصى، ونهبوا الأموال، وسبوا الأمة وسلبوها الملك والاستقلال، ثم رحمهم

الله تعالى وتاب عليهم وأعاد إليهم ملكهم وعزهم، ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا

إلى ظلمهم وإفسادهم في الأرض، وقتل الأنبياء بغير حق، فسلط الله عليهم الفرس، ثم الروم فأزالوا ملكهم واستحلّاهم.

الانحراف والجهل والغرور:

ويضعنا القرآن على سبب الغواية والهلاك بقوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ أي ظنوا ظناً تمكن من نفوسهم، فكان كالعلم في قوته أنه لا توجد ولا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد والاجترار على شريعة الله بالتعطيل والمخالفة وعلى الأنبياء والعلماء بالتقتيل، أقول: وما أشبه حال بني إسرائيل هذه بحال العرب والمسلمين الذين عطلوا شريعة الله، وحكموا القوانين الأجنبية في بلادهم، وحاربوا الدعوة والدعاة بالقتل والسجن وأنواع التنكيل، وظنوا ظناً قوياً ولم يكن في حسابهم ولا علمهم أن يأخذهم الله بذنوبهم فكانت نكبة الأمة على أيدي حكامها المعطلين لشرع الله / عام ١٩٤٨، وكان هذا داعياً لهم ليتوبوا ويرجعوا إلى الله حكاماً وشعباً، ولكنهم صدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ حتى وقعت النكبة الكبرى عام ١٩٦٧ التي أضعوا فيها بقية فلسطين ووقع المسجد الأقصى في أسر اليهود بعد أن قتلوا العلماء الدعاة ونكلوا بهم، وحاربوا دين الله، وعطلوا شرعه، وأبعدوا اسم الله عن المعركة، ووزعوا على الجنود مائة ألف صورة للممثلين والممثلات!!

الإعلام الخادع:

وإعلام الظالمين حريص بعد كل نكبة، وفتنة تحل بالأمة، ألا يربطها بأسبابها الحقيقية وهي حربهم المعلنة على الله ورسوله ودينه وشريعته، ولو ربطوها بأسبابها الحقيقية لعالجوا أسباب الدمار والهلاك والتخلف السياسي والجهادي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي الذي مكن لأعداء المسلمين في بلاد المسلمين، ولكن هؤلاء الحكام صناع الهزائم الذين يخدعون شعوبهم بالانتخابات المزورة، وبالإنساند الأجنبي

لهم، حريصون على أن تبقى الشعوب في عماية وضمم عن أسباب النكبات التي تحل بالأمة على أيديهم، ويفتحون للناس أبواب اللهو والغواية ليغرقوهم بها، وليخدروهم عن الإحساس بجراحهم، وشؤم مستقبلهم على أيدي المستعمرين وأتباعهم وتمكن صناعة الإعلام المرتبطة بالمستعمرين ومن يسندوهم في حكم المسلمين من إحكام أغطية الخداع والتضليل على عيون وأسماع الناس حتى لا يستيقظوا ولا يتحركوا للدفاع عن دينهم وأوطانهم ومقدساتهم وإصلاح أحوالهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ ما يبين أن عمى

البصيرة والختم على السمع لم يكن عامًّا مستغرقاً لكل فرد من أفرادهم، وإنما كان هو الكثير الغالب عليهم، وإنما يعاقب الله الأمم بالذنوب إذا كثرت وشاعت فيها، لأن العبرة بالغالب، والقليل لا تأثير له في الإصلاح أو مقاومة الفساد العام، إذا لم يكن

منظماً يجمع الأمة على نصرته، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال/٢٥]. وهذا

هو الواقع وعلته ظاهرة وحكمته باهرة (١).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ما يبصرنا بما يفعله أعداء

رسول الله من اليهود في عهد النبوة، وبما يفعله أعداء شريعة الله ورسوله في عصرنا من الكيد والمكر ومحاربة هذا الدين، صموا عن سماع آيات الله، وعموا عن رؤية المواعظ والقوارع والنكبات، واجترأوا على الدعوة والدعاة فجرّوا الأمة إلى المهالك حتى طمع بها أعداؤها، واحتلوا أوطانها، وطالبوا الحكام الذين يساندوهم برسم هوية أبناء

المسلمين كما يريد أعداؤهم ووضعوا لهم برنامجاً مدروساً للمدارس والجامعات والإعلام والتطبيع وهم في عماية عن أمر الله وصمم عن آياته، والله بصير بما يعملون. وفي قوله تعالى في سورة الأعراف ما يبين لنا هذه العماية والصمم، بقول أمة من بني إسرائيل لمن تصدوا لمقاومة الفساد: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا^٧ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا^٨ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف/١٦٤].

... فهؤلاء المعارضون على الدعاة وحجتهم أن صوتهم غير مسموع، وأن مصير العصاة أصبح واضحاً وهو الهلاك أو العذاب الشديد.

ويصف الله لنا ما أصاب بني إسرائيل بسبب اجترائهم على دين الله وتعطيلهم لأحكامه بعقوبات ثلاث: أولها أصاب الهوية وطمس معالم إنسانيتهم ﴿فَلَمَّا عَتَوْا^٩ عَن مَّا نُبِئُوا^{١٠} عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

وهذا الطمس للهوية هو مطلب الدول الأجنبية من حكام المسلمين أن يفرضوا عليهم حضارتهم وأخلاقهم وإباحيتهم وأن يعلموهم كيف يفرحون ويرقصون على طريقتهم.

وثانيها: ما أصابهم من عذاب وإذلال على يد أعدائهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ^{١١} رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ^{١٢} عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ^{١٣} إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ^{١٤} وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف/١٦٧].

وثالثها: تقطيعهم في البلاد، وتشريدهم في أنحاء الأرض.

ووصف الله ما بقي من معالم الدين عند بني إسرائيل في ظل هذا التقطيع

والتشريد فقال: ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ^{١٥} وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنْ^{١٦}

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴿١﴾ فحال بني إسرائيل كحال كثيرين ممن ينتسبون للإسلام لم يعودوا يملكون الرابطة الإيمانية الهادية التي توحدتهم، فتقطعوا إلى شيع وأحزاب، منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، منحطون عن مرتبة الصلاح، غارقون في سموم أهوائهم وشهواتهم ودنياهم، والدين بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء صورة بلا روح، وعنوان بلا مضمون، ورثوا الكتاب وراثه اسم وعنوان، لا وراثه هداية وعمل وإحسان، ولذلك يأخذون عرض هذا الأدنى من شهوات الأرض، ويزين لهم انحرافهم وعقائدهم الباطلة أن مجرد انتسابهم لاسم الدين سيكون سبباً في مغفرة الله لهم ودخولهم الجنة وهذا ما حذرنا الله منه بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة/٧٨]. وبقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء/١٢٣] وبقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة/١١١].

تصحيح عقائد النصارى:

وبعد أن ذكر الله انحرافات بني إسرائيل انتقل لبيان حال النصارى فقال

عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أكد تعالى بالقسم كفر قائل هذا القول من النصارى، إذ غلوا في إطراء نبيهم المسيح بن مريم عليه السلام غلواً ضاهوا به غلو اليهود في الكفر به وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً، ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم، ومن عدل عنها إلى التوحيد يعد مارقاً من دينهم، ذلك بأنهم يقولون: إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (أقانيم) وهي الآب، والابن، وأقنوم الحياة وهو روح القدس، ويقولون إن المسيح هو الابن، والله هو الآب، وإن كل واحد من الثلاثة عين الآخرين، فينتج ذلك أن الله هو المسيح، وأن المسيح هو الله - بزعمهم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه العقيدة الباطلة هي التي فرضها الملك الروماني على النصارى بالحديد والنار (راجع محاضرات النصرانية للشيخ أبو زهرة) (١).

عقيدة التثليث وثنية الأصل والمنشأ:

وهذه العقيدة جزء من عقيدة التثليث المأخوذة عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنيي الشرق والغرب، وقد وجه القرآن الكريم إلى نقضها في كثير من آياته ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَفَاعِلُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۚ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ

(١) محاضرات في النصرانية / للشيخ محمد أبو زهرة .

يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ
يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿

[النساء/١٧١-١٧٢].

دلائل الوحدانية والعلم الحديث:

١- التقدم العلمي العظيم الذي حصل في القرن الماضي كشف لعلماء الفلك أن النظام الكوني وحدة مترابطة، كأجزاء الساعة، تحكم بأن صانعها واحد، وخالق هذا الكون واحد، لأن ارتباط الشمس والقمر والنجوم والأرض وسائر الكواكب بنظام قدر المسافات بينها ولو اختلفت المسافات لفسد نظامها كله، وقدّر أحجامها، ولو اختلفت لفسد نظامها كله.. وقدّر حركتها وسرعتها وصفاتها ولو اختلفت اختلافاً يسيراً لانفرط عقدها، وهلك الأحياء جميعاً، وفي هذا النظام دلالة واضحة، أن لهذه المخلوقات المترابطة بنظام محكم في غاية الدقة والإحكام إلهاً واحداً خالقاً عليمًا حكيمًا، وضع لها سننها وقوانينها. وأحكم تدبير سيرها، واستمرارها عبر القرون والأزمات.

٢- والدارس لمنجزات علماء الحياة الإنسانية، والنباتية، وسائر أنواع المخلوقات الحية في البر والبحر يجد أنها في نظام حياتها وعيشها يحكم كل صنف منها قانون واحد وسنة واحدة مما يدل على أن خالقها واحد، وأن حاجة هذه الأحياء بعضها لبعض، يدل على أن خالقها جميعها هو الله وحده الذي خلق الأرض، وقدر فيها أقواتها، وحاجات أهلها.

٣- وبعد ذلك يعجب الإنسان، من عقول ترى بأن هذا الإله العظيم الواحد، قد انقسم وتعدد، فناقضوا الوحدانية، وتخلّى عن إلهيته ليصلب فناقضوا الإلهية، وأن

رب السموات والأرض ومن فيهن، وما فيهن، تكوّن في رحم امرأة وتغذى من دمها
وخرج مخرج بقية الناس من أرحام أمهاتهم ولقي من أعدائه سوء العذاب!!

فكيف يتخلى الإله الحي عن حياته ليصلب!!؟

وكيف يتخلى الإله الحي القيوم عن قيامه بأمر السموات والأرض والكون كله،

حين دقت المسامير جسده على خشبة الصلب!!؟

وكيف يتخلى الإله العزيز الغالب القهار الجبار عن عزته وقهره وقوته وغلبته

حين ساقوه إلى تنفيذ حكم الصلب والإعدام!!؟

إن الإيمان بأن الله هو ربنا، ورب السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه

يقتضي أن نؤمن بأن الذين نصبوا المحكمة للمسيح عليه السلام، حكاماً وقضاة، وبأن

الجنود الذين ألقوا القبض عليه، هم عبيد لله، وفي ملكه وقبضته، وتصرفه، وأن الإيمان

بعقيدة الصلب كما توردها الأناجيل المحرفة المتناقضة، تعني أن العبد الضعيف صار

مالكاً متصرفاً بملك السموات والأرض يقتله ويصلبه وهو يستنجد ويتألم ويستغيث،

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً!!

وهنا يحسن التذكير بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ

شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام/١٦٤].

فآية الكريمة تعلم النبي الكريم ﷺ أن ينكر على المشركين أن يتخذوا رباً غير

الله وهو رب السموات والأرض، ورب كل شيء.

وفي هذه الآية رد على عقيدة النصارى الذين يقولون بأن المسيح صلب ليفدي

البشرية من خطيئة آدم عليه السلام، ووجه هذا الرد أن عدالة الله تأتي أن تأخذ الولد

بذنب الوالد، وهذا ما يفيد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿ والمعنى أن كل نفس رهينة بعملها لا يتعداه إلى غيرها، ولا تحمل نفس وزر وإثم نفس أخرى.

ويحسن هنا أن نقف وقفات قصيرة عند معاني بعض الآيات فمنها قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وقد أفادت الجملة قصر المسيح عليه السلام على صفات ثلاث: صفة

الرسالة، وصفة كونه كلمة الله ألقيت إلى مريم، وصفة كونه روحاً من عند الله، فالقصر قصر موصوف على صفة، والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوهم في هذه الصفات غلوّاً أخرجها عن كنهها؛ فهذه الصفات ثابتة لعيسى عليه السلام، وهم مثبتون لها، فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها، لكنهم تجاوزوا الحد المحدود لها، فجعلوا الرسالة النبوة!!، وجعلوا الكلمة، اتحاد حقيقة الإلهية بعيسى في بطن مريم، فجعلوا عيسى ابناً لله، ومريم صاحبة لله - سبحانه - وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهية. والقصر إضافي وهو قصر أفراد أي عيسى مقصور على صفة الرسالة والكلمة والروح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يزداد على تلك الصفات من كون المسيح ابناً لله، واتحاد الإلهية به، وكون مريم صاحبة - ومعنى (وكلمته) - أنه أثر كلمة الله (كن)، وليس هو بكلمة، ولكنه تعلق قدرة الله التي ألقاها إلى مريم وأوصلها إليه، فالكلمة هي التكوين، وهو المعبر عنه بالاصطلاح بـ (كن)، فإطلاق الكلمة على التكوين مجاز، ووصف عيسى بذلك لأنه لم يكن لتكوينه التأثير الظاهر المعروف في تكوين الأجنة فكان حدوثه بتعلق القدرة. ومعنى ﴿وَرُوحٌ

مِّنْهُ﴾ أن عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى بلا نطفة، ولا واسطة بشر،

ونسبها إلى الله للتكريم وللتعريف بالمعجزة التي خلق الله فيها عيسى بلا أب، كما

خلق آدم بلا أب ولا أم، والله ينسب إليه بعض مخلوقاته لحكم ينيه إليها، كما نسب البيت العتيق إليه ونسب ناقة صالح إليه، فقال: ناقة الله، وبيت الله^(١).

ووصف عيسى بأنه (روح منه) أي إن روحه من جنس الأرواح التي هي عناصر الحياة، لكنها نسبت إلى الله لأنها وصلت إلى مريم بدون تكون في نطفة فهذا امتياز عن بقية الأرواح، ومعنى (روح منه) أي روح مبتدأ من جانب الله تعالى وخلقه بغير واسطة^(٢).

وقيل: الروح النفخة، والعرب تسمي النفس روحاً والنفخ روحاً.

تفنيد شبهة:

وللسائل أن يقول: ما الحكمة أن يأتي القرآن بهذين الوصفين للمسيح {روح منه، وكلمته} وهلا وصف المسيح بما وصف به محمد ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ فكان أصرح في بيان العبودية وأنفى للضلال.

قال صاحب التحرير: «والحكمة في ذلك أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل، أو في كلام الحوارين وصفاً لعيسى -عليه السلام- وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلما تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرّب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما أو (فهمهما) فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي إن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح منه وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله، لا يرسل الإله إلهاً مثله ففيه الكفاية على التنبيه على معنى الكلمة والروح»^(٣).

(١) التحرير لابن عاشور / المائدة / ٧٥ / وتفسير المنار / المائدة / ٧٥ - وانظر التحرير / ٥٢ و ٥٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) التحرير والتنوير / النساء آية / ١٧١ .

تناقض العقيدة النصرانية:

وقد واجه علماء النصرانية التناقض في قولهم إن الله ثلاثة أقانيم هي: " الأب والابن وروح القدس " ثم يقولون هي إله واحد، فكيف تكون الثلاثة إلهاً واحداً؟! فالإله الواحد لا يكون ثلاثة. وحاولوا تقريب ذلك بقولهم: انظروا إلى الشمس مركبة من الجرم المشتعل، والنور والحرارة ويجاب عليهم بأن هذه أوصاف للشمس لشمس واحدة بجرمها ونورها وحرارتها ولا تشكل ثلاثة شمس.

أو يقولون انظر إلى الوردة وجرمها ولونها وعطرها. ويجدون الجواب نفسه إن هذا أوصاف للوردة ولا يقال إن اللون وردة والعطر والجرم وردة فهي أوصاف لشيء واحد .

وقد حاول أحد رجال النصرانية أن يقنع فلاحاً بسيطاً بعقيدته فقال له الفلاح بعفوية: كيف تقولون إن الله واحد ثم تقولون إنه ثلاثة، فأراد هذا الكاهن أن يقرب له الأمر فطوى ثوبه ثلاث طيات ثم بسطه وأعاده كما كان وقال له: انظر كيف كان واحداً ثم صار ثلاثاً...

فقال له الفلاح: بلغته العامية: هذا الإله "المجملك" أي غير الطبيعي بطياته وتفاجره وتعقده وعدم انبساطه لا يصلح أن يكون إلهاً فبهت الذي كفر.

ومعنى قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أن ما يعرفه الناس أنه الله، هو

مجموع ثلاثة أشياء، وأن المستحق للاسم هو أحد تلك الثلاثة أشياء فقوله ﴿ثَالِثُ

ثَلَاثَةٍ﴾ معناه واحد من تلك الثلاثة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ عطف على جملة ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾

ليبين الحق في الاعتقاد بعد ذكر الاعتقاد الباطل، فقوله: ﴿إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ يفيد حصر وصف الإلهية في واحد، فانتفى التثليث المحكي عنهم وثبتت الوحدانية لله وهذا كقوله في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ فصرح بتعيين الإله الواحد وهو الله رب العالمين.

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطف على جملة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ أي لقد كفروا كفراً إن لم ينتهوا عنه أصابهم عذاب أليم،

ومعنى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي عن قولهم المذكور آنفاً وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ

ثَلَاثَةٌ﴾ وقد جاء بالمضارع لأنه المناسب للانهاء، ومعنى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عما

يعتقدون، وأكد الوعيد بلام القسم في قوله ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ رداً لاعتقادهم أنهم لا تمسهم

النار، لأن صلب عيسى كان كفارة عن خطايا بني آدم، كما يظنون! (١).

ولما توعدهم الله أعقب الوعيد بالترغيب في الهداية لأن مقصد القرآن إنقاذ

البشرية من الضلال، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالتوبة هي الإقلاع عما هم عليه في المستقبل والرجوع إلى الاعتقاد

الحق، والاستغفار طلب مغفرة ما سلف منهم في الماضي، والندم عما فرط منهم من

سوء الاعتقاد. والله غفور رحيم يفتح باب مغفرته ورحمته لكل التائبين المستغفرين.

(١) المرجع السابق .

من خصائص التربية القرآنية أنها لا تؤله البشر:

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾.

من خصائص العقيدة الإسلامية أن تحرر العقل الإنساني من الأغلال والضلال الذي يحول الإعجاب والتقدير لشخص النبي أو الرسول إلى تأليه لهذا النبي أو الرسول، أو تأليه لهذا العالم المرئي، وقد وقع في هذا الضلال المشركون وطلبوا من النبي ما يطلب من الله من تفجير الأرض ينابيع أو يكون له بيت من ذهب، فكان جواب الرسول لهم: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء/٩٣].

وهذا ما نبهنا ربنا إليه بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران/٧٩].

والمعنى أن ثمرة العلم للعالم المعلم، والمتعلم الدارس، الربانية، وصدق العبودية والطاعة والإخلاص لله رب العالمين.

وهذا ما وجهنا ربنا تبارك وتعالى إليه في هذه الآيات: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ

مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ فهو ليس بإله ولا ابن إله، وإنما هو عبد الله مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها، وهي الإلهية، وقوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ صفة لرسول أريد بها أنه مُساوٍ للرسل الآخرين الذين مضوا قبله، وأنه ليس بدعاً في

هذا الوصف، ولا هو مختص فيه بخصوصية لم تكن لغيره في وصف الرسالة، فلا شبهة للذين ادعوا له الإلهية إذ لم يجيء بشيء زائد على ما جاءت به الرسل، وما جرت على يديه إلا معجزات كما جرت على أيدي رسل قبله، وإن اختلفت صفاتها فقد تساوت في أنها خوارق عادات ليس بعضها بأعجب من بعض فما كان إحياءه للموتى بتحقيق أن يورهم إلهيته، فإن موسى عليه السلام أحيا العصا وهي جماد فصارت حية، وقد أجرى الله على أيدي رسله من خوارق العادات، وما زعم أنه إله، وما أله قومه، وفي هذا نداء على غباوة القوم الذين استدلوا على إلهية عيسى، بما أجرى الله على يديه من خوارق العادات.

ومعنى المعجزة، وحكمة إجراء المعجزة على يد نبي من الأنبياء، تأييد الله لنبيه بهذه المعجزة، وأنه صادق، وكان هذه المعجزة تقول: صدق عبدي في نبوته ورسالته.

وجملة: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

إِلَّا رَسُولٌ﴾ والقصد من وصفها بأنها صديقة نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك وهو وصف الإلهية، والصديقة صيغة مبالغة، والمعنى المبالغة في وصفها بالصدق، فقد صدقت وعد ربهما والتزمت بمدايته، وخلصت لله بعفتها وطهرها، وصدقت بكلمات ربهما وكتبه، وكانت من القانتين.

الصديقية في المصطلح الإسلامي والتربية القرآنية:

وتصديق وعد الله، هو تصديق ميثاق الإيمان والوفاء به، وهو سر قوة المسلم وحصنه وهو يواجه الشدائد والمخاطر في سبيل الله.

فقد وصف الله نبيه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ

وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مرم/٥٤] وقد لقب يوسف بالصديق، لأنه صادق وعد ربه في

الكف عن المحرمات مع توفر أسبابها.

ووصف الله أصحاب نبيه الذين ثبتوا معه في قتال المشركين فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/٢٣] كما لقب أبو بكر بالصديق لأنه أول من صدق رسول الله ﷺ، وكان رفيقه في الغار، ونصيره بحاله ونفسه إلى أن توفاه الله.

وورد الثناء عليه بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ

أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر/٣٣].

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

وفي هذه الجملة القرآنية يوجهنا ربنا تبارك وتعالى إلى أن مريم عليها السلام وهي الصديقة، من فضليات النساء، وأما حقيقتها الشخصية والنوعية فهي مساوية لحقيقة غيرها من أفراد نوعها وجنسها، بدليل أنها كانت تأكل الطعام، وكل من يأكل الطعام، فهو مفتقر إلى ما يقيم بنيته ويمد حياته، لثلا تضعف قواه فيهلك، دع ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات، وكل مفتقر إلى غيره لا يمكن أن يكون رباً إلهاً خالقاً، ولا ينبغي أن يكون رباً معبوداً، فافتقاره إلى الطعام والشراب جعلته تحت قانون جميع المخلوقات والكائنات المفتقرة في حياتها واستمرارها إلى الغذاء، وإن من عظمة الإسلام أن يحزر العقل البشري من العبودية لغير الله، وأن يصل العقول بالأدلة الساطعة التي تفرق بين الخالق المستغني بذاته، وبين المخلوقين الفقراء إلى ما يسد حاجاتهم.

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾

والمعنى: انظر أيها الرسول، أو أيها السامع نظر عقل وفكر، كيف نبين هؤلاء النصارى الآيات والبراهين على بطلان ألوهية المسيح، ثم انظر كيف يصرفون عن استبانة الحق، والانتقال إلى الهدى! فيا للمفارقة العظيمة بين الحجج والبراهين البينات وآثارها الضائعة في عقول ونفوس هؤلاء المكذبين المؤهلين لعيسى عليه السلام.

حجة أخرى:

ويلقن الله نبيه حجة أخرى يوردها في هذا السياق ويقول: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ

مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: قل يا أيها الرسول هؤلاء النصارى وأمثالهم الذين عبدوا غير الله: أتعبدون من دون الله - أي متجاوزين عبادة الله وحده - ما لا يملك لكم ضرراً تخشون أن يعاقبكم به إذا تركتم عبادته، وترجون أن يدفعه عنكم إذا أنتم عبدتموه، ولا يملك لكم نفعاً ترجون أن يجزيكم به، إذا عبدتموه، وتخافون أن يمنعه عنكم إذا كفرتموه ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
والحال أن الله تعالى هو السميع لأدعيتكم وسائر أقوالكم العليم بحاجاتكم وسائر أحوالكم، فلا ينبغي لكم أن تدعوا غيره، ولا أن تعبدوا سواه.

رسالة القرآن تحمل منهج الدين الوسط، وتنكر الغلو في الدين:

ولما كان قول النصارى في المسيح من أشد الغلو في الدين، والمبالغة في تقديس النبي إلى درجة تأليهه، ولما كان إيذاء اليهود له وسعيهم لقتله من الغلو والحسد، والجمود على تقاليد الدين الصورية واتباع الهوى فيه، واستكبارهم على دعوات الإصلاح التي جاء بها أنبياء الله زكريا، ويحيى، وأشعيا وأقدموا على قتلهم، لما كان ذلك كله جاءت رسالة الإسلام المنقذة الهادية المصححة للعقائد المنحرفة، والغلو

والتطرف، وذلك ما بيّنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة/٧٧] وهنا لابد لنا من وقفات:

ما معنى الغلو: الغلو مصدر غلا في الأمر: إذا جاوز حده المعروف وهو الإفراط وتجاوز الحد في الأمر على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع.

فإذا كان في الدين فهو تجاوز حد الوحي المنزل إلى ما تهوى الأنفس كجعل الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، واتخاذهم لأجل ذلك آلهة يعبدون، فيُدعون من دون الله، أو مع الله تعالى سواء أطلق عليهم لقب الرب والإله كما فعلت النصارى أم لا. فمن توجه بالدعاء إلى نبي من الأنبياء أو ولي من الأولياء، أو قبره، ودعاه أن يكشف ضره، أو يقضي حاجته، فقد وقع فيما وقعت به النصارى من غلو وتجاوز لمقام النبوة إلى مقام الألوهية وخرج عن أصول الدين القطعية التي بينها نصوص القرآن والسنة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام/١٧].

ومنها حديث رسول الله ﷺ: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لا يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك...).

ومن الغلو في العبادة أن تشرع عبادات لم يأذن بها الله، لأن العبادة في الإسلام تقوم على أصليين عظيمين: ١- أن نعبد الله وحده. ٢- وأن نعبد الله بما شرع، فليس

لأحد أن يشرع عبادة، أو يحرم طعاماً أو يخصص ليلة أو يوماً بعبادة لم يأذن بها الله ويرد فيها دليل شرعي.

وقد كان علماء اليهود والنصارى يشرعون عبادات لم يأذن بها الله، ويحرمون ما لم يحرمه الله، كالطيبات التي حرمها القساوس والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم، مبالغة في التنسك، أو رياء وسمعة.

ومن المغالاة في العبادات الخروج عن المنهج الوسط فيها الذي بينه النبي ﷺ لأصحابه عندما سأل بعضهم عن عبادة النبي الكريم فكأثم تقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأقوم ولا أرقد، وقال الآخر: وأما أنا فلا أتزوج النساء، فأنكر النبي ﷺ ذلك وقام خطيباً في المسلمين، وذكر أقوال هؤلاء، وقال: وأما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم أرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.../ الحديث.

كيف نضبط الأفكار المغالية ونحفظ وحدة الأمة:

إن وحدة الأمة الإسلامية الثقافية والفكرية لا تتحقق إلا باتباع المنهج الوسط الذي شرعه الله، وتفنيد اجتهادات المغالين، أو المفرطين المتساهلين، فلهؤلاء غلوهم بالتفريط، وللمتشددين غلوهم بالإفراط، وكلا الأمرين خروج عن هداية الله ولهذا نجد الآية الكريمة تدلنا على موضع الداء في الغلو حتى لا تقع فيه وذلك بتدبر قوله تعالى:

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي غلوًا غير

الحق، وغير الحق هو الباطل، وعدل عن أن يقال باطلاً إلى (غير الحق) ليضع يدنا على سبب الغلو، وهو الخروج عن هداية الشريعة واستقامتها، وهو الحق، إلى تفريط أو إفراط اتباعاً لأهواء رجال دينهم أو رجال حكمهم، وهذا ما وجه الله تبارك وتعالى إليه نبيه ﷺ بقوله: ﴿ فَٱسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فأمره تعالى بالاستقامة، وبينها بالالتزام بالأمر الإلهي دون زيادة

أو نقصان ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وحذر من التجاوز والغلو بقوله: ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود/١١٢] وهذا الطغيان ناشئ عن اتباع الأهواء التي لم

يلتزم أصحابها بالنصوص الشرعية والأحكام الإلهية، وتجاوزوها إلى ما يرضي مذاهب رؤسائهم، ومذاهبهم، وطوائفهم، فكانت العصبية لمذاهبهم ورجال دينهم أعظم من العصبية للحق والوقوف عند حكمه.

وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِنْ قَبْلُ

وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَنْ سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا

كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا تَغْلُوا﴾ قال

الفخر الرازي: (الأهواء - ههنا - المذاهب التي تدعو إليها الشهوة، دون الحجة) وقال

الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمّه، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

فِيضْلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه / ١٦] وقال:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا

كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

فهي لأهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغلاة من أحبارهم ورهباهم،

الذين أسأوا فهم الشريعة عن هوى منهم، مخالف للدليل. فلذلك سمي تغاليهم أهواء،

فضلوا ودعوا إلى ضلالتهم فأضلوا كثيراً.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلكم، وقوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

وسواء السبيل، هو السواء المستقيم أي وسطه الذي لا غلو فيه ولا تفريط، وقد استعير

للحق الواضح، وهو الإسلام، أي قد ضلوا في دينهم من قبل مجيء الإسلام، وضلوا

بعد ذلك عن الإسلام.

يقول الإمام الرازي: «(قد وصفهم الله بثلاث درجات في الضلال: فبين أنهم

كانوا ضالين من قبل، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على

(١) مفاتيح الغيب للرازي المائدة / ٧٧ / والتفسير الوسيط / الآية .

تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون، كما كانوا. ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من هذه الحالة، فهم ضالون، مضلون، مصرّون على ضلالهم...»^(١).
وقد نهي النبي ﷺ عن الغلو في الدين فقال: «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» رواه أحمد.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» رواه البخاري.
وقال ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثة. رواه مسلم.
والمتنطعون هم المتشددون المتجاوزون للحدود التي جاء بها الإسلام.

تضافر الحجج والبراهين على عبودية المسيح لله:

وتضافر حجج القرآن وبراهينه على عبودية المسيح -عليه السلام- لله، وأنه عبد الله ورسوله الذي أمده ربه بالآيات والمعجزات ليظهر صدقه في نبوته. ويعرض علينا القرآن الكريم مشهداً من مشاهد يوم القيامة التي تعلن فيها المالكية والملك لله وحده، ويتقدم الأنبياء والرسل للشهادة على أقوامهم في هذا اليوم العظيم، ويُسألون وقد بلغوا رسالة الله لأممهم: (بماذا أجبتم؟) ويأتي جوابهم المقرون بأدهم مع الله الذي يعلم كل شيء: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾^(٢). فأجمع الرسل في الجواب على تفويض العلم لله، أي إن علمك سبحانه، أعلى من كل علم، وشهادتك أعدل من كل شهادة.

(١) مفاتيح الغيب / المائدة / ٧٧.

(٢) المائدة / ١٠٩.

جواب الرسل وما يتضمنه من معان :

وقد تضمن جواب الرسل الأمور التالية: أحدها الشهادة على الكافرين من أمهم بأن ما عاملهم الله به هو الحق. الثاني: تسفيه أولئك الكافرين في إنكارهم الذي لا يجديهم، الثالث: تذكير أمهم بما عاملوا به رسلهم، وتذكير أتباع الرسل بهذا اليوم العظيم الذي ينفرد الله به، بالملك والسلطان، والحكم، والجلال، والكبرياء، فلا والد ولا ولد، ولا شريك ولا شافع لأحد إلا بإذن الله، وهذا ما نستخلصه من قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة/109].

الحوار الحكيم الهادف:

ويعرض القرآن الكريم مشهداً آخر من مشاهد يوم القيامة، الذي تبرز من خلاله عبودية المسيح لربه، وما أحاطه الله به من نعم في طفولته وكهولته، وما أمدّه به من معجزات، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿المائدة/١١٠﴾.

النعمة التي أنعم الله بها على عيسى وأمه تقرير لعبوديتهما لله :

ويذكر الله هذه النعمة بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ

نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ حيث طهرها من كل رية، واصطفها على نساء

العالمين، وفي نداءه سبحانه لعيسى بقوله: ﴿ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى عبوديته

لربه، وأنه ابن لمريم، وليس ابناً لأحد سواها، فقد ولد من غير أب، ومن كان شأنه
كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً، لأن الإله الحق لا يمكن أن يكون مولوداً، أو محدثاً.

وفي قوله: ﴿ إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

وَكَهَلًا ﴾ تقرير لعبودية المسيح لربه الذي أيده الله، وقوى حجته بروح القدس،

وهو جبريل الأمين عليه السلام، فإن من وظيفته أن يؤيد الله رسله بالتعليم الإلهي،
وبالتثبيت في مواطن الشدة.

وفي قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴾ تذكير بنعمة الله

عليه إذ جعله يكلم الناس في طفولته بكلام حكيم لا يختلف عن كلامه معهم في حال
كهولته واكتمال رجولته.

مقام الدعوة إلى الله مقام عظيم:

وفي ذكر الله لهذه النعم التي من الله بها على نبيه عيسى عليه السلام ما يذكرنا بأن من أعظم النعم التي يمن الله بها على عبده أن يسلك به مسلك الصالحين من عباده وأوليائه، وأن هذه النعمة جديرة بالشكر والقيام بحق الدعوة.

ولهذا المعنى أشار الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: ((وقوله:

﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية

ودلالة قاطعة على كمال قدرتي ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً

على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ

الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنظقتك في

المهد صغيراً: فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن

رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي، ولهذا قال: ﴿تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ

وَكَهَلًا﴾ أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك. وضمن ﴿تَكَلَّمُ﴾ معنى

تدعو لأن كلامه للناس ليس بأمر عجيب»^(١).

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

بيان لمصدر علم الداعية النبي الرسول الذي يتلقى عن الله، ويبلغ العلم كما أمر الله،

وأول ما أرشدت إليه الآية: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي اذكر نعمتي عليك إذ

علمتك قراءة الكتاب، أي ما يكتب، أو الكتابة بالقلم أو وفققتك لتعلمها.

(١) تفسير ابن كثير / المائدة / ١١٠.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي الفهم العميق لعلوم الشريعة مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه، أو العلم الصحيح الذي يبحث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام.

وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/٢] فتصاحب الحكمة تعليم الكتاب، والحكمة هي السنة، وهي الفهم العميق لمقاصد الشريعة وأسرارها، وهي نداء للدعاة الذين يقتدون بالأنبياء أن يتسلحوا بالعلم العميق وأن يتبصروا بمقاصد الشريعة وحكمها وأسرارها.

﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ والتوراة هي شريعة موسى عليه السلام، والإنجيل هو ما أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السلام من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل، عليهم الصلاة والسلام.

معجزات الرسل تقرير لعبوديتهم لله الذي أيدهم بها:

وذكر الله تعالى بعض معجزات عيسى التي أيده بها تصديقاً لنبوته ورسالته فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي واذكر وقت أن وفقتك لأن تخلق أي تصور من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير ﴿فَتَنفَخُ فِيهَا﴾ أي في تلك الهيئة المصورة ﴿فَتَكُونُ﴾ أي فتصير تلك الهيئة المصورة ﴿طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي تصير كذلك بقدرتي وإرادتي، وأمري.

﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ ﴾ وهو الذي يولد أعمى، ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ وهو

المريض بالبرص ﴿ بِإِذْنِي ﴾ وقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ يعني أن عيسى عليه السلام كان مؤيداً من الله ليجري هذه المعجزات على يديه تصديقاً له، وليس عنده أية قوة خارقة، وقد ذكر بعض المفسرين أنه كان يتوجه إلى الله بالدعاء لشفاء المرضى وإحياء الموتى، فيجيب الله دعاءه. (١).

﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ أي واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن

تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون.. وكل ذلك بإذني ومشيتي، وإرادتي... وقد جعل الله مثل هذه المعجزة لموسى عليه السلام حين أحيا الميت القتيل بإذن الله بعد ضربه بجزء من البقرة المذكورة في القرآن الكريم، وحين كان يجعل من العصا حية تسعى ثم يعيدها ثم يحييها بإذن الله، وحين كانت تخرج يده بيضاء من غير سوء ثم يعيدها إلى حالتها الأولى، فهذه المعجزات التي يؤيد الله بها أنبياءه لا يفهم منها أنهم ينازعون الله صفة الألوهية -تعالى الله عن ذلك- وإنما هم مؤيدون بالمعجزة من الله لإظهار تصديقهم في رسالتهم ودعوتهم كأن المعجزة تقول عن الله: «صدق عبدي فيما قال»، ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي واذكر نعمتي عليك وقت

أن صرفت عنك اليهود الذين سعوا لقتله وصلبه فنجاه الله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ

وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ ﴾ [النساء/١٥٧] مع أنك قد بشرهم وأنذرهم وجئتهم بالمعجزات

الواضحات التي تشهد بصدقك ونبوتك. وفي ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ

(١) تفسير الألوسي / المائدة / ١١٠.

كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ تذييل قصد به ذمهم وتسجيل الحقد والجحود والعداوة لرسول الله وأنبياؤه عليهم. فهؤلاء الكفرة من بني إسرائيل، لا تزيدهم البينات التي جاء بها عيسى إلا جحوداً وعناداً.

الحواريون رجال الدعوة وأنصار النبي:

ويعطي الله وصفاً لأنصار عيسى بأنهم حواريوه.
ويعطي الله هذ الوصف للزبير بن العوام رضي الله عنه بقوله: «لكل نبي حوارى وحواريي الزبير».

والتأمل في معنى كلمة (حواري) يجد توجيه القرآن الكريم لخصائص الرجال الذين ينصر الله بهم رسله ويؤيد دينه.

فأصل مادة (حور)، الدلالة على شدة الصفاء، ونسوع البياض. ولذلك قالوا في خالص لباب الدقيق: الحواري، وقالوا في النساء البيض: الحواريات والحواريات.

وقد سمى الله تعالى أنصار عيسى بالحواريين، لأنهم أخلصوا لله نياهم، وجهادهم، وخلصوا من كل الشوائب التي تقعد بصاحبها عن نصره دينه بنفسه، وماله، وولده، ولأنهم تطهروا وتزكوا بالعلم، فكانوا ربانيين فقهاء علماء اخلصوا لربهم ونصرة نبيهم ودينهم، وهذا ما وصف الله به أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ

رَسُولُ اللَّهِ^ع وَالَّذِينَ مَعَهُ^ع أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ^ط تَرْتَهُمُ^ط رُكْعًا سُجَّدًا^ط يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا^ط سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ^ع ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ^ع وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^ع كَرَزَعٍ^ع أُخْرِجَ شَطْرُهُ^ع فَأَنزَرَهُ^ع فَأَسْتَغْلَظَ^ع فَاسْتَوَى^ع عَلَى سُوْقِهِ^ع يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ^ع بِهِمُ الْكُفَّارَ^ع

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿
 [الفتح/٢٩]، وفي آية أخرى في سورة آل عمران/١٤٦ ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ
 رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
 اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فالحواريون الذين خلصوا وتطهروا وتجردوا لله
 والدعوة، والربانيون الذين خلصوا لله ودينه علماء فقهاء معلمين صادقين مجاهدين، هم
 الذين تنتصر بهم دعوة الله، ومن سنة الله تعالى أن يظهر صف الدعوة إليه، من الأدعياء
 الذين يؤثرون دنياهم على دينهم كما ينقى الخبز الحواري من الزوان لتبقى الحوارية
 عنوان أنصار دين الله في كل زمان.

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً ما وصف الله به المهاجرين والأنصار في سورة

الحشر بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
 إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
 وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۗ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر/٨-٩].

إنهم حواريو محمد ﷺ في خلوصهم لله، وإيثارهم دينهم على ديارهم وأموالهم،
 يتبعون فضلاً من الله ورضواناً، جعلوا العقيدة والإيمان لهم موطناً كما أن المدينة لهم
 موطن، يحبون في الله من هاجر إليهم ويؤثرون على أنفسهم رغم حاجتهم للمال،

وشهد الله لهم بتطهرهم من الشح والأثرة، وبالفلاح والرضا ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إنهم الذين خاطب الله نبيه بالقيام بإكرامهم وبدئهم بالتحية والسلام، وقد
خلصوا لله خلوصاً، يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا
جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ
فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام/٥٤]، بعد أن قال فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
[الأنعام/٥٢]، فغير عن إخلاصهم وصدقهم وإنابتهم لله بعبادتهم ودعائهم وتوجههم
لله أول النهار وآخره بحيث لا يشغلهم شاغل عن ربه وعبادته، مخلصين صادقين
محبّتين يريدون وجهه ورضوانه. هؤلاء هم رجال الدعوات الذين نصرُوا أنبياء الله،
وهؤلاء هم الذين ثبتوا مع محمد ﷺ في بدر والأحزاب وحين فتح مكة، وهؤلاء هم
الذين يصنعون الإصلاح والتغيير في كل زمان.

الحواريون في كتاب الله:

ولحكمة أن ذكر الله الحواريين بهذا الوصف، وبمواقف النصر، في أكثر من آية
في كتاب الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى

اللَّهُ^ع قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا
 مُسْلِمُونَ ﴿ [آل عمران/٥٢]، ومنها في سورة الصف: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
 اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ^ع فَعَامَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ^ع فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿
 [الصف/١٤]، فيذكر الله أصحاب محمد ﷺ بموقف الخواريين في النصرة ليكونوا أنصار
 الله ولم يقل لهم: انصروا الله.. ولكن كونوا أنصار الله، بما تحمله كلمة التكوين من
 خلوص وتزكية وتنقية وحوارية هي سلاح الدعاة والدعوة في كل زمان. ويأتي في
 هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي
 وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ [المائدة/١١١].

ويذكر الله من نعمه على نبيه عيسى بأن جعل الله له أصحاباً وأنصاراً وهم
 الخواريون، والمراد بهذا الوحي الإلهام، كما في قوله: ﴿وَأُوحِيَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ
 أَرْضِعِيهِ ﴿ [القصص/٧] وهنا يذكر الدعاة الذين يوفقههم الله لينتظموا في سلك أنصار
 دينه، وحمل دعوته، بأن ما شرح الله صدورهم له هو اجتهاد من الله وتوفيق، والله
 الفضل والمنة.

ومعنى الآية: (اذكر نعمتي عليك - يا عيسى - حين أوحيت إلى الخواريين بطريق
 الإلهام أن آمنوا بي وبرسولي، أي صدقوا بأني أنا الله الواحد الأحد المستحق للعبادة،
 وآمنوا برسولي عيسى بأنه عبد الله ورسوله أرسلته هدايتكم وسعادتكم. وكان

جوابهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة/١١١]. فأشهدوا الله بأنهم مسلمون.

قال بعض العلماء: «وسمي إيمانهم إسلاماً لأنه كان تصديقاً راسخاً قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامة من آمن بالمسيح غيرهم، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصديقين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانِ حَنِيفًا مِّنْ قَبْلِهَا﴾، ﴿وَلَا تُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/١٠٢]» التحرير (١).

الحواري يستأذن ليرى:

حدثنا القرآن الكريم عن حالة القرب والتشوق التي تأخذ بقلوب بعض الأنبياء والصديقين، ليطلبوا الرؤية أو يطلبوا مشاهدة آثار المعجزة، تطميناً للقلوب، وتأنيساً لها، وإشباعاً لجوعتها الروحية في القرب من الله، والأنس به، ومشاهدة دلائل رضاه ورحمته، فنبى الله موسى عليه السلام وقد كلمه الله تكليماً تشوق للرؤية وما عرف أن كيانه البشري لا يطيقها، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف/١٤٣].

(١) تفسير التحرير والتنوير / المائدة / ١١١.

وسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾

قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالِ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّ قَلْبِي ﴿البقرة/٢٦٠﴾ أي ليسكن قلبي

المؤمن المشتاق ويرداد طمأنينة بمشاهدة آثار المعجزة والقدرة الإلهية.

وحصلت المعجزات لرسول الله ﷺ في مواطن الجهاد تثبيتاً وطميناً، وإكراماً

للذين نصرُوا نبيهم ﷺ في ساعات الشدة والخوف، فمعجزة تكثير الطعام وبركته في

غزوة الأحزاب، ونبع الماء من البئر الضحل في الحديبية وتبوك، وغيرها تحمل معنيين:

سد الجوع المادية والعطش، وإرواء الأرواح واستبشارها وهي ترى رعاية الله لهم

وإكرامه لنبيهم ﷺ.

وفي ظل هذه المعاني والنصوص الكريمة نفهم الحكمة وراء سؤال الحوارين

لعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَلْعَسِي أَبْنَ مَرِيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ

رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ أَتَقْوُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ

صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿المائدة/١١٢-١١٣﴾.

ولنا وقفة عند بعض جمل الآية:

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ والسؤال هنا: ما معنى هذه الجملة والحواريون

مؤمنون لا يشكّون بقدرة الله تعالى واستطاعته؟

قال العلماء: (جرى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على طريقة عربية

في العرض والدعاء، يقولها الأدنى للأعلى منه، في شيء يعلم أنه مستطاع للمسؤول،

ومعناه: (هل يجيبنا ربك إلى هذا الطلب) فيستطيع بمعنى (يطيع) والسين زائدة، كاستجاب وأجاب. (١).

فليس قول الحوارين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلا لفظاً من لغتهم يدل على التلطف والتأدب في السؤال، وليس شكاً في قدرة الله تعالى.

ولكنهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان، وليزدادوا طمأنينة وثباتاً وهم يشاهدون آثار رحمة الله وقدرته ورعايته ورؤية عين، (مائدة من السماء)، واسم مائدة هو الخوان الموضوع عليه طعام، فهو اسم لمعنى مركب يدل على طعام، وما يوضع عليه، والخوان - بكسر الخاء وضمها - تخت من خشب له قوائم مجعول ليوضع عليه الطعام للأكل.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقول عيسى عليه السلام: (اتقوا

الله..) أمر بملازمة التقوى، وعدم تزلزل الإيمان، أي لازموا حالة الإيمان ودوموا عليها، ولذلك جاء بـ (إِنْ) المفيدة للشك، خشية أن يكون سؤالهم نشأ لهم عن شك في صدق رسولهم، وقيل نهاهم عن طلب المعجزات، أي إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة؟ فأجابوه عن ذلك بأنهم ما أرادوا ذلك لضعف إيمانهم، إنما أرادوا التيمن بأكل طعام نزل من عند الله إكراماً لهم، ولذلك قالوا: ﴿تُرِيدُ أَنْ

نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ ولم يقتصروا على (أن نأكل) إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع، بل الغرض التشرف بأكل من شيء نازل من السماء، وهذا مثل أكل أبي بكر من الطعام الذي أكل منه ضيفه في بيته، حين انتظروه بالعشاء إلى أن ذهب جزء من الليل، وحضر أبو بكر وغضب من تركهم الطعام، فلما أخذوا يطعمون جعل الطعام يربو، فقال أبو بكر لزوجته: ما هذا يا أخت بني فراس، وحمل من الغد بعض ذلك الطعام إلى رسول الله ﷺ فأكل منه). التحرير/ الآية.

(١) تفسير المنار / المائدة / ١١٢، ١١٣ / التحرير والتنوير / المائدة / ١١٢.

ولذلك قال الحواريون ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ أي بمشاهدة هذه المعجزة، ونزداد إيماناً و يقيناً وتصديقاً وثباتاً على الحق، ونحن نرى رؤية العين كيف يرعى الله أوليائه، ويجب طلبهم، ويثليج صدورهم ﴿وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي نعلم علم ضرورة ومشاهدة، لا علم استدلال فحسب ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلغها من لم يشهدها.

دعاء عيسى ربه:

وتوجه عيسى عليه السلام لربه داعياً متضرعاً مقرأً بعبوديته لله وافتقاره له ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقوله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ اشتمل على نداءين:

نداء (اللَّهُمَّ) أي يا الله، وهو نداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال، ونداء (رَبَّنَا) وهو نداء بوصف الربوبية له وللحواريين استعطافاً لله ليجيب دعاءهم، أي يا ربنا ومالكننا كلنا ومتولي أمورنا أنزل علينا مائدة سماوية، ومعنى ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون تذكر نزولها بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كل سنة عيداً، ولذلك قال: ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي لأول أمة النصرانية وآخرها، وهم الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية.

وحدة الأمة الإيمانية ثقافة وتاريخاً:

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا

عَيْدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا...﴾ ما يشير إلى فلسفة العيد عند أهل الإيمان، وأن أفراحهم نابعة من عقيدتهم، وتذكرهم بنعم الله عليهم، ووصل آخر الأمة بأولها باستذكار وقائع تاريخها المرتبط بهويتها الحضارية واستذكار نعم الله عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ معناه وتكون آية وعلامة منك على صحة

نبوتي ودعوتي، تزيد أهل الإيمان إيماناً وثباتاً.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ دعاء بطلب الرزق في العاجل

والآجل، يحمل معنى افتقار المسيح عليه السلام وحواريه للرزق والطعام والله خير من يرزق لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض.

وهذا ما يؤكد عبودية المسيح لربه وافتقاره إلى الرزق والطعام ﴿قَالَ اللَّهُ

إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وعد الله عيسى بتنزيلها عليهم، ولكنه رتب على هذا

الوعد شرطاً عظيماً حين قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ

عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

سنة الله في المعجزات:

ومن سنة الله في تأييد أنبيائه بالمعجزات ألا تكون المعجزة بطلب من الناس،

وإنما يجريها الله على يد من شاء من أنبيائه ابتداءً، تأييداً وتصديقاً لهذا النبي، وهذا هو

الذي يتفق مع جلال الألوهية وكبريائها، ولكن هؤلاء الحواريين طلبوا المعجزة وهم

مؤمنون مصدقون، ليزيدهم الله بها إيماناً وتثبيتاً، وقد ردّ الله على المشركين الذين لم يكتفوا بالمعجزة القرآنية، وطلبوا معجزات مادية وحسية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما وجه الارتباط بين الآية ومدلولها، وبيان ذلك أن الله تعالى نصب الآيات دلائل مناسبة للغرض المستدل عليه، فلذلك نجد القرآن يذكر الحجج على عظيم قدرة الله على خلق الأمور العظيمة، كإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، في سياق الاستدلال على وقوع البعث والحشر، وكذلك ذكر الدلائل على وحدانية الله باستقلاله بالخلق كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وكقوله في الاستدلال على انفراده بأنواع الهداية ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ولما كان نزول القرآن على الرسول -عليه الصلاة والسلام - حجة على صدقه في إخباره أنه منزل من عند الله، لما اشتمل عليه من الهداية التشريعية

والاجتماعية والسياسية، والتاريخية، ولما اشتمل عليه من العلوم وتفصيل المواظ
 وأحوال الأنبياء والأمم مع كون الذي جاء به معلوم الأمية بينهم، قد قضى شباهاً بين
 ظهراهم، وتحداهم ببلاغته وإعجازه أن يأتوا بسورة من مثله، فجعله الله آية على
 صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى، فسماه الله آيات ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ
 يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَنِ ذَلِكُمْ
 النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبْسِئُ الْمَصِيرُ﴾ [الحج/٧٢] وهذا ما بينه
 الله بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت/٥٠-٥١] فلم يشأ الله أن يجعل الدلائل على الأشياء من غير ما
 يناسبها.

أما الجهلة الضالون فهم يرومون آيات من عجائب التصاريف الخارقة لنظام
 العالم، يريدون أن تكون علامة بينهم وبين الله على حسب اقتراحهم، بأن يجيبهم إليها
 إشارة منه إلى أنه صدق الرسول فيما بلغ عنه، فهذا ليس من قبيل الاستدلال، ولكنه
 من قبيل المخاطرة، ليزعموا أن عدم إجابتهم لما اقترحوه علامة على أن الله لم يصدق
 الرسول ﷺ في دعوى الرسالة، ومن أين لهم، أن الله يرضى بالتزول معهم إلى هذا
 المجال ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ أي لا يعلمون ما وجه الارتباط بين دلالة الآية ومدلولها. ^(١) .

ولا يعلمون أن رسالة القرآن الخاتمة للرسالات جاءت لتخاطب العقول عبر العصور والأزمان، فكانت معجزة عقلية ببلاغة إعجازها، ودقة إحكامها، وعظمة أحكامها، وقد بلغت البشرية رشدها، وانتهى عهد المعجزات الحسية. وكذلك لا يعلم هؤلاء الذين يطلبون المعجزات المادية الحسية سنة الله باستئصال المكذبين، حين تحصل المعجزة ولا يؤمنون وكان من رحمة الله أن يخاطبهم بلغة الحوار والحجة والبرهان، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

من مشاهد يوم القيامة :

ويعرض الله علينا هذا المشهد من مشاهد يوم العرض الأكبر للحساب والجزاء، ليزيدنا إيماناً بعبودية المسيح لربه، وأنه ليس بدعاً من الأنبياء والرسل الذين يشهدون على أممهم في ذلك اليوم العظيم، ويوجه الله إليه السؤال: ﴿ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ^ط قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ^ع تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ^ع إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ^ع وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ^ط فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ

(١) الأنعام / ٣٧.

عَلَيْهِمْ^ط وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ^ط لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ^ط ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ^ط وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ [المائدة/١١٦-١٢٠].

ولنا مع هذه الآيات وقفات:

١- في سؤال الله لعبده ورسوله عيسى بن مريم يوم القيامة: ﴿أَنْتَ قُلْتَ

لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يسأله تعالى: أقالوا هذا القول بأمر

منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم، والمراد بالناس أهل دينه.

٢- ويأتي جواب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهه لله تعالى

عن مضمون تلك المقالة، و كانت مبادرة المسيح بتنزيهه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، على أنها مقدمة للتبرّي، لأنه إذا كان ينزه الله عن ذلك، فلا جرم أنه لا يأمر

به أحداً، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ مبالغة في التبرئة من ذلك، أي ما يوجد لدي قول

ما ليس لي بحق، فاللام في قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ للاستحقاق، والباء في قوله:

﴿بِحَقِّي﴾ زائدة في خبر ليس لتأكيد النفي الذي دلت عليه "ليس".

ثم ارتقى في التبري فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فاستدل على انتفاء أن يقوله بأن الله يعلم أنه لم يقله، وهذا كقول العرب: (يعلم الله أني لم أفعل) وكقول الحارث بن عباد:

لم أكن من جناها علم الله وإني لحرها اليوم صال

ولذلك قال: ﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وهي بيان الجملة الشرط ﴿إِنْ كُنْتُ

قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ والنفس تطلق على الذات بالنسبة لله تعالى، وتطلق كذلك

على العقل، وعلى الروح الإنسانية التي تتحقق بها إنسانية الإنسان، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يُطلع عليه غيره والمعنى: تعلم ما اعتقده، وما أعلمه

لأن النفس مقر العلوم في المعارف، ولا أعلم ما تعلمه، أي مما انفردت بعلمه ﴿إِنَّكَ

أَنْتَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ﴾ إنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ

رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، يعلن عيسى عليه السلام مقالته التي بلغها قومه صريحة قوية صادقة،

والمعنى: ما تجاوزت فيما قلت حدود التبليغ لما أمرتني به وهو ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

وَرَبَّكُمْ﴾ واختير ﴿أَمَرْتَنِي﴾ على (قلت لي) مبالغة في الأدب وإظهار حقيقة

الامتثال لأمر الأمر، سبحانه، بأن يعبدوا الله رب عيسى ورهيم، تقريراً لعبودية عيسى

وأمه لله رب العالمين، ثم تبرأ عيسى من تبعته فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا

دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت مشاهداً لهم ورقيباً يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة

الشنعاء، ما بقيت فيهم في الدنيا، ومدة عيشي بينهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فلما أخذتني وافية بالرفع إلى السماء حياً واستوفيت أجلي في الدنيا، ورفعتني إليك، صارت الوفاة حائلاً بيني وبينهم، فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم، ولذلك قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي كنت أنت الرقيب، لا أنا، إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتصال، والمعنى أنك تعلم أمرهم، وترسل إليهم من يهديهم، متى شئت. وقد أرسل الله إليهم محمداً رسول الله ﷺ وهداهم بكل وجوه الاهتداء، وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا تخفى عنك خافية، أحطت بكل شيء علماً وقدرة، وقد فهم العلماء من هذه الآية أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوي، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم، واستدلوا أيضاً بما رواه البخاري من حديث «...ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، فيقال لي: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. (١)»

٤- وبعد أن أدلى عيسى عليه السلام بشهادته بين يدي ربه، وأجاب هذه الإجابة الموفقة التي تقيم الحجة على من ألوهه وألوهها أمه وعبودهما قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ففوض الأمر إليه سبحانه في شأن قومه، فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ يا إلهي، فإنك تعذب عبادك

(١) تفسير القاسمي / المائدة / ١١٦.

الذين خلقتهم بقدرتك وهديتهم بكتابك، وأنت مالكمهم ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بمملوكه الذي خرج عن أمره، ﴿وَأِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وتستتر سيئاتهم، وتصفح عنهم، فذلك إليك وحدك فأنت القوي العزيز الغالب القاهر الذي لا يعجزه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها بمقتضى حكمته العظيمة، وقد ذهب بعض المفسرين إلى شيء من التفصيل فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي من أقام على الكفر منهم، فإنهم عبادك الذي يجزي المسيء بإساءته، كما يجزي المحسن بإحسانه، ﴿وَأِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لمن آمن منهم فإنك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم في صنعه. تفسير القرطبي والجلالين/ الآية.

هذه الآية، وقيام رسول الله الليل بها وشفاعته يوم القيامة:

﴿إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ﴾، تملك قلبه هذه الآية، وهو يستذكر مسؤوليته العظيمة عن أمته يوم القيامة.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع

بها، ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله،

ألم تنزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: إني سألت ربي عز

وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً. (١).

(١) تفسير ابن كثير / المائدة / ١١٨.

٥- خاتمة السورة المعجزة:

وختم الله ما يقع يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل للشهادة على أممهم بقوله:
﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾، للإشارة إلى نتيجة ومآل هذا اليوم،
 فهو الذي ينتفع الصادقون فيه بصدقهم، في إيمانهم وأعمالهم، لأنه يوم الجزاء الذي يجد
 فيه الصادقون مع الله من الأنبياء والرسل وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين
 ثواب أعمالهم، وذكر الله هذا الثواب بقوله: **﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴾** فما أعظم الرضا، رضا الله عن أحبائه الصادقين، ورضا الأحاب عن
 ربه بما آتاهم من جزيل الثواب، وكرم العطاء، خالدين فيه أبداً.

خاتمة السورة المعجزة بتناسب مطلعها مع خاتمتها:

ونجد التناسب و الإعجاز مرة أخرى حين نجد الترابط بين مطلع السورة التي
 أمرت المؤمنين بالوفاء بعقودهم مع الله، ومع الناس مع خاتمتها ليجدوا ثواب صدقهم
 يوم القيامة: **﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴾** وما أعظم هذه الخاتمة
 للسورة التي ضمت أعظم الأحكام والعقائد والتشريعات والقيم والآداب التي تبرز
 معالم الشخصية الإسلامية للأمة المسلمة فهي أمة العقيدة والرسالة، أمة الحضارة
 والهداية: الصدق روحها وعنوانها ونهج حياتها. وناسب بعدها أن يصل القلوب بهذه
 الآية الدالة على شمول ملكه تعالى لكل شيء في هذا الكون، وعبودية ما في السموات
 والأرض ومن فيهن لله رب العالمين، وليتلج صدور المؤمنين الصادقين بالشهادة
 العظمى، ودلائل الوحدانية التي تنطق بها آيات الله الكونية وسننه في السموات

والأرض، وليكشف لنا ضحالة هذه العقول، وصغر هذه النفوس، وانحطاط هذا الفكر الذي يجعل لله شريكاً، أو يتخذ له ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ فَعَلَّبَ غير العقلاء، للإشارة إلى أن كل المخلوقات مسخرة في قبضة قهره، وقدرته وعلمه، وقضائه وقدره، وليزداد المؤمنون إيماناً بسعة ملك الله وشمول قدرته، الذي يجزيهم أحسن الجزاء ثواباً لإيمانهم وصدقهم ووفائهم بأمر الله.

في التشريع والتوجيه:

وتظهر شخصية الأمة الإسلامية الحضارية بتمييزها بالاعتدال في المطعم والمشرب، والوفاء بعقودها وأيمانها، وتحريمها ما يغتال العقول، ويهدر المال، ويوقع العداوة والبغضاء، وهي أمة النظام والتوثيق وحفظ الحقوق. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ ۖ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۗ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۗ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا

الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
 فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
 الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ
 فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
 فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
 ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ
 وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن
 قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ
 مِّنكُمْ هَدْيًا بِنَلِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامٌ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا
 لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٥﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَّكُمْ

وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمِ عَلَيْكُمْ صَيْدِ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿١٠٠﴾

الدارس للآيات الكريمة يجد معالم الهداية القرآنية التي بينت سماحة الشريعة ووسطيتها وتحقيقها لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ورفع الحرج عنه حين يقسم المسلم بالله تعالى ثم يجد حرجاً في الوفاء بيمينه، فيأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، وكيف ربط الكفارة بحاجات الفقراء والمساكين لتعميق أوامر المجتمع، ثم يأتي تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبيان أنها رجس من عمل الشيطان ليحفظ على المجتمع الإسلامي أمنه من الداخل بتحريم ما يغتال العقول، ويهدر المال، ويضرم نار العداوة والأحقاد، والأمر بما يحفظ على المجتمع الإسلامي وحدته ومحبة أبنائه بعضهم لبعض. ونجد في تشريع كفارة اليمين وفي تشريع تحريم الخمر والميسر، وتحريم قتل الصيد على المحرم وكفارته، منهج التربية القرآنية التي تجمع بين الحكم والحكمة في النهوض بأبناء المجتمع الإسلامي ليعيشوا أحكام الشريعة وحكمها وأخلاقها وهم يستحضرون رقابة الله ومحافته، ويستشعرون رعايته لهم ورحمته وهذا ما ستريده إيضاحاً من خلال النقاط التالية:

١- في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ

اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

نجد في هذه الآية المنهج الوسط الذي حرر فيه الإسلام المجتمع المسلم من غلو أهل الأديان والعقائد الأخرى كرهبان النصارى والهنود الذين كانوا يتقربون إلى الله تعالى بتعذيب الجسد، فالرسالة الخاتمة التي جاءت رحمة للعالمين، ولرفع الأغلال التي كان يضعها أهل الأديان السابقة لتحرم الإنسان مما خلقه الله من طيبات الأرض، خاطبت المؤمنين بهذه الآية بصفة الإيمان ألا يخرجوا عن هداية الشريعة بتحريم ما أحل

الله من طيبات أحلها لهم وألا يتدعوا في الدين بتحريم ما أحل الله، أو اعتقاد ذلك. والمراد بالطيبات الأشياء المستلذة المستطابة المحللة التي تقوي بدن الإنسان، وتعينه على القيام بمهمة الاستخلاف في الأرض التي عهد الله بها إليه، وتفتح له أبواب إعمار الأرض وتساعد على الجهاد في سبيل الله.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ تأكيد للنهي السابق، يشمل تجاوز إباحة

الحلال الطيب إلى تحريمه، ويشمل الإسراف في تناول الطيبات، كما يشمل التقدير، والخروج عن المنهج الوسط في الإسراف أو التقدير.

٣ - بين حضارتين:

والتعبير القرآني المعجز ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾،

يبين لنا تحريم التجاوز في الزهد والامتناع عن هذه الطيبات، كما فعل بعض أهل الأديان السابقة. وكذلك بينت لنا تحريم التجاوز بالإقبال عليها حتى تصبح أكبر هم الناس، وغاية سعادتهم، وهذا ما جعلته الحضارة الغربية المادية أكبر غاياتها و بنت عليها فلسفتها الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وهي: «كل واشرب وتمتع لأنك غداً ستموت».

وقد أجمل صاحب المنار هذه المعاني بقوله: «لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذة بأن تعتمدوا ترك التمتع بها تنسكاً وتقرباً إليه تعالى، ولا تعتدوا فيها بتجاوز حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد، كالزيادة على الشبع والرّي، فهو تفريط، أو تجاوز الأخلاق والآداب النفسية كجعل التمتع بلذاتها أكبر همكم أو شاغلاً لكم عن معالي الأمور من العلوم والأعمال النافعة لكم ولأمتكم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فالاعتداء يشمل

الأميرين: الاعتداء في الشيء نفسه، واعتدائه هو بتجاوزه إلى غيره مما ليس من جنسه..»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يتجاوزون حدود شريعته وسنن

فطرته، ولو بقصد عبادته.

البدع التركية:

ويقسم العلماء البدعة إلى بدعة بالفعل كإنشاء عبادة لم يأذن بها الله، وبدعة بالترك، كأن تترك أمراً مباحاً شرعه الله، ومن هذه البدع التركية ترك الطيبات البتة كما تترك المحرمات، تنسكاً وتعبداً لله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها، وفي هذا تشبه بقدماء الهنود واليونان الذين قلدهم أهل الكتاب، ولا سيما النصارى فقد شددوا على أنفسهم وحرموا عليها ما لم تحرمه الكتب المقدسة عندهم على ما فيها من الشدة والمبالغة في الزهد.

الرسالة الخاتمة الهادية المحررة:

وقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، بالإصلاح الأعظم، فأباح للبشر على لسانه الزينة والطيبات، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأعلن مبدأه العظيم «إن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً...» فللروح حقها بالعبادة، وللجسد حقه بالرعاية، والعدل بينهما أساس التوازن والتكامل في البناء الإنساني، فكانت الأمة الإسلامية بذلك أمة وسطاً صالحة للشهادة على جميع الأمم وأن تكون حجة لله عليها، وهي الأمة المستخلفة لإعمار الأرض بمنهج الله.

(١) تفسير المنار / المائدة / ٨٧.

إرشاد النبي ﷺ وهدية للمتشددين:

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة «أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر - أي عن عبادته في بيته - فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». وأخرج ابن جرير وغيره عن أبي قلابة قال: أراد أناس من أصحاب النبي ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء، ويترهبوا، فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة ثم قال: «إنما هلك من كان قبلكم» بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع. فاعبدوا الله ولا تشركوا به، وحجوا واعتمروا، واستقيموا يستقم بكم، قال: ونزلت فيهم ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

ويحسن هنا أن ننبه إلى الإشارة العميقة للتشدد والمغالاة في هذا الحديث الشريف التي يحرم أصحابها على أنفسهم ما أحل الله، ثم يجرمون أنفسهم من أن يعيشوا مع الناس، وقدراتهم، وحاجاتهم، فانزلوا عن المجتمع وسار الناس في واد وساروا هم في واد آخر. وهذه الإشارة العميقة بقوله ﷺ: «فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع» وهذا ما وجهنا ربنا تبارك وتعالى إليه بقوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة/٨٨].

فبعد أن نهي سبحانه عن تحريم الطيبات، أمر بتناولها والتمتع بها، والأمر هنا للوجوب، وهو تصريح بأن امتثال النهي عن تحريم الطيبات لا يتحقق إلا بالانتفاع بها فعلاً، مخالفة للذين يمتنعون عنها إضعافاً للجسد، توهماً أن إضعافه يقوي الروح، على طريقة رهبان الهنود والنصارى.

تنبيه وتوجيه:

ولا يدخل في هذا النهي من يمتنعون عن بعض الأطعمة بإرشاد الطبيب أو تخلصاً من السمّة، فهذا ليس من الرهبانية وإنما هو بنية الدواء والعلاج. وقد شرع الإسلام الوسطية بتحريم الإسراف وقيام النوافل ليبقى المؤمن قوياً بروحه، وجسده، وقائماً بحقوق الله، وحقوق أمته.

وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ نجد السياج الواقعي

الذي يحصن المسلم من تناول المحرمات في المطاعم والملابس والمناكح، و يهديه إلى التمتع بالطيبات كما شرع الله من غير إسراف ولا تقتير.

وقد وردت آيات كثيرة بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿يَلْبَسِي ۡءَادَمَ حُدُوًّا

زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف/٣١]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن

طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة/١٧٢].

بين اتجاهين:

ويحسن هنا أن ننبه إلى المعالم التي وجهنا إليها ربنا تبارك وتعالى بتناول الطيبات، من غير أن ننهمك بها، أو تكون سبباً لترك عبادات أخرى أو التقصير في واجبات يفرضها علينا ربنا تبارك وتعالى، وأول هذه المعالم أن نعلم:

١- أن الله خلقنا لعبادته وإعمار هذه الأرض التي استخلفنا فيها لنقوم بمنهج الله الوسط في التمتع بالطيبات، والامتناع عن المحرمات، وقد حذرنا من (المادية الجاهلية) في القدم والحديث، ووصف لنا انهماكهم وتهالكهم على الحياة الدنيا بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَهَبْتُمْ طِيبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف/٢٠].

٢- الحياة الدنيا وزينتها في عقيدة المسلم وسيلة للأخرة، تكون في جيبه، لا في قلبه، يتعامل معها بمنهج الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد/٣٦].

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَبْتَغِ فِيْمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النقص/٧٧].

٤- ويقارن القرآن الكريم بين رجلين، رجل فتن بمزرعته، وثمرها، ونسي ربه الذي أعطاه ليمتحنه، ورجل صبر ولم يضعف أمام زينة الحياة الدنيا، وكان غناه في

قلبه، وتوكله على ربه، قال تعالى في سورة الكهف ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٢٦﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٠﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣١﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٣﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٤﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣٥﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٦﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٣٨﴾

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٦﴾ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٧﴾ [الكهف/٣٢-٤٦].

٥- والمتدبر في ختم القرآن لهذا المشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٦﴾ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٧﴾ ما يبين لنا منهج القرآن في تربية الشخصية الإسلامية المتوازنة التي لا تستعدها الشهوات والمطامع، وهذا ما زاده القرآن بيانا بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

وفي قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس/٧-٨].

وفي الصورة المقابلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠١﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس/٨-١٠].

وفي ظلال هذه الآيات نجد كيف اطمأن أهل الدنيا للدنيا، وكيف تعامل أهل الآخرة مع الدنيا بهداية إيمانهم، ففازوا وسعدوا، وهذا ما بينه الله في آخر سورة آل عمران، وآخر سورة الفرقان، حيث وصف أثر خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار في قلوب المؤمنين، ونقلهم إلى حركة عبادة وذكر وعمل صالح يتناسب مع حكمة الخالق العظيم في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ۖ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۗ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ

مِنْكُمْ مَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٠﴾ [آل عمران/١٩٠-١٩٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٧﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۗ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٢٠﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٢٣﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

﴿٧٦﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٨٠﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٨١﴾ خَلَائِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقْرَأًا وَمُقَامًا ﴿٨٢﴾ قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٨٣﴾

[الفرقان/٦١-٧٧].

لنجد بين قوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ..﴾ وبين قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ..﴾ هذا التوجيه العظيم الذي يحيي قلوب المؤمنين بحركة الليل والنهار، عبادة واستقامة وجهاداً ودعوة، وقد فقهوا معنى الحياة، ومعنى خلق السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وحكمة الخالق العظيم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/٥٦]، وبقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

بَطِيلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ص/٢٧-٢٩﴾.

وحين ذكر الله أحبابه وأنبياءه ذكرهم بحركة قلوبهم التي خلصت لله رب
العالمين ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ
﴿٤٦﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِلَيْهِمْ عِنْدَنَا لَمَن
الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿ص/٤٥-٤٧﴾.

وفي هذا بيان أنهم أصحاب القوة البدنية والبصيرة الدينية وأن قوتهم وأيديهم
كانت في طاعة الله تعالى، وفي هذا تعريض بكل من حصر قوته، وما آتاه الله من علم
أو مال أو جاه، وجعلها لندياه وشهواته. ولم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين
في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والعمل الصالح لنصرة دين الله، والاسبتصار
بجال الأمة وحال المسلمين، والأخطار المحدقة، وعدم تعاونهم لتوعية الأمة، ودفع هذه
الأخطار، وقد ذم الله اليهود بأنهم عموا وطمسوا من رؤية النذر والآيات ليرجعوا إلى
رهم فوقع بهم الهلاك...

أما المؤمنون الصالحون، والقدوة الصالحة لهم من أنبياء الله فهم أولو الأيدي
والقوة، والجهاد، وأولو الأبصار والبصائر في النظر السديد لما يصلح دينهم، ويصلح
أمتهم، ويحميهم من أسباب غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر الله وصف هذه القيادات الإيمانية من أنبياء الله بقوله: ﴿ إِنَّا
 أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ أي أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم
 آخر، إنما همهم ذكرى الدار لا غير، وقد أخلصهم الله، وجعلهم خالصين
 ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ أي بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بذكرى الدار، شهادة
 لذكرى الدار بالخلوص والصفاء، وانتفاء الكدورة.

وقد رأيت أن أطيل بعض الإطالة هنا، لأنه إلى أن هذه التربية القرآنية المتوازنة
 للجيل الأول من الصحابة والتابعين، التي أخلصتهم لله خلوصاً، وعرفتهم حكمة الحياة
 وجعلت ذكرى الدار، متصلة بحركتهم وحركة الليل والنهار، هي التي كانت وراء
 انتصارات بدر والأحزاب وفتح مكة واليرموك والقادسية، وهي التي تدعو العلماء
 وأهل القرآن لإحيائها في الأمة، وجني ثمارها المباركة بالحفاظ على هوية الأمة
 الحضارية وتحصينها من عوامل الهدم والمسخ والتغريب.

ولحكمة أن يذكر الله خليل الرحمن وابنه إسحاق وحفيده يعقوب الذين كانوا
 أئمة بالدعوة والهدى والصبر واليقين والتوكل والانتصار على النفس ورغباتها والنجاح
 بالامتحان ليضرب لنا مثلاً كريماً للتربية الكريمة. والله المستعان.

اسم الله العظيم حصانة للأمة المسلمة:

من خصائص الأمة الحضارية تحصين الصدق باسم الله العظيم والوفاء بالآيمان
 وتعظيم اسم الجليل.

من عادة الإنسان أن يطلب التوثيق على أمر يطلبه، أو يعطي التوثيق على أمر
 يعد به، وقد ربط الله هذا التوثيق باسمه وحده، ليكون مشهداً لله على توثيقه لعمل

يريد إنجازها، وليكون الحلف باسم الله العظيم داعياً للثقة والطمأنينة في نفس القاضي، والخصم، والمحقق، والمستعلم، والمخوف له.

والحلف باسم الله يعني إلزام الخالف نفسه بالصدق في قوله، أو الصدق في وعد يعد به للمستقبل، أو الصدق في شهادة يدي بها، وقد جعل الله عليه شهيداً. والمجتمع الإسلامي هو مجتمع العقيدة والرسالة، والتعظيم لله رب العالمين، والدارس للأحكام المستفادة من آية الأيمان يجد ما يلي:

١- سماحة الشريعة الإسلامية التي قدرت ظروف الإنسان، ولم تؤاخذ بما سبق لسانه من أيمان لا يقصدها، أو يحلف على شيء يظنه (كذبا) ويتبين خطاه بعد ذلك. وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة / ٨٩).

٢- سماحة الشريعة التي وسّعت على من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منه، فأباح له أن يأتي الذي هو خير، وذلك ما بينه النبي الكريم ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه».

وهنا نلاحظ حكمة التشريع التي لم تجعل الحلف باسم الله حاجزاً عن الخير، فقد يحلف الإنسان وهو في حالة غضب، ثم يندم على يمينه ففتحت له باب الكفارة ليأتي الخير وهو منشرح الصدر، ولنفهم حكمة التشريع التي لا تجعل من الحلف باسم الله قيلاً يحجر حركة الأفراد عن الخير، والإصلاح، والإحسان. وهذا ما بينه الله بقوله:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا
بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٢٤].

أي لا تجعلوا الحلف باسم الله حاجزاً لما حلفتُم عليه من صلة رجم.

٣- رحمة الشريعة التي لم تجعل الكفارة ما فيه تعذيب أو إرهاب للحالف، وإنما جعلتها رحمة بالفقراء والمساكين لمن يجد ثمن الكفارة، وجعلتها تركية للنفس وتطهيراً لها بالصوم، لمن لم يجد ثمن الكفارة، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّرتُهُمْ ۖ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۖ﴾.

٤- حفظ اسم الله العظيم من كثرة الحلف به لتبقى مهابته في القلوب، وتقديم الشكر لله الذي شرع لنا هذه الأحكام السمحة الرحيمة، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۖ﴾.

وقفه عند بعض الأحكام المستفادة من الآية:

ما هي اليمين المنعقدة وما هي اليمين اللغو؟ أما اللغو فهو قول الرجل في الكلام من غير قصد، لا والله، وبلى والله، وقيل في النسيان، والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ﴾.

واليمين المنعقدة هي ما صمتم عليه منها وقصدتموه، و(ما) في قوله ﴿بِمَا

عَقَدْتُمْ ۖ﴾ مصدرية أي بتعقيدكم الأيمان، وهو توثيقها بالقصد والنية،

وهذا ما وجهنا ربنا تبارك وتعالى إليه بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۗ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ ۗ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحل/٩٠-٩٢].

فاستعمل في الأيمان النقض الذي هو ضد الإبرام، وكذلك النكث الذي هو ضد الفتل، وكلاهما قريب من الحل الذي هو ضد العقد. (١).

وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٢٥].

والمعنى لا يلزمكم الله الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم، أي بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان، ولم يكن كسب اللسان وحده ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

- مقدار الكفارة: بينه الله بقوله: ﴿ فَكَفَّرْتُهُمْ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ

أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ والكفارة لغة صفة مبالغة من الكفر وهو الستر والتغطية، ثم صارت في اصطلاح الشرع اسماً لأعمال تكفر

بعض الذنوب والمؤاخذات أي تغطيتها وتخفيفها حتى لا يكون أثر يؤاخذ به في الدنيا ولا في الآخرة.

تفاوت الكفارة:

وقد ذكر الله مقدار الكفارة إذا نقض الحالف يمينه أو أراد نقضه على مراتب ثلاث: أذناها إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة لكل منهم من غالب الطعام الذي تطعمون به أهل بيوتكم، وأما الكسوة فهي اللباس، وهي فوق الطعام، ودون العتق، وتشمل الثوب الساتر للجسد كله أو ما يشبهه من قميص وسروال وإزار ورداء، وعباءة، حسب قدرة الحالف وحرصه على الثواب.

وأما المرتبة الثالثة فهي تحرير الرقيق، وهذه الكفارة توضح لنا حرص الشريعة الإسلامية على تحرير الرقيق، وفتح الأبواب لإعتاقه وتخفيف ينايبه، وقد انتهى أمر الرقيق عالمياً، واتفقت دول العالم على منعه وهذا ما يتفق مع حكمة الشريعة الإسلامية ومقاصدها، ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يستطع إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة فعليه صيام ثلاثة أيام وهي أدنى ما يكفر به عن يمينه، فإن عجز عنها لمرض نوى الصيام عند القدرة، فإن لم يقدر رجي له عفو الله بحسن نيته وصحة عزمته.

﴿ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ بالله، أو بأحد أسمائه، أو صفاته،

فحنثتم، أو أردتم الحنث.

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فلا تبدلوها في كل أمر، ولا تكثروا من الأيمان

الصادقة فضلاً عن الكاذبة، وهو ما يفيد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً

لَا يَمَلِكُكُمْ ﴿ ومعنى عرضة أي حاجزاً، وهو اسم ماتعرضه دون الشيء من عرض العود على الإناء فيعرض دونه، ويصير حاجزاً ومانعاً منه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك» أخرجه الخمسة.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل هذا البيان البديع، وعلى نحوه يبين الله لكم آياته، وأحكام دينه، لتكونوا أمة الحضارة والصدق، والرحمة، والمواساة، ولتشكروا الله على نعمه وليزيدكم من فضله.

تشريع الإسلام بالآيمان تحرير نفسي واجتماعي للأمة المسلمة:

والدارس لتشريع الإسلام بالآيمان، المطلع على هدي الإسلام بتخصيص الحلف باسم الله وحده، وتحريم الحلف بأسماء الآباء والزرعماء والملوك، وغيرهم، يجد عظمة الشريعة الإسلامية التي حررت الإنسان من عبادة العباد، لعبادة الله وحده، وأقامت المساواة بين الناس، فليس لزعيم أو ملك، أو قريب، أو عزيز، أن يكون ندأً لله بالحلف باسمه، ولهذا التشريع من الآثار التربوية، والاجتماعية، والقانونية، ما يجعل الكبير والصغير، والغني والفقير، متساوين تحت حكم الله، لا يستعلي أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد.

وفي ظل هذه الحكمة نفهم قوله ﷺ: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله» رواه الشيخان. وقوله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» رواه الشيخان بسندهما عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد أمر النبي ﷺ أن يجتنب المسلمون الحلف بغير الله، ولو كان معظماً مقدساً، كالحلف بالكعبة، ووجههم للحلف: برب الكعبة، ورب السموات والأرض، وبمقلب

القلوب، وأن يجتنبوا العبارات التي تفيد الشرك والندية لله كقول القائل: (ما شاء الله وشئت) وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت، لبيان أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب. وكان أكثر ما يحلف به النبي ﷺ: «لا ومقلب القلوب» رواه أصحاب السنن عن ابن عمر، وفي هذا القسم ما يصلنا بقلب النبي الكريم وما يعتلج به من مخافة الله والافتقار إليه بالثبوت على الإيمان ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران/8].

وثبت في الصحيحين الحلف بعزة الله تعالى، إذ لا فرق بين الحلف بصفات الذات، وصفات الأفعال، لله تعالى.

تفصيل جيد لشيخ الإسلام:

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إذا حلف الرجل يمينا من الأيمان، فالأيمان ثلاثة أقسام:

- ١- أحدها ما ليس من أيمان المسلمين وهو الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء، وتربتهم، ونحو ذلك، فهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها. وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك».
- ٢- الثاني: اليمين بالله تعالى كقوله: (والله لأفعلن..) فهذه يمين منعقدة فيها الكفارة إذا حنث فيها باتفاق علماء المسلمين.

٣- الثالث: أيمان المسلمين التي هي في معنى الحلف بالله، ومقصود الخالف تعظيم الخالق، لا الحلف بالمخلوقات، كالحلف بالنذر، والحرام، والطلاق، والعناق، كقوله: (إن فعلت كذا فعلي صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو الحلال علي حرام،

لا أفعل كذا، أو إن فعلت كذا فكل ما أملكه حرام، أو الطلاق يلزمي لأفعلن كذا، أو لا أفعله، أو إن فعلته فنسائي طوالق. فهذه الأيمان للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

١- إذا حنث لزمه ما علقه وحلف به.

٢- وقيل لا يلزمه شيء.

٣- وقيل يلزمه كفارة يمين. ومنهم من قال: الحلف بالنذر يجزئه فيه الكفارة،

والحلف بالطلاق، والعتاق يلزمه ما حلف به».

ويقول ابن تيمية بعد ذلك: «وأظهر الأقوال عندي، وهو الموافق للأقوال الثابتة

عن الصحابة، وعليه يدل الكتاب والسنة والاعتبار أن يجزئه كفارة يمين في جميع أيمان

المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وقال تعالى:

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحریم/٢] وقال ﷺ: «من حلف على يمين

فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه» فإذا قال الحل علي

حرام لا أفعل كذا، أو الطلاق يلزمي، لا أفعل كذا.. أجزأه في ذلك كفارة يمين.

المنار/ج٧/٤٥ و٤٦.

اليمين الغموس : مفهوم اليمين الغموس أو اليمين الصابرة: وهي اليمين الفاجرة التي

تغمس صاحبها في الإثم وفي غضب الله وناره، ويكون الحالف عارفاً أنه يحلف كاذباً،

من أجل خداع المحلوف له، أو خداع القاضي أو النجاة من مكروه. وهذه اليمين

الغموس التي يهضم بها الحق أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق، ولا صدقة،

ولا صيام، بل لا بد من التوبة وأداء الحقوق، والاستقامة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ

بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوَةَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾ [النحل/٩٤].

وقال النبي ﷺ: «من حلف على يمين صبر - وهو فيها فاجر، يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» رواه الشيخان.

الأمن الاجتماعي، والنفسي في ظل التربية والتشريع:

وهنا نلاحظ عظمة التشريع الإسلامي الذي يربط بين العقيدة والسلوك، ويحمي حقوق الناس بسطان الله ومخافته في قلوب المؤمنين، كما يحميها بسطان الحاكم والعقوبة الزاجرة، وحتى لا يتخذ الدين وسيلة للخداع، والحلف باسم الله العظيم ستاراً للظالمين، يخفون في ظل حلفهم الفاجر خيانتهم، وحتى لا يجترئوا على دماء الناس، وأعراضهم، أقامت الشريعة هذا الحاجز العظيم من مخافة الله ورقابته في القلوب وبيّنت حدود هذه الجرائم التي لا كفارة لها وجعلتها نداءً للشرك بالله، قتل النفس بغير حق، والافتراء على المسلم وبهته، واليمين الغموس الفاجرة الصابرة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه " خمس ليس هن كفارة وذكر منها " الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق".

تحريم الخمر والميسر والأهداف الكبرى للأمة المسلمة:

أعد الله الأمة الإسلامية لحمل رسالته وتبليغها للناس كافة، ومواجهة القوى الظالمة التي كانت تستعبد الشعوب، سياسياً، واقتصادياً، وفكراً، وقانوناً، وثقافة.

وأمة الرسالة والتحرير لا بد أن تتحلى بالأخلاق والعادات التي تعينها على أداء رسالتها، وكان من أول هذه الأخلاق أن تكون يقظة واعية، وأن تبعد عما يهدر العقول، ويهدر المال، ويمزق الروابط الاجتماعية فحرم الله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وبين أنها رجس من عمل الشيطان، ونزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۗ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٠٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ
اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٠٤﴾ [المائدة/٩٠-٩٣] ويجسن
أن نقف عند بعض الحكم والأحكام:

التدرج في تحريم الخمر تهيئةً للنفوس لاستقبال الحكم بالتحريم:

من سنن الله في إصلاح المجتمع أن يخاطب عقول الناس بالحكمة والموعظة
الحسنة، و أن يتدرج بهم لمراقي الكمال بلا عنت ولا إرهاب.
والدارس كيف تدرج الشارع الحكيم في تحريم الخمر يجد هذه الحكمة.
فالخمر كانت شراب العرب في الصباح والمساء، وكانت متغلغلة في عاداتهم
الاجتماعية. وهذا ما يفسره قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «حرمت الخمر، ولم
يكن للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر».

وقد تدرج التشريع بتحريمها على ثلاث مرات:

الأولى: حين نزلت آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا
إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ۗ وَسْأَلُونَكَ

مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿ [البقرة/٢١٩] وذلك يتضمن نهياً غير جازم فترك شرب الخمر بعض
الصحابة في ظل هذا التوجيه.

الثانية: ثم نزلت آية سورة النساء ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ
تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايِطِ أَوْ
لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِأُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء/٤٣] فتجنب المسلمون
شربها في الأوقات التي يظن بقاء السكر منها إلى وقت الصلاة؛ فقال عمر: اللهم بين
لنا في الخمر بيانا شافياً، ثم نزلت الآية.

الثالثة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقال
عمر: انتهينا.

والمشهور أن الخمر حُرمت سنة ثلاث من الهجرة بعد غزوة أحد، فتكون هذه
الآية نزلت قبل سورة المائدة، ووضعت بعد ذلك في موضعها هنا.
والتدبر لمراحل التحريم هذه يجد رحمة الشارع الحكيم بالأمة الإسلامية وتكريمه
لها بأن هيأها عقلياً ونفسياً لاستقبال الحكم بتحريمها.

فابتدأهم بآية سورة البقرة في إيضاح أسباب التحريم رفقاً بهم، واستثناساً
لأنفسهم، ولم يسفهم فيما كانوا يتعاطون من ذلك، بل بين لهم الحكمة الداعية

للتحریم بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ثم بآية سورة النساء التي حرمت عليهم أن يكونوا سكارى في أوقات الصلاة، فھیأتم لاجتنابها في أكثر ساعات النهار واللیل الشاملة لأوقات الصلوات الخمس وما قبلها وما بعدها، ثم كرّ عليها بالتحريم بآية سورة المائدة، فحصر أمرها في أنها رجس من عمل الشيطان، ورجا لهم الفلاح في اجتنابها، بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ وأثار ما في الطباع من بغض الشيطان بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلْعَادَوةَ وَالْبَغْضَاءِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فحاء بالاستفهام الذي يصور حرص التشريع على الارتقاء بعقول المخاطبين الذين فقهوا حكمة التحريم ومضار الخمر، ليكون الانتهاء عنها وتحريمها استجابة لأمر الله الحاكم، ولهداية النفس التي فقهت حكم التحريم و حكمته، وهذا التحريم هو الذي فهمه أهل اللغة من الصحابة الكرام حين قالوا: انتهينا يا رب، انتهينا يا رب.

صيغة: (هل أنتم منتهون) ودلالاتها في اللغة:

قال العلماء: وصيغة: (هل أنت فاعل كذا) تستعمل للحث على فعل في مقام الاستبطاء، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ الفاء تفریع عن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلْعَادَوةَ وَالْبَغْضَاءِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

فإن ما ظهر من مفسد الخمر والميسر كاف في انتهاء الناس عنهما، فلم يبق حاجة لإعادة فهم عنهما، ولكن يستغني عن ذلك باستفهامهم عن مبلغ أثر هذا البيان في نفوسهم وارتقائهم إلى المستوى الإيماني الحضاري الذي رفعهم إليه توجيه

القرآن الكريم وتربية النبي العظيم ﷺ، ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حد الإعجاز الذي صور لنا كيف ترتقي الشريعة الإسلامية بالعقول والأفكار حين تجعل الاستجابة السريعة لأمر الله الذي يصادم هوى النفوس وشهواتها وما تعودت عليه في سني حياتها، فما أعظم السؤال يدعو للكف والانتها، يتوجه لقوم قد بلغوا في مكائدهم ووعيدهم الفكري والإيماني إلى استقبال نداء الله لهم ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ بقولهم: (انتبهنا، انتهينا يا رب) وكان عمل الصحابة ومساعدتهم لكسر

أواني الخمر، وإهراقها في طرق المدينة شاهداً إيمانياً عملياً على هذا التحريم.

أخرج البخاري عن أنس قال: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت» قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، قال: فخرجت فهرقتها، فحرت في سكك المدينة. أي في طرقها.

دلائل تحريم الخمر من الآية تحمل معالم التربية القرآنية:

وقد وضع هذه المعالم صاحب الكشاف من خلال بيانه للمؤكدات التي أكد الله بها سبحانه تحريم الخمر والميسر فقال:

١- وأول هذه المؤكدات تصدير الجملة بإثما.

٢- وقرنها بعبادة الأصنام في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ .. ﴾

وفق قوله ﷺ: «شارب الخمر كعابد الوثن».

٣- ومنها أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ

الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج/٣٠].

٤- ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت.

٥- ومنها أنه أمر بالاجتناب وظاهر الأمر الوجوب، وكلمة (اجتنبوه) أشد دلالة على التحريم من كلمة (حرمت) لأن الاجتناب يحمل معنى التحريم لشربه، والابتعاد عن الأماكن التي يشرب بها، أو يقدم فيها، فلا يقتصر الأمر على تحريم شربها وتناولها، بل يتعداه إلى حضور مجالسها أو تقديمها، أو العمل في مصانعها، أو التجارة فيها، فالاجتناب في أصل معناه اللغوي: أن تكون في جانب، والأمر المحرم في جانب آخر.

٦- ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة وخسراناً.

٧- ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال والتعادي والتباغض وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة.

٨- ومنها قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فهو من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل:

قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا. ^(١)

وقد بيّننا من قبل أن السؤال يحمل معنى تكريم الأمة فقد جاء الأمر بالتحريم بصورة سؤال لتشهد الإجابة بإيمانهم وسرعة استجابتهم لأمر الله.

وللعلماء تفصيل في مؤكّدات تحريم الخمر اللغوية منها ما ذكره صاحب المنار:

١- أن الله تعالى جعل الخمر والميسر رجساً، والرجس في التعبير القرآني يطلق

على ما عظم إثمه واشتدت حرمة، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ

الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج/٣٠].

فكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث، ولذلك أطلقت على الأوثان، وقد قال النبي ﷺ: «الخمر أم الخبائث» رواه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن عمر، وقال: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر».

٢- أنه صدر الجملة بـ (إنما) الدالة على الحصر للمبالغة في ذمهما، كأنه قال: ليس الخمر، وليس الميسر إلا رجساً فلا خير فيهما البتة.

٣- أنه قرئهما بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية، وخرافات الشرك، وقد بين القرآن تحريمهما بلفظ التحريم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِّلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ۗ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۗ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۗ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة/٣].

وذكر الخمر قبلها تنويهاً بشدة حرمتها و عظيم إثمها.

٤- أنه جعلهما من عمل الشيطان، لما ينشأ عنها من الشرور والطغيان، وهل يكون عمل الشيطان إلا موجباً لسخط الرحمن؟

٥- أنه جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب، وهو أبلغ من الترك، لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك، بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك، ولذلك نرى القرآن لم يعبر بالاجتناب إلا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والأوثان وسائر مصادر الطغيان، وترك الكبائر عامة، وقول الزور الذي

هو من أكبرها، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج/٣٠].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ﴾ وكما قال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

٦- أنه جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاة له، فدل ذلك على أن ارتكابهما من الخسران والحيبة في الدنيا والآخرة.

٧- أنه جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء وهما شر المفاصد الدنيوية.

٨- أنه جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما عماد الدين وروحه، وزاد المؤمن وعتاده.

٩- وفي قوله تعالى بعد بيان تحريمها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة/٩٢]

[ما يزيد بيان تحريم الخمر تأكيداً، فقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

أي أطيعوا الله تعالى فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما، كما تجتنبون الأنصاب والأزلام أو أشد اجتناباً في كل شيء، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم عما نزله الله عليكم وفق قوله: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»^(١).

(١) تفسير ابن كثير / المائدة / الآية ٩١ - ٩٢.

وقال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة أوجه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها». رواه أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: «العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمتان بما أعطى».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَحْذَرُوا﴾: أي احذروا عصيانهما أو احذروا ما يصيبكم إذا خالفتم أمرهما من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة، فإنه ما حرم عليكم إلا ما يضركم في دنياكم وآخرتكم، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/63].

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولَنَا الْبَلَّغُ

الْمُبِينُ﴾ أي فإن توليتم وأعرضتم عن الطاعة فاعلموا أنما على رسولنا أن يبين لكم ديننا وشرعنا، وقد بلغه وأبانه وقرن حكمه بأحكامه، وعلينا نحن الحساب والعقاب وسترونه في إبانته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وإنما الحساب لأجل الجزاء.

التشريع الحكيم:

ونجد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة / ٩٣].

نجد في هذه الآية الكريمة الجواب الشافي لأسئلة الصحابة بعد تحريم الخمر عن حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر قبل تحريمها لما ورد في الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك، أنه لما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي ﷺ: كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر- أو قال وهي في بطونهم، وأكلوا الميسر، فأنزل الله هذ الآية...

ونفي الجناح نفي الإثم والعصيان، فيما طعموه وشربوه قبل التحريم.

فائدة لغوية:

أصل معنى (طعموا) أنه بمعنى أكلوا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، ويقال: طعم بمعنى أذاق ومصدره الطعم -بضم الطاء- اعتبروه مشتقاً من الطعم الذي هو حاسة الذوق، وتقدم قوله تعالى في نهر طالوت في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه. فمن فصاحة القرآن استعمل فعل طعموا في معنييه، أي في حقيقته ومجازه، وهو من أسلوب التغليب.

أي ليس عليهم إثم بما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار، قبل تحريمها إذا ما اتقوا الشرك وآمنوا بالله وعملوا الصالحات بعد الإيمان، ثم اتقوا الخمر والميسر بعد التحريم وآمنوا بتحريمها، ثم اتقوا سائر المحرمات وأحسنوا إلى الناس والله يحب المحسنين.

وحدة الأمة وصدق الصحابة:

وقد يسأل بعضهم ما حكمة سؤال الصحابة عن شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا، والله لا يؤاخذ أحداً بعمل لم يكن محرماً من قبل فعله.

والجواب: إنها قلوب الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا شديدي الحذر مما ينقص الثواب، حريصين على كمال الاستقامة، فلما نزل في الخمر والميسر أنهما رجس من عمل الشيطان، خشوا أن يكون للشيطان حظ في الذين شربوا الخمر، وأكلوا اللحم بالميسر، وتوفوا قبل الإقلاع عن ذلك، أو ماتوا والخمر في بطونهم مخالطة أجسادهم، فلم يتمالكوا أن سألوا النبي ﷺ عن حالهم لشدة إشفاقهم على إخوانهم.^(١)

التربية القرآنية الحكيمة:

ونلاحظ في الآيات الكريمة التي تلت بيان الحكم بتحريم الخمر والميسر لفئات تربوية توجيهية منها:

- ١- التنبيه إلى ملكة الرقابة الذاتية والحذر من معصية الله تعالى فجاء الأمر بقوله (واحذروا) بعد الأمر بـ (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) لتكون حاسة الحذر من المعصية واستشعار مخافة الله وتقواه في قلب المؤمن وهو يسمع آيات الله.
- ٢- مراعاة حكمة التربية التي تربط بين التمتع بالطيبات والإيمان والتقوى، فللمؤمن أن يتمتع بالطيبات التي أحلها الله، ويقرن تمتعه بالشكر والإيمان والتقوى وعمل الصالحات، وهذا ما ينبه إليه رفع الجناح والإثم فيما طعموا، و أكلوا وشربوا، إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات.

وهنا نلفت الأنظار إلى الفرق بين الحضارة الإسلامية وتربيتها الربانية وبين الحضارة المادية وتربيتها القائمة على الأنانية، والتهالك على متاع الحياة الدنيا وطيباتها. وقد رأى بعض المفسرين عطف هذه الآية وربطها بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ

اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة/٨٨].

(١) التحرير والتنوير / المائدة / آية ٩٣.

والذي أراه أن هذه الآية جاءت في موقعها بعد ذكر قوم من المسلمين كانوا قد تمتعوا بطعام وشراب أحلّ لهم قبل تحريم الخمر، وأن تقواهم وإيمانهم وعملهم للصالحات كان رافعاً للجنح والإثم عنهم، كما يرفع هذا الإثم عن إخوانهم ومن تبعهم بإحسان إذا قرنوا تنعمهم بالطيبات بالتقوى والعمل الصالح والإحسان.

٣- ترتقي التربية القرآنية بمشاعر المسلمين، وأذواقهم، وهي تتدرج بهم: ﴿إِذَا

مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا
وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ تَحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾.

لتكون الاستمرارية، والدوام على التقوى والإيمان والعمل الصالح، والإحسان زاد الجماعة المسلمة إلى الله، كما أن الطعام والشراب زادها في الحياة الدنيا، فهذا غذاء الأجساد، وهذا غذاء القلوب والأرواح، وللمؤمن غاية في الحياة تختلف عن هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ

فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر/٣]، ونبهت الآية الكريمة إلى المقارنة بين الفريقين بقوله

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد/١٢].

وتظهر لنا بعض هذه اللفظات التربوية في تدبرنا للنص الكريم ﴿لَيْسَ عَلَى

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا

وَأَمِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول بعض العلماء في ذلك:

التقوى امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، ولذلك نعطف ﴿وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ﴾ على ﴿اتَّقُوا﴾ من عطف الخاص على العام للاهتمام به، وأما عطف
 ﴿وَأَمِنُوا﴾ على ﴿اتَّقُوا﴾ فهو للإشارة إلى أن الإيمان هو أصل التقوى، والمقصود
 من هذا الظرف الذي هو كالشرط مجرد التنويه بالتقوى والإيمان والعمل الصالح لبيان
 لنا أثر التربية القرآنية بالارتقاء بنفوس المؤمنين ومشاعرهم، ولذلك كان معنى قوله
 تعالى: ﴿وَأَمِنُوا﴾ أي داوموا على الإيمان ولم ينقضوه بالكفر، وجملة ﴿ثُمَّ اتَّقُوا
 وَأَمِنُوا﴾ تأكيد لفظي لجملة ﴿إِذَا مَا اتَّقُوا وَأَمِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
 وقرن بحرف (ثم) الدال على التراخي الرتبي ليكون إيماءً إلى الازدياد في التقوى، وآثار
 الإيمان.

وأما جملة ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسَنُوا﴾ فتفيد تأكيداً لفظياً لجملة ﴿ثُمَّ اتَّقُوا﴾
 وتفيد الارتقاء بالتقوى بدلالة حرف (ثم) على التراخي الرتبي مع زيادة صفة
 الإحسان، وقد فسّر النبي ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن
 تراه فإنه يراك» وهذا يتضمن الإيمان الفاعل المراقب لله في حركات صاحبه وسكناته،
 في طعامه وشرابه، في غدواته وروحاته . . .

التربية في ظل الامتحان والابتلاء:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُمْ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۗ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ ۗ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة/٩٤-٩٦].

من سنن الله في عباده أن يتليهم ليميز المؤمنون بصدقهم، وينكشف المنافقون بنفاقهم، ومن سنن الله في الأمة المجاهدة أن يتليها ليصفي الجماعة المجاهدة من أصحاب القلوب المريضة، وليجعل نصره على يد أحبائه وأوليائه الذين خلصوا له، ورضي عنهم ورضوا عنه.

ومن شواهد ذلك ما قصه القرآن علينا عن بني إسرائيل الذين بحثوا عن الطريق الذي ينقذهم من المصائب الكبرى التي حلت بهم وذلك بإخراجهم من ديارهم وأبنائهم وتشريدهم وذلمهم، فسألوا نبيهم أن يسأل الله تعالى أن يبعث لهم الملك القائد

الذي يوحدهم تحت راية الجهاد في سبيل الله، فاختار الله لهم طالوت ملكاً ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۗ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة/٢٤٩-٢٥١].

وموضع الشاهد أن الملك طالوت قبل خوض المعركة الفاصلة مع المشركين أخبر جنده بالابتلاء الذي سيصفيهم، ويخرج من لم يقهر شهوته في سبيل الله من صفوف المقاتلين، لأن نصر الله يتزل على من نصر الله مخلصاً صادقاً، وخلصت نفسه لله رب العالمين، فأخبر طالوت الجند العطشى بالنهر الذي سيبتليهم الله به، ولم يأذن لهم إلا بشرب غرفة من الماء ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ ولكن أكثر الجند سقطوا في الامتحان، ولم يبق مع طالوت إلا القلة

المؤمنة الصابرة التي أنزل الله عليها نصره، وتتجدد سنة الله في امتحان المجاهدين من الصحابة الذين يقودهم رسول الله ﷺ في الحديبية وبينها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ رَأْيِدِكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن مِّنْكُمْ خَافَهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

قال الألوسي: هذه الآية نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون، فكانت الوحش تغشاهم وهم في رحالهم، وكانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم فهموا بأخذها فترلت... أخرج ابن أبي حاتم / الألوسي / الآية.

ووجه الابتلاء بذلك أن الصيد ألدّ الطعام وأطيبه، وناهيك باستطابته، وبشدة الحاجة إليه في السفر الطويل، وسهولة تناول اللذيذ تغري به، ويؤكد الله سنته في الابتلاء والاختبار بالقسم المفهوم من اللام بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ فيقسم الله تعالى أنه سيختبركم بإرسال شيء كثير من الصيد يسهل عليكم أخذ بعضه بأيديكم، وبعضه برماحكم ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن مِّنْكُمْ خَافَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي يتليكم وأنتم محرمون ليعلم من يخافه غائباً عن نظر الناس، غير مرء ولا خائف من إنكارهم فيترك أخذ شيء من الصيد، ويختار شظف العيش على لذة اللحم، خوفاً من الله تعالى وطاعة له في سره - أو يخافه حال كونه متلبساً بالإيمان بالغيب الذي يقتضي الطاعة في السر والجهر، وإن الله يعاملكم معاملة المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء، وإن كان علام الغيوب، لأن هذا من ضروب تربيته لكم وعنايته بتزكيتكم ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ

(١) تفسير الألوسي / المائدة / آية ٩٤ .

بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي فمن اعتدى بأخذ شيء من ذلك الصيد، بعد ذلك البيان والإعلام الذي أبحركم الله تعالى به قبل وقوعه، فله عذاب شديد في الدنيا والآخرة.

مبدأ تربوي عظيم:

وهنا نلاحظ عظمة التربية القرآنية في أمرين: الأول في تصفية صفوف المجاهدين ليتنزل النصر على أوليائه وأصفيائه وهذا ما وجه إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائد الجيش المسلم لفتح بلاد فارس سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «يا سعد سعد بني وهيب احذر على جنودك من المعاصي أشد من حذرك من الأعداء، فإنما نتنصر على أعدائنا بطاعتنا لله، وبمعصيتهم له...».

أما الأمر الثاني فهو استحضار المسلم رقابة الله وخشيته، حين يتعرض في ستر الغيب، لامتحان بامرأة جميلة، أو رشوة مغرية، أو صفقة تجارية مشوبة بالحرام—ولا يدري بها أحد— أو إغراء بالتعاون مع الظالمين، أو أعداء الإسلام تحت ستار السرية!! وغير ذلك كثير.. فاستحضار المؤمن لرقابة الله تعالى وأن هذا العرض من امرأة جميلة، أو ظالم، أو تاجر مطيع مع اليهود، هو الصيد الحرام الذي جعله الله ميسراً سهلاً بين يديه مستوراً عن عيون الناس ليعلم الله من يخافه بالغيب، وأن الذي يجترئ على مثل هذا الصيد، هو أشد إثماً، وأعظم جرماً، ممن قتل صيداً في الحرم له كفرته.. أما الخائنون لدينهم، وأوطانهم، وأنفسهم، فلهم العذاب الأليم الشديد، إذا لم يتوبوا، ويصلحوا، ويرجعوا إلى الله، وفي قوله تعالى ﴿تَنَالُهُمُ آيَاتُنَا وَإِن جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا وَمَا يَحْكُمُوا﴾ ما يبين لنا صفة الابتلاء، وأنه قد يجعله الله تعالى سهلاً، ميسراً، بين يدي الممتحن، تناله يده بسهولة، أو يناله رحمه، وقدرته، ووظيفته، ومركزه الاجتماعي، وماله، وجاهه،

ويكون مخفياً عن عيون الناس لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ عن عيون الناس، أو من يخافه تعالى مستحضراً رقيبته في قلبه أي من يخاف الله، وهو غائب عن الله أي غير مشاهد له، كشأن المؤمنين في هذه الحياة الدنيا يخافون الله خوفاً بالغيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك/١٢] وفائدة ذكره أنه ثناء على الذين يخافون الله أتني عليهم بصدق الإيمان، وتنور البصيرة، فإنهم خافوه ولم يروا عظمته وجلاله ونعيمه وثوابه، ولكنهم أيقنوا بذلك عن صدق واستدلال.

وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسي: «إهم آمنوا بي ولم يروني، فكيف لو رأوني»^(١).

عدالة التشريع وحكمة التربية:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامٌ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لَّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة/٩٥].

حرم الله الصيد في حالين: حال كون الصائد محرماً، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالاً؛ تعظيماً للكعبة ومسجدها الحرام، وأمر - تعالى -

(١) التحرير / المائدة / آية ٩٤.

بأن يكون لها حمى وحرم، كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وعظمه تعالى بأقصى ما يعد حرمة وتعظيماً، فجعله ممتداً واسعاً وأمناً للناس، ووسع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمة، وبيّن للمحرمين من العمّار والحجاج، ولساكني الحرم أخلاقاً وآداباً، يستعلون بها على الجدل والخصام، والظلم، فإذا كانت الحسنة في حد ذاتها حسنة، فهي في هذا الحرم أحسن، وإذا كانت السيئة في حد ذاتها سيئة فهي في الحرم أسوأ، وقد بيّن الله هذه الآداب بقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة/١٩٧].

وقد حرّم النبي ﷺ المدينة كما حرّم الله تعالى مكة، وحرّم مكة معلوم بحدود من قبل الإسلام، وهو الحرم الذي حرّمه إبراهيم عليه السلام ووضعت بحدوده علامات في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأما حرم المدينة فقال النبي ﷺ ((المدينة حرم ما بين غير أو عائر (جبل) إلى ثور)).

التربية والتشريع:

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِبَلِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۗ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة/٩٥].

يبين لنا منهج التربية الربانية التي تفتح باب التوبة عن الخطأ، وتطهر النفس بالندم على الفعل الحرام، وتدعوها للكفارة التي يجد فيها مرتكب الخطأ الوسيلة التربوية الشافية التي تطهره من الإثم، وهذا ما يبينه تفسير الآية التي تحاطب المؤمنين بصفة الإيمان: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون، ومن قتل منكم الصيد وهو محرم، فعليه جزاء من النعم مماثل الصيد المقتول، ومقارب له في الخلقة، والمنظر، أو في القيمة، وهذا الجزاء المماثل للصيد المقتول يحكم به رجلان عدلان أصحاب خبرة، ويكون هذا الجزاء هدياً بالغ الكعبة يصل إلى الحرم فيذبح فيه، ويتصدق به على مساكينه، أو يكون على قاتل الصيد كفارة هي ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ بأن يطعمهم من غالب قوت البلد ما يساوي قيمة هذا الجزاء المماثل للصيد المقتول، بحيث يعطي لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ أو صاعاً من غيره، أو يكون عليه ما يعادل هذا الطعام صياماً، بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وما قلّ عن طعام المسكين يصوم عنه يوماً كاملاً. وإذا لم يوجد للصيد المقتول مماثل كالعصفور، وما يشبهه فعليه قيمته، ويشترى بها طعاماً لكل مسكين مُدّاً، أو يصوم عن كل مُدٍّ يوماً، والمراد بالكعبة في الآية الحرم، وخصت بالذكر تعظيماً لها.

ويرى بعض العلماء أن التخيير في الآية ليس على حقيقته، وإنما هو ترتيب مراتب على حسب القدرة على كل رتبة، فالأصل بلا ريب شراء هدي وذبحه في الحرم، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام، وذهب بعضهم إلى أن الترتيب حسب القدرة. (١).

وفي قوله تعالى: ﴿لَيَذُوقَ وَنَالَ أَمْرِهِ﴾ تعليل لإيجاب الجزاء السابق على

المحرم القاتل للصيد عن تعمد، وبيان لحكمته التربوية، والمراد به إدراك ألم المخالفة

(١) الوسيط / المائدة / ٩٥.

والمعصية بانتهاك حرمة الحرم، ومحاسبة النفس على ما صنعت، والتطهر من الإثم بذبح الهدى، أو الصوم، أو إطعام المساكين.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله بعباده

ولطفه بهم، لأنه سبحانه لم يؤاخذهم على قتلهم للصيد وهم محرمون، قبل تحريمها والنهي عنها.

التشريع الحازم:

وختم الله سبحانه الآية الكريمة بتهديد شديد لمن تتكرر منه المخالفة، ويجترئ على حرم الله بقتل صيده، أو ترويع أمنه، أو مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه فقال:

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ وإن هذا التهديد الإلهي

جدير بأن يملك قلوب المؤمنين، ليعرفوا أن لحرم الله حرمة العظمى، وأن المعاودين للعدوان في الحرم، كانوا في موضع الانتقام الإلهي من صاحب البيت والحرم، الذي يغضب لحرمه، وبيته، والله عزيز غالب ذو انتقام. ومن فقه هذه الآية لبس ثياب العبودية والتواضع والتذلل لله سبحانه، من ساعة إحرامه، أو ساعة دخوله أرض الحرم، وكان في خلقه، وأدبه، المؤمن الكريم، الحبي، يعيش السلام في كلمته وعمله، وتصرفاته، ويعيش مع الصالحين والعباد الصادقين خلقاً كريماً، وعملاً حميداً، فالويل، لمن طوعت له نفسه الفسوق في الحرم، والويل والهلاك لمن ارتكب المعصية ثم أعادها، وقد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من القصد للمعصية، كما حذرنا من المعصية

بالحرم بقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وبين

النبي ﷺ حالة السلام التي يعيشها المؤمنون في ظل الإحرام والحرم بتحريم صيده، وشجره، وطيّره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز قتلها،

والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» وفي رواية الحية بدل العقرب. ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور: الذئب، والسبع، والنمر، والفهد، لأنها أشد ضرراً منه...^(١).

رحمة الشريعة بالتوسعة على الناس:

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة/٩٦] بعد أن بين الله التحريم على المحرم بالحج أو العمرة، وتحريم الصيد في أرض الحرم، استثنى برحمته الواسعة صيد البحر من التحريم، وأبقاه على الإباحة، لأن صيد البحر ليس من حيوان الحرم، إذ ليس في شيء من أرض الحرم بحر، ولأن أصل الحكمة في حرمة الصيد على المحرم هي حفظ حرمة الكعبة وجرمها. ومعنى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ إبقاء حليته لأنه حلال من قبل الإحرام، والخطاب في ﴿لَكُمْ﴾ للذين آمنوا، والبحر يشمل الأنهار، والأودية لأن جميعها يسمى بحراً في لسان العرب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ...﴾ الآية. وليس العذب إلا الأنهار كدجلة والفرات.

(١) تفسير ابن كثير / المائدة / ٩٥.

وصيد البحر: شاملة لكل دواب الماء التي تصاد فيه، فيكون إخراجها منه سبب موتها قريباً أو بعيداً.

فأما ما يعيش في البر وفي الماء فليس من صيد البحر كالضفدع، والسلحفاة،

وقوله: ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي وطعام البحر، والمقصود به هو ما طفا على البحر من ميتة إذا

لم يكن سبب موته إمساك الصائد له، ويبين هذا حديث رسول الله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته». وحديث جابر في الحوت المسمى العنبر حين وجدوه ميتاً، وهم في غزوة، وأكلوا منه، وأخبروا رسول الله وأكل منه رسول الله ﷺ. وفي قوله:

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمتاع ما يتمتع به، والتمتع: انتفاع بما يلد ويسر، والمعنى

أي متاعاً للصادقين وللسيارة وهي الجماعة السائرة في الأرض للسفر والتجارة، مؤنث (سيار) والتأنيث باعتبار الجماعة، والمعنى أحل لكم صيد البحر تتمتعون بأكله، ويتمتع به المسافرون، أي تبعونه لمن يتجرون، ويجلبونه إلى الأمصار.

ثروة البحر الاقتصادية:

وقد نبهنا ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ إلى مايلي:

١- أن تحافظ الأمة الإسلامية على سيادتها على بحارها كما تحافظ على برّها،

وأن الوطن ببرّه وبحره وجوه لكم، وفي قوله: ﴿لَكُمْ﴾ أي للذين آمنوا، ولا يجوز

أن نترك بحار المسلمين هباً للأمم الأجنبية، تقتحم أساطيلها حرمة بحارها، وتنهب ثروتها السمكية والمائية، وقد بين الله تعالى أنها متاع لكم أيها المؤمنون، وللتجار الذين تبعونه لهم ويجلبونه إلى الأمصار، لتبقى ثروة الأمة المائية والبحرية لها لا لغيرها.

٢- أن السيادة على البحر جزء من السيادة على البر، لتكون أرض الإسلام بثرواتها المعدنية، والمائية، والجوفية، والبتروولية -لكم- لا لغيركم. أنتم الذين تنتفعون بها، وتدعمون بها اقتصادكم وتجارتكم، ويعود خيرها لمناع المسلمين ورفاههم وحاجاتهم، لا لمناع الأجنبي ومصالحه.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ﴾ زيادة

تأكيد لتحريم الصيد تصريحاً بمفهوم قوله: ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ وليبان أن مدة التحريم مدة كونهم حرماً أي محرمين، أو مارين بحرم مكة، وهذه إشارة لتقليل مدة التحريم، وإيناس للمكلفين بالتخفيف، وإلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدة، ولو شاء الله لحرمه أبداً. وفي الموطأ: أن عائشة رضي الله عنها قالت لعروة بن الزبير رضي الله عنهما: يا ابن أخي، إنما هي عشر ليال (أي مدة الإحرام) فإن تخلج في نفسك شيء فدعه. تعني أكل لحم الصيد.

وختم الآية بقوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٤٦) يصلنا

بمنهج القرآن العظيم في تربية النفوس وإعدادها في مدرسة الحج والعبادة، و الإحرام وأحكامه، لتستعد للقاء الله، وتزود ليوم الحشر العظيم الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا إيمانه وعمله وخشيته لله رب العالمين.

الكعبة معلم التوحيد والوحدة:

من خصائص الأمة الإسلامية الحضارية تعظيمها للكعبة وقيامها برسالة الله ووراثتها لرسالة إبراهيم والبيت الحرام معلماً للتوحيد وعلماً للوحدة.
من فضل الله على هذه الأمة هذه الكعبة المشرفة ومسجدها الحرام قبلة المسلمين، الذي أمر خليله إبراهيم عليه السلام ببنائها لتكون قياماً للناس، والقيام في

الأصل مصدر قام إذا استقل على رجليه، ويستعار للنشاط، ويستعار للتدبير والإصلاح، لأن شأن من يعمل عملاً مهماً أن ينهض له، وإنما كانت الكعبة قياماً للناس، لما صاحبها من أحكام وحكم تمثل وحدة الأمة الإسلامية، بالقبلة وبمؤتمر الحج العظيم الذي يقام كل عام، وبنسك العمرة، وبشعائر الحج وشدّ الرحال إلى هذا البيت العظيم، فالحاج إلى البيت الحرام يجسد وحدة الأمة الإسلامية ويعمق أواصرها وتفتح لهم أبواب التعاون العلمي والاقتصادي والسياسي والعسكري وغيرها من أبواب التعاون الذي يعمق كيان الأمة ووحدها، ويدفع عنها الأخطار.

الكعبة في تاريخ النبوة:

وقد كانت الكعبة معلماً لقيام الأمة المسلمة عقيدة وحضارة وثقافة، لأن الله لما أمر إبراهيم عليه السلام بأن يتزل في مكة وزوجه وابنه إسماعيل، وأراد أن تكون نشأة العرب المستعربة (وهم ذرية إسماعيل في ذلك المكان لينشأوا أمة أصيلة الآراء، عزيزة النفوس، ثابتة القلوب، لأنه قدر أن تكون تلك الأمة هي أول من يتلقى الدين، أراد أن يكون خاتم الرسالات، وأفضل الأديان وأرسخها، وأن يكون منه انبثاث الإيمان الحق والأخلاق الفاضلة، فأقام لهم بلداً بعيداً عن التعلق بزخارف الدنيا، فنشأوا على إباء الضيم، وتلقوا سيرة صالحة نشأوا بها على توحيد الله والدعوة إليه، وأقام لهم الكعبة معلماً لتوحيد الله تعالى، ووضع في نفوسهم ونفوس جيدهم تعظيمه وحرمة.

وكان أهل مكة وحرمةا يسيرون في بلاد العرب آمنين، لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكانت الكعبة قياماً للناس وهم العرب، إذ كانت سبب هدايتهم إلى الإسلام دين التوحيد الحق، وكانوا في جاهليتهم يحجون للبيت بما ورثوه من بقية الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، فلما جاء الإسلام كان الحج إليها من أفضل الأعمال، وبه تكفر الذنوب، فكانت الكعبة قياماً للناس في أمور أخراهم بمقدار ما يتمسكون بأخلاقه

وهديه، كما كانت قياماً للناس في أمور دنياهم بمقدار ما يحققون من حكمه ومقاصده.

فإن الله قد جعل الكعبة التي هي البيت الحرام قياماً للناس الذين يقيمون بجوارها والذين يحجّونها، وقياماً للمسلمين الذين يشدون الرحال إليها حاجين ومعتمرين، وقياماً للأمة المسلمة التي وحدتهم القبلة في صلاتهم وعبادتهم، فهي سبب لقيام مكونات الأمة وعناصرها، عقيدة، وتراثاً، وحضارة، وأخلاقاً، وشعائر، ومشاعر، وتعاوناً على الخير والبر والتقوى.

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر القيام هنا بقوله: قياماً لدينهم، ومعالم لحجهم، وروي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه فيه ثلاث حكم:

- ١- صلاحاً لدينهم.
- ٢- وشدة لدينهم -أي قوة لدينهم-.
- ٣- وعصمة في أمر دينهم.

المعنى الحضاري العظيم في شعائر الحج:

روى ابن جرير عن أبي زيد قال: كان الناس فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض، ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض، فجعل الله لهم البيت الحرام قياماً يدفع بعضهم عن بعض به، والشهر الحرام كذلك يدفع بعضهم عن بعض بالأشهر الحرم، والقلائد، ويلقى الرجل قاتل أبيه وابن عمه فلا يعرض له. وعن ابن شهاب: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام يأمنون به في الجاهلية الأولى لا يخاف بعضهم بعضاً حين يلقوهم عند البيت أو في الحرم أو في الشهر الحرام.

وفي ظل شريعة الإسلام كان التشريع الحكيم الذي جعل الكعبة وبيتها وحرمها الممتد الواسع حرماً آمناً لتتحقق فيه للمسلمين مصالحهم الدنيوية والدنيوية، وسمي البيت الحرام لأن الله تعالى حرّمه وعظّمه وشرّفه، وحرّم أن يصاد فيه، وأن يُعضد شجره،

وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش، وملاذ للخائفين، فكذلك هو محصول الخيرات، وبهذا جعله الله قياماً لهم وسبباً لانتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائفون، ويأمن فيه الضعفاء، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمّار، وجعل (الشهر الحرام) الذي يؤدي فيه الحج و(الهدى والقلائد) أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقلائد البدن خُصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، والهدى الذي يهدى للحرم من الأنعام.

﴿ذَلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ﴾ أي لتصلوا بحكمة الدين كما تقومون بأحكامه وحتى لا تنفصل الحكمة عن الحكم، وتكون شعائر الحج عبادات شكلية لا يتصل مؤدوها بحكمة الحج في تعظيم الله ورقابته وخشيته وتحقيق مقاصده في توحيد المسلمين وتعاونهم على نصره دينهم. وجدير بأمة تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم أن تطهر قلوبها وتزكي أعمالها وتصلح شؤونها على هدى شريعة الله العزيز العليم الحكيم.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نجد الوعيد لمن انتهك محارم الله، كما نجد الوعد بالمغفرة والرحمة لمن حافظ على مراعاة حرّماته تعالى، وعاش العبادة معنى وعملاً وروحاً تزيده قريباً من مولاه، ومسارة لمرضاته.

وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ إغذار الناس، لأن الرسول قد بلغ إليهم ما أراد الله منهم فلا عذر لهم في التقصير، والمنة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير، وقوله ﴿وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿ عطف على جملة ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهي تميم للتعريض بالوعيد والوعد، تذكيراً بأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها.

التربية والتشريع:

وهنا نجد بعد آيات الأحكام التي بينت أصولاً سلوكية وأخلاقية وعبادية واجتماعية في بناء المجتمع الإسلامي وتحديد هويته الحضارية، والتي بينت الهداية الربانية في تعامل المسلم مع الطيبات، لا غلو ولا إسراف ولا تقتير، وتعامله مع موثيقه وأيمانته، يحافظ على تعظيم اسم الله، ولا يجعل الحلف به حاجزاً عن الخير، وفي تحريمه للخمر والميسر حفظاً للعقل والمجتمع، وتحريمه للصيد على المحرم، وفي أرض الحرم، حفظاً للأمن وتعظيماً للحرمة، وتربية للنفوس على أن تعيش أحكام الشريعة، وتوجيهاتها السلوكية التربوية عملاً وواقعاً، لأن التربية العملية السلوكية جهاد للنفس وتطهير في ظل الحرم والإحرام، تعدّ أصحابها للاستقامة في حياتهم - بعد ذلك - على هدي الشريعة وقيمها وأخلاقها.

بعد ذلك نجد التوجيه الرباني الذي يجعل هذه الأحكام والتوجيهات في رقابة الله وخشيته في نفوس المؤمنين ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿ [المائدة/٩٧-٩٨].

تعميق الوعي الإيماني وتأصيله :

وحتى لا ينهر المسلمون بالكثرة الضالة عن أحكام الله، وحتى يزدادوا صلابة وتمكساً بدينهم أمام ضغوط الجاهلية، وغلبة تيار الباطل، حصّنهم الله بالتقوى والوعي فقال: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ زُلَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

وحذرهم أن يفسحوا الطريق للعادات الضارة، في اختراع الأسئلة عن أمور لم تقع، ووجههم إلى أن يتحلوا بخلق الدعاة بالمسارعة لتنفيذ أحكام الله التي عرفوها، والتطلع إلى العلم النافع، وأن الله متولي أمورهم، فيما يجد من وقائع، ومبين لهم حكمها، فلا يستعجلوا، ولا يغالوا بالسؤال.

وهذا ما بينه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ

إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة/١٠١-١٠٢].

ثم جاء التوجيه الرباني الذي يستنهض أبناء المجتمع المسلم، ليحرسوا أحكام الإسلام في مجتمعاتهم، ولا ينهروا بالكثرة الضالة فتصددهم عن الهدى، ولا يياسوا من روح الإصلاح، وتعميق أواصر المجتمع، ومعالم الشرع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لأنهم إذا تحصنوا بالتقوى وإقامة أحكام الله في مجتمعاتهم حاكماً ومحكوماً، راعياً ورعية، لا يضرهم كيد أعدائهم، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿المائدة/١٠٥﴾.

وقفه عند توجيه هذه الآيات الكريمة :

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

الْخَبِيثِ﴾ تحديد للمقياس السليم، الذي يقيس به المسلم الأمور ويحكم عليها، فهو لا يغتر بالكثرة، ولا ينهر بها، ولكنه يرى الخير في الطيب الحلال ولو كان قليلاً، ويرى الشر في الخبيث الحرام ولو كان كثيراً، وكلمة ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ تعني نفي المساواة، وهي المماثلة، والمقاربة، والمشابهة، وهنا نجد ما يشكل قلوب المؤمنين التي يصيغها الله على عينه، فلا تتعلق إلا بما يرضي الله، ولا تعجب بما يسخط الله، ولو تحركت له القلوب، وتطلعت إليه الأنظار، وتفريع قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ مؤذن بأن الله يريد منا أعمال النظر والفكر في تمييز

الخبيث من الطيب وألا نقلد على عماية، وليس قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

الْخَبِيثِ﴾ بمقتضى أن كل خبيث يكون كثيراً، ولا أن يكون أكثر من الطيب، وإنما المراد ألا تعجبكم من الخبيث كثرته إذا كان كثيراً فتصرفكم عن التفكير في خبثه، وتدعوكم إلى متابعته لكثرته، وانظروا إلى الأشياء بمقياس الشرع لتروها بصفاتها، ومعانيها، لا بأشكالها ومبانيها. وفي هداية هذا المعنى يقول الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ:

﴿ وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه/١٣١].

قال صاحب الكشاف في تفسيرها: ((ومد النظر تطويله، وأن لا يكاد يردده، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص/٧٩].

حتى واجههم أهل العلم والإيمان: ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص/٨٠].

ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة،
وعُدّد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون
النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم، وكالمغري لهم على اتخاذها.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أعطينا وخولنا أصنافاً من
الكفرة زهرة الحياة الدنيا وهي زينتها وبهجتها لنفتنهم ونبلوهم أو لنعذبهم في الآخرة
بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وهو ما ادخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه
وأدوم. (١).

وهنا نجد كيف تحصن التربية القرآنية قلوب المؤمنين في مواجهة إغراءات الكثرة
بالمال، والمنصب، والولد، والجاه، والنساء، وغيرها، وكيف يصيغ الله قلب المؤمن
صياغة تستعصي على كل أسباب الفتنة، وتستعلي عليها لنجد في ظل هذه التربية
الربانية الحاكم العادل، والتاجر الأمين، والمجاهد الصادق. ولصاحب المنار رحمه الله
لفترات تربوية عند تفسيره لهذه الآية بقوله: ((ثم إنه تعالى لما بين الجزاء، وكونه منوطاً

(١) تفسير الكشاف / طه / ١٣١.

بالأعمال، أراد أن يبين ما يتعلق به الجزاء من وصف الأعمال والعاملين لها. فأثبت وجود حقيقتين متضادتين يترتب على كل منهما ما يليق بها، وهي حقيقة الطيب، وحقيقة الخبيث، فقال ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطباً كل فرد من أفراد أمة الدعوة: لا يستوي الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأموال كالضار والنافع، والفاسد والصالح، والحرام والحلال، ولا من الناس كالظالم والعاقل، والجاهل والعالم، والمفسد والمصلح، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر: فلكل من الخبيث والطيب في القسم الأول حكم يليق به عند الله تعالى، ولكل منهما في القسم الآخر جزاء ومكان يستحقه بحسب صفته).

ويضرب المفسر الإمام بعض الأمثلة التوضيحية فيقول: «لا يستويان في أنفسهما ولا عند الله، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك .. فلا تذهب عنك الحقيقة وهي: أن القليل من الحلال كراتب الحاكم العادل، أو الموظف الأمين، وربح التاجر الصادق، خير من كثير الحرام كالرشوة والخيانة، باعتبار حسن العاقبة في الدنيا والآخرة»^(١). وهذا ما نبه إليه الإمام الغزالي في أثر أورده في رسالة (أيها الولد): «لا يعجبك رحب الذراعين بالدم، أي الحاكم الظالم الذي يرهب الناس ببطشه واستبداده، ولا جامع المال من غير حله، فما تصدق منه لا يقبل، وما بقي كان زاده إلى النار»^(٢).

ونجد أمة الإسلام التي يسارع أبناؤها في الخيرات يدعون ربهم رغباً ورهباً، وهذا ما وجهنا القرآن الكريم إليه بقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ

(١) تفسير المنار / المائدة / ١٠٠.

(٢) رسالة "أيها الولد" للإمام الغزالي.

عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَقَابِ ﴿١١﴾ * قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۗ لِلَّذِينَ
 اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
 مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ
 رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
 وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ [آل عمران/١٤-١٧].

وهنا نجد شخصيتين: شخصية المفتون بالكثرة وشهواتها، وشخصية المؤمن
 المتطلع إلى الجنة وخيراتها، وهؤلاء قلوبهم، وأخلاقهم، ولأهل القرآن والإيمان قلوبهم
 وأخلاقهم. ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
 إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١).

الأمة الإسلامية أمة جادة:

ويوجه الله أمة الإسلام لتكون أمة جادة تستقبل أحكام الله حين تنزل لتعمل
 بها ولا تتكلف الأسئلة عن أمور، قد يكون تأخير بياها رحمة للمسلمين، فقال تعالى:
 ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا
 حاجة لكم فيها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. عن أبي هريرة رضي الله عنه
 قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجّوا، فقال
 رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً»، ثم قال ﷺ: «ذروني ما
 تركتكم، ولو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة

(١) آل عمران / ٨.

سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا هيئتم
عن شيء فاجتنبوه» أخرجه مسلم.

﴿أَشْيَاء﴾ هو اسم جمع، وقيل هو جمع شيء ﴿إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾

أي إن ظهرت لكم وكلفتكم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحملونها ﴿وَإِنْ
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ ظرف يجوز تعلقه بفعل الشرط، وهو

﴿تَسْأَلُوا﴾ ويجوز تعلقه بفعل الجواب وهو ﴿تُبَدَّ لَكُمْ﴾، قال صاحب التحرير:

«وهو أظهر إذ الظاهر أن حين نزول القرآن لم يجعل وقتاً لإلقاء الأسئلة بل جعل وقتاً
للجواب عن الأسئلة. وتقديمه على عامله للاهتمام، والمعنى أنهم لا ينتظرون الجواب
عما يسألون عنه إلا بعد نزول القرآن لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي

خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۗ إِن أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا

يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام/٥٠]

فنبههم بهذا على أن النبي يتلقى الوحي من علام الغيوب. فمن سأل عن شيء
فلينتظر الجواب بعد نزول القرآن، ومن سأل عند نزول القرآن حصل جوابه عقب
سؤاله. (١).

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ توجيه لاستقبال

التشريع في حينه، وفي هذه الجملة الكريمة يبدو توجيه ربنا تبارك وتعالى للأمة المسلمة

(١) التحرير والتنوير / المائدة / ١٠١.

ألا تستعجل الأمور قبل أوانها، وأن الله المشرع الحكيم أعلم بحاجاتهم، وما يصلحهم، وأن الله العليم الحكيم سينزل من الآيات ما فيه شفاء صدورهم، وإصلاح أحوالهم، حين يأتي الوقت المناسب لبيان هذه الأحكام، وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ تقرير لمضمون قوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ أي إن الله لهاكم عن المسألة وعفا عنكم أن تسألوا حين ينزل القرآن، وتكون المرحلة الزمنية مناسبة لبيان هذه الأحكام.

الأدب مع المشرع الحكيم:

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا

كُفْرِينَ﴾ توجيه لأمة الدعوة أن يكون أديبا مع صاحب الرسالة كاملاً وأن تنتفع بأحوال الأمم السابقة الذين تجرؤوا وسألوا أسئلة لم يحن وقتها فكفروا بها، وجدير بالأمة المسلمة أن تتأدب مع رسول الله وشرعية الله التي يبلغها، وأن تثق بحكمة الله العليم الخبير، وأن تحسن التلقي عن الله والاستجابة لحكمه، والبعد عن أسباب التسرع والعجلة التي اتصف بها بنو إسرائيل فكانت من أسباب هلاكهم وخسراهم.

إن الثقة بتدبير الله وحكمته، يحرر النفوس من الطيش والسؤال المتسرع، وإن الإيمان الحق يورث الأدب الحق ويرتقي بالجماعة المسلمة لمقام الصديقين، ويشغلهم فيما ينفعهم من فرائض الله عبادة وجهاداً و تزكية.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره للذين هأهم من أصحاب رسول الله ﷺ عن مسألة رسول الله ﷺ عما هأهم عن مسألتهم إياه، عن فرائض لم يفرضها عليهم، وتحليل أمور لم يحللها لهم، وتحريم أشياء لم يحرمها عليهم - قبل نزول

القرآن بذلك- يا أيها المؤمنون السائلون عما سألوا عنه رسول الله ﷺ مما لم أنزل به كتاباً ولا وحياً لا تسألوا عنه فإنكم إن ظهر ذلك لكم تبياناً بوحى وتزيل ساءكم لأن التزيل بذلك إذا جاءكم فإنما يجيئكم بما فيه امتحانكم واختباركم...»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في بيان هذا الوجه: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد يترل بسؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» ولكن إذا نزل القرآن بما جملة فسألتم عن بياها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها ﴿عَفَا اللَّهُ

عَنْهَا﴾ أي ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها. وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم». وفي الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»^(٢).

من خصائص الأمة الحضارية:

تطهير المجتمع الإسلامي من عادات الجاهلية، وإعلان هويته الحضارية وأحكامه التي تميزه بطعامه وشرابه، وأيمانه، وصيده في الحل والحرم، وتحفظ عليه ثروته الاقتصادية والزراعية والبشرية وتحصّنه بالمحافظة على هويته، قال الله تعالى: ﴿مَا

جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْحِيقَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا يَكُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) تفسير ابن جرير الطبري / المائدة / ١٠١.

(٢) تفسير ابن كثير / المائدة / ١٠١.

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأَوْلَوْ
كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١١٤﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ۖ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿المائدة/١٠٣-١٠٥﴾.

بعد أن بيّنا في تفسير هذه السورة سابقاً خصائص الأمة الإسلامية الحضارية:
أمة الرسالة والعقيدة والوفاء بالعقود، أمة الطهارة والعفة، أمة العدل والأمن، أمة
التنزه عن المطاعم المحرمة، والخمور، والميسر، التي تغتال العقول وتهدر الأموال، نجد
في هذه الآيات الكريمة استكمالاً لمقاصد السورة في تطهير المجتمع الإسلامي من عادات
الجاهلية التي كانت تهدر اقتصادهم، وتهلك ثروتهم الحيوانية لمصلحة الكهان والزعماء
المرتبطين بهم فكان يرى قطعان الماشية المخصصة للأضنام وكهنتها، تسرح في باديتهم،
وهم في حال من الجوع والفقر الذي قتلوا بسببه أولادهم من إملاق، فنزلت آيات
القرآن تحرم عادات الجاهلية وتحفظ على الإنسان ماله وثورته بعد أن حررهم من
العقائد الوثنية، وهذا ما يتبين لنا في تفصيل هذه المحرمات: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ
مُحْيِرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۖ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

(فالبحيرة) فعيلة بمعنى مفعولة. وهي الناقة التي يبشرون أذنها أي يشقونها شقاً
واسعاً، إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الخامس أنثى.

(والسائبة) الناقة التي تسبب بنذرها لآهنتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شيء، ولا يجزّ صوفها، ولا يحلب لبنها إلا لضعيف، فهي اسم فاعل من قولهم: ساب الفرس ونحوه، أي ذهب على وجهه حيث شاء.

(والوصيلة)، الشاة التي ولدت ذكراً وأنثى، فلا يذبحون أحاها. من أجلها ويقولون: وصلت أحاها، أما إذا ولدت ذكراً فيذبحونه لآهنتهم.

(والحام)، اسم فاعل من الحماية: وهو الفحل من الإبل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون حمى الفحل ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء أو مرعى.

وقد ارتبطت هذه المحرمات والعادات بعقائد الجاهلية وشركها لتحول ثروة الأمة للطواغيت والكهنة، والمتنفعين بهذا النظام الجاهلي الوثني المشرك.

روى البخاري ومسلم والنسائي عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة هي التي يكون درّها للطواغيت ... والسائبة: هي التي كانوا يسيبونها لآهنتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة: كانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينها ذكر، والحام فحل الإبل يضرب الضرائب المعدودة، فإذا قضى ضرابه تركوه للطواغيت ولا يحملون عليه شيئاً».

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجِيرَةٍ ... ﴾ جعل هنا بمعنى شرع ووضع،

و (من) زائدة لتأكيد النفي، والمعنى: ما شرع الله تعالى شيئاً مما حرمة أهل الجاهلية على أنفسهم من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، وهذه الحيوانات حرم أهل الجاهلية أكلها، والانتفاع بها من عند أنفسهم دون علم أو برهان، وهم في هذا التحريم إنما يفترون على الله الكذب الصريح القاطع، بسبب كفرهم وضلالهم، وأكثرهم لا يفقهون الحق ولا يستجيبون له انقياداً لأهوائهم ورؤسائهم.

وقد تحالفت في الجاهلية سلطة كهنة الأصنام، مع الرؤساء والزعماء وكانوا المستفيدين من هذه الأنعام التي حرّموها لمصلحتهم وحرّموا أصحابها والفقراء منها

وهذا ما نبهنا الله إليه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ والمراد به رؤساؤهم وزعمائهم الذين يأتون لعوامهم بالأحكام الفاسدة، والمزاعم الباطلة، وينسبونها إلى دين الله كذباً وزوراً.

والمراد بأكثرهم في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عوامهم ودهماؤهم الذين يسرون خلف كل ناعق بدون تفكير أو تدبر.

وهنا نلاحظ عظمة التشريع الذي يحرر العقول من الخرافات والأوهام والشعوذة والدجل وتقليد الآباء والعقائد الفاسدة، التي من شأنها أن تعطل العقول، وتعمي الأبصار، وتهدر قوة المجتمع الاقتصادية، والعقلية، والبشرية.

وهذا ما نبهنا ربنا إليه في الآية التالية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة/١٠٤].

التقليد الأعمى للآباء وهداية القرآن:

ويوجهنا ربنا تبارك وتعالى إلى هداية القرآن العظيم في تحرير العقل البشري من تقليد الآباء بالباطل، كما حرره من العقائد الفاسدة القائمة على الكهانة و الخرافة فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ (وتعالوا) تستعمل في طلب الإقبال، وفي إصغاء السمع، ونظر الفكر، وحضور مجلس الرسول ﷺ، وعدم الصد عنه، و ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: هو القرآن. وعطف ﴿وَإِلَىٰ الرَّسُولِ﴾ لأنه يرشدهم إلى فهم القرآن، والمعنى: إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله تعالى من الأحكام المؤيدة بالحجج والبيئات المبنية على هداية الوحي وسلامة الفطرة والعقل بعيدة عن العبث والخرافات وإلى الرسول

المبلغ لها والمبين لجمالها، فاتبعوه فيها، قالوا يكفيننا ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وأحكام، وحلال وحرام، وكان ردّ القرآن عليهم: ﴿أُولَؤْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وهذا ما ذكره الله في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَؤْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة/١٧٠].

وفي ردّ القرآن هذا بيان كيف يرتقي التوجيه الرباني بالعقول حين يدعوها لتنظر، وتتدبر، وتفكر، ولا تكون عصبيتها لتقليد الآباء حاجباً لها عن نور الشريعة وهدايتها، وهذا ما نبهنا الله إليه بقوله: ﴿أُولَؤْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أُولَؤْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وإنما تعرف الأمم ما يكفيها لإصلاحها والنهوض بها بالعلم الصحيح والعقل السليم الذي يميز بين الحق والباطل والاهتداء إلى الأعمال الصالحة والفضائل، وهذا العلم هو الذي هدى الله العقول إليه بالوحي الذي أنزله والرسول الذي بلغه. وهنا نجد التوجيه الإلهي الكريم الذي حرر العقل البشري من التقليد الأعمى وفتح الطريق للعلماء والمجتهدين لبناء الحضارة الإسلامية بهداية الوحي ونور العلم وإعمال العقل والفكر بعيداً عن العصبية والتقليد الأعمى.

الحاكمية والتشريع لله وحده:

والمتدبر في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المائدة / ٩٧﴾، ثم بعدها بآيات ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ مَّحْجِرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة / ١٠٣)، نجد أن (الجعل) هنا بمعنى الأمر والتشريع، فالله الذي شرع لنا الحج إلى الكعبة والبيت الحرام وجعلها قياماً للناس، لم يشرع ما أحدثه المشركون حول البيت من هذه التشريعات المتعلقة بالأنعام، فكما قرر التشريع للحج بالفعل "جعل" قرر نفي تشريع البحيرة وما بعدها بالفعل المنفي: "ما جعل"، وهو كناية عن عدم الرضا به والغضب على من جعله.

استنهاض للأمة للمحافظة على هويتها الحضارية وأحكام دينها:

ولحكمة أن تأتي هذه الآية قبل ختم هذه السورة المتضمنة لهذه الأحكام الحضارية بخصائص الأمة الشاهدة، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ^٥ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تقول لهم: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الزموها وحافظوا على جماعتكم، وتميزها بإقامة أحكام دينها.. فكما تقوم النفس البشرية بطعامها وغذائها، تقوم شخصية الأمة الحضارية بدينها وأحكامه، وأخلاقها وعاداتها المنبثقة من عقيدتها، وكتابها، وإذا ما حافظت الأمة على وجودها المعنوي وشخصيتها الحضارية، أمره بالمعروف، ناهية عن المنكر، واعية لأهداف الرسالة ومقاصدها، مقيمة لحدود الله وأحكامه، حذرة من الفساد والمفسدين، حريصة على درء المفساد والمنكرات، قبل انتشارها، فلا يضرها

بعد ذلك كيد الكائدين، ومكر الضالين المفسدين، ويوجهنا ربنا تبارك وتعالى إلى الحصن الحصين الذي نختمي به، ونجد عنده ثواب أعمالنا ونصرتنا لديننا، وقيامنا بأحكامه ودفاعنا عن شريعته ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عن الهدى فينبئكم بأعمالكم ويجزيكم عليها.

وإلى هذا المعنى في فهم الآية نبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» رواه أحمد وأصحاب السنن.

وكما يوجهنا رسول الله ﷺ كيف تحافظ الأمة على وجودها الحضاري المعنوي وشخصيتها الإسلامية بإقامة أحكام دينها، وتعميق انتماء أبناء الأمة لدينهم عن طريق العلم والعمل والتزكية والتربية، وإحياء مؤسسات المجتمع المدني، وتفعيلها لتقوم بواجبها في تعلم القرآن الكريم وتعليمه، ووصل الجيل بهداية الله في العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية التي تعد فروض كفاية للوفاء بحاجات الأمة المتعددة ومواجهة عوامل الهدم لأصولنا الثقافية والحضارية، أقول، وكما يوجهنا النبي الكريم هذا التوجيه للمحافظة على هوية الأمة، يوجهنا أيضاً كيف نقاوم من الداخل، ولا نركن للذين ظلموا، ولا نجاري التيار الجارف، وأن نعتصم بدين الله في مواجهة الفتن، وأن يتعاون المؤمنون ليكونوا صفّاً واحداً في وجه الفساد، صابرين محتسبين، وهذا ما بينه النبي

الكريم ﷺ فيما رواه الترمذي بسنده عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: ((ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ ۗ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ ؕ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة/ ١٠٥]، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: ((بل اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم)) قال عبد الله بن المبارك وزاد غيره قيل ((يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: لا. بل أجر خمسين منكم))^(١).

والمتدبر لألفاظ الحديث الشريف يجد تشخيص النبي ﷺ المعجز لأعراض الأمة وهي شح مطاع، وهوى متبع..

ونجد التفرقة بين العوام الذين لا يفقهون، وبين أهل العلم والتقوى، بقوله: ((ودع عنك العوام..)) وهذا يعني أن تقاوم ولا تنجرف مع التيار الغالب الفاسد، وأن تعمل وتقاوم عن طريق التنظيم والتخطيط والحركة الإيمانية الواعية التي ستواجه أنواع الابتلاء وهي تدافع عن دينها وتسعى لرفع رايته، ومقاومة الكافرين والمنافقين وهذا ما نبهنا نبينا ﷺ بقوله: ((للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم...)) وفي قوله: ((الصابر فيهن مثل القابض على الجمر..))

ولا يكون هذا الأجر الكبير على الصبر والعمل إلا ثمرة الجهاد الكبير للعاملين الصابرين الذين عرفوا كيف ينظمون صفوفهم، ويدافعون عن دينهم، ويقاومون أعداءهم.

(١) تفسير المنار / المائدة / آية ١٠٥.

قال صاحب المنار بعد ذكر هذه الروايات: «علم من هذه الروايات أن السلف اتفقوا على أن المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرد إصلاحه لنفسه، إذا لم يهتم بإصلاح غيره ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويفهم منه أن هذا فرض لازم دائم...»^(١).

بين الأحكام في أول السورة وآخرها:

وكما افتتحت السورة بالأمر بالوفاء بالعقود، تحتم آخر الأحكام المالية فيها بالأمر بحفظ الحقوق، وصيانتها، واتخاذ التدابير الشرعية والتوثيق التي تساعد في حفظها لتكون أمة الرسالة والدعوة هي أمة الوفاء بالعقود، أمة الحضارة والتشريع والنظام، أمة صيانة الحقوق وإقامة العدل، ورفع الظلم، وإيتاء كل ذي حق حقه، ولتعلن الخصيصة المميزة لهذه الأمة في دقة معاملاتها المالية، وتحسينها من الضياع وهذا ما يرشدنا ربنا تبارك وتعالى إليه بقوله:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَايَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدْنَا إِنَّا إِذَا

(١) المنار / المرجع السابق .

لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ تَخَافُوا
 أَن تُرَدُّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ ﴿المائدة/١٠٦-١٠٨﴾.

المعنى الإجمالي:

شرع الله لكم أيها المؤمنون الوصية في السفر، فعلى من يشعر بدنو أجله وهو في السفر أن يحضر اثنين ذوي عدل من أقاربه المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له، ويوصيهما بإيصال ماله لورثته، فإذا أوصلا ما عندهما إلى ورثة الميت، وارتاب الورثة في أمانة هذين الرجلين فعليهم في هذه الحالة أن يرفعوا الأمر للحاكم، وعلى الحاكم أن يستحلف الرجلين بالله بعد الصلاة، بأنهما ما كتما شيئاً من الوصية وما خانا.

فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثة الميت أن هذين الرجلين لم يكونا أمينين في أداء ما كلفهما الميت بأدائه، فعندئذ يقوم رجلان من أقرب ورثة الميت، ليحلفا بالله أن شهادتهما أحق وأولى من شهادة الرجلين، وأن هذين الرجلين لم يؤديا الوصية على وجهها.

ثم بيّن سبحانه في الآية الثالثة أن ما شرعه لهم هو أضمن طريق لأداء الشهادة على وجهها الصحيح، وعليهم أن يراقبوا الله ويتقوه، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزعروا عن الخيانة، (واتقوا الله) أن تخالفوا أحكامه، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وقبول، والله لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن الطاعة.

مناسبة النزول:

قال القرطبي: (ولا أعلم خلافاً أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الداري وعدي بن بداء، روى البخاري بسنده عن ابن عباس: «كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة، فخرج معهما فتى من بني سهم، فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله وحبسا «جاماً» أي إناء من فضة مخوصاً بالذهب أي عليه صفائح من ذهب مثل نصوص النخل، فاستحلفهما رسول الله ﷺ: «ما كنتمما، ولا اطلعتما» ثم وجد الجام بمكة فقالوا: «اشتريناه من عدي وتمام، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن الجام للسهمي، وشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، قال: فأخذوا الجام، وفيهم نزلت هذه الآيات»^(١).

حرص الشريعة الإسلامية على توثيق الحقوق وحفظ الأموال:

والمتدبر لهذه الآيات يجد حكمة الشريعة التي حوّلت أمة البادية والأعراب إلى أمة الحضارة والنظام وتوثيق الحقوق وحفظ الأموال، وقد أحسن صاحب المنار - رحمه الله - باستخلاصه للفوائد والأحكام المستفادة من هذه الآيات والتي تبين مقصد الشريعة في التوثيق والنظام.

الفوائد والأحكام المستفادة:

- ١- الحث على الوصية، وتأكيد أمرها حفظاً للحقوق وصيانة للأموال.
- ٢- الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر ليكون أمرها أثبت، والرجاء في تنفيذها أقوى.
- ٣- حسن اختيار الشهود من الموثوقين بدينهم وعدالتهم.
- ٤- إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع إذا اقتضى الأمر.

(١) تفسير القرطبي / المائدة / ١٠٦ - ١٠٨.

٥- الشهادة تشمل ما يقدمه كل من الخصمين من إقرار في القضية أو إنكار، ونفي للمدعى به أو إثباته.

٦- شرعية اختيار الأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود، ويرجى أن يصدقوا في أيمانهم.

٧- التغليظ على الحالف بصيغة اليمين، بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعاً للحالف عن الكذب.

٨- يحلف الشاهدان عند الارتياح في خبرهما، لأن الأصل في أخبار الناس الصادرة عن علم صحيح أن تكون مقبولة مصدقة، ولذلك قال ﴿فَإِنَّ عُرِّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا...﴾ أي قام دليل على عدم الأمانة.

٩- شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم في شهادتهم.

١٠- شرعية رد اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له، يمين صار حالفها خصماً له.

١١- صحة شهادة غير المسلم على المسلم والعمل بها في الجملة. (١).

وبعد ذكر هذه الأحكام والحكم المستفادة من هذه الآيات نعرف عظمة الشريعة الإسلامية، والهداية القرآنية التي فتحت عقول المسلمين، وهدتهم للانتفاع بإنجازات وخبرات الشعوب الأخرى في التدوين، والتنظيم، والتقيد، والإشهاد، لتمتد دولة الإسلام من جبال البرانس في فرنسا إلى تخوم الصين، ومن المحيط إلى الخليج، قوية قادرة على الوفاء بمحاجات الناس ومتطلبات العصر.

والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) تفسير المنار / المائدة / الآيات ١٠٦ - ١٠٨ .

خلاصة السورة

وقد رأيت في خاتمة هذا العرض لخصائص الأمة الإسلامية كما تعرضه سورة المائدة أن أخلص أهم ما تضمنته من نقاط، وهي:

أ- مقدمة السورة، وبيان أهمية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وربطه بحركة الدعوة، ونموذج للتفسير الموضوعي في سورة النمل المكية في العهدين المكي والمدني، ليكون زاداً للدعاة وطلاب العلم، ورجال الدعوة.

ب- عرض الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية كما تعرضها السورة وهي:

- الوفاء بالعقود، لتكون أمة القانون، والعدل، والمؤسسات.
- الاعتراف بالآخر وتجلية سماحة الإسلام واستيعابه للآخرين، والتعددية في ظل المجتمع الإسلامي.
- حماية الإنسان، وحفظ كرامته وحياته أن يعتدى عليها، وماله أن يعتدى عليه، وعرضه أن يؤذى، وبيته أن يقتحم، وعقله أن يغيب.
- أمة العفة والطهر وحفظ الأعراس والأنساب.
- أمة العبادة والذكر والعمل الصالح.
- إعلان هوية الأمة الحضارية بتميزها عن عادات الجاهلية في ذبائحها ومطاعمها، ومشاربها، وربط العادات بالعقيدة والتوحيد ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾
- أمة التوحيد والوحدة والولاء لله ورسوله وجماعة المؤمنين.
- دور العلماء في حفظ هوية الأمة ومسئوليتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتذكير بأحكام الله.
- محاورة أهل الكتاب القائمة على الحجة والبرهان وأنه لا إكراه في الدين.

وبعد هذا الإيجاز لأهم الخصائص الحضارية التي حاولت إبرازها من خلال الوقوف عند الآيات الكريمة واستخلاص الأحكام والحكم منها، أفصل بعض التفصيل في ذلك، مشيراً إلى أرقام الصفحات، وبعض الآيات ليتمكن القارئ من الوصول إليها بيسر، وعلى النحو التالي :

ص ٦: الجو الذي نزلت فيه السورة: امتدّ نزول السورة من السنة السادسة والنصف للهجرة إلى عام حجة الوداع في العاشرة للهجرة وكانت هذه الفترة من الأهمية بمكان لاستكمال شرائع الإسلام المتصلة بوجود الأمة وهويتها.

ص ٧: أسماء السورة / المائدة / العقود ، المنقذة / الأخيار .

ص ١٠: التفسير الحركي واستحضار مراحل الدعوة وأهدافها التربوية والاجتماعية والسياسية.

ص ١١-١٤: تفسير سورة النمل - نموذج - لبيان مقصد القرآن العظيم في بيان أهمية المعلومة والحصول عليها ، وتمحيصها، وحسن توظيفها.

ص ١٤-١٧: سورة المائدة : دراسة من خلال تسليط الضوء على المرحلة الزمنية وحركة الدعوة في هذه المرحلة .. ففي هذه المرحلة التي أصبح فيها للمسلمين دولة وسلطان، يؤدب الله الجماعة المسلمة بجملة من الأحكام التي تحررهم من طغيان السلطة، وتلزمهم بخلق العدل، وتحذرهم من العدوان على أموال الناس ودمائهم ولو كانوا مخالفين في العقيدة.

خصائص الأمة الحضارية

ص ١٨: الخصيصة الأولى : الوفاء بالعقود / وإقامة دولة القانون والمؤسسات ليكون الوفاء بالعقود عنواناً حضارياً للأمة الإسلامية التي نقل الإسلام بها العرب من حياة النهب والسلب والعدوان إلى أمة القانون والنظام وحفظ حقوق الآخرين لتشمل العقود في معناها الشامل: عقد بين الله تعالى وبين العبد، وعقد بين العبد ونفسه،

وعقد بينه وبين غيره من البشر وفي ظل هذه المعاني نفهم الآيات ٦ ، ١٢ - ١٥ من سورة المائدة.

ص ٢٢: الخصيصة الثانية : إقامة مجتمع العدل وحفظ كرامة الإنسان في ماله وحرية في تنقله من خلال تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) المائدة.

ص ٢٥: وفي قوله تعالى (ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) ما ينبه إلى تحريم استغلال السلطة لتصفية الحسابات مع المعارضين.

ص ٢٥: الخصيصة الثالثة: سماحة المسلم واحترام اليهود مع المخالفين واستيعابه للمعارضين .. وتفسير قوله تعالى (لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد) .

ص ٢٦: التعاون على البر والتقوى: فالأمة المسلمة مدعوة لتحشد قواها للدفاع عن الإسلام عقيدة وشريعة، كما هي مدعوة للوقوف في وجه مشاريع الفساد الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإعلامية.

ص ٣١: الخصيصة الرابعة: مسؤولية العلماء في حفظ الشريعة ونصرتها وتفسير الآيات ٦٣، ٦٧ ، ٤٤ من سورة المائدة / و ١١٦ - ١١٧ من سورة هود.

ص ٣٨: مسؤولية المجالس التشريعية في الحكم بشريعة الله وتحذيرها من الخروج عن حكم الله.

ص ٣٩: الاعتراف بالآخر ومفهوم التعددية في ظل الإسلام.

ص ٤٢: إباحة الزواج من الكتائيات يتم بشرطين يحفظان أمن المجتمع ونقاءه وطهره.

ص ٤٤: شخصية الأمة الحضارية وعهد القوة والتميز، وتفسير قوله تعالى: (اليوم يبس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم وانحشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً). فالتنويه بهذا اليوم هو إعلان عنوان مرحلة

زمنية جديدة في مسيرة الدعوة وهي مرحلة التمكين والنصر وإعلان تحريم ذبائح الجاهلية والتميز عنها وإعلان سلطان عقيدة التوحيد في التحريم والتحليل وتفسير قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم) ٣ / المائدة .

ص ٤٤: وتفسير قوله تعالى: (... وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم)...

ص ٤٧: تفسير لمعنى الاستقسام بالأزلام.

ص ٤٩: تفسير صاحب الكشاف لقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) .

ص ٥٠: سماحة الإسلام ويسر الشريعة وتفسير قوله تعالى: (فمن اضطر في

مخمصة).

ص ٥١-٥٢: تفسير قوله تعالى (وما علمتم من الجوارح العلم والدرية من سمات

المسلم الحضارية وتفسير قوله تعالى (تعلموهن مما علمكم الله). الآية (٤/المائدة).

ص ٥٣: أمة الطهارة والعبادة هي أمة العدل والقانون .

ص ٥٤: وهي أمة الجهاد والدفاع عن الدين والحرمات.

ص ٥٥: كيف ربط الإمام الرازي بين مطلع السورة بالوفاء بالعقود، وبين ما

أحلّه الله لنا من الطيبات .

ص ٥٦: الأحكام المستفادة من آية الوضوء.

ص ٥٩: قاعدة رفع الحرج وتفسير صاحب المنار لقوله تعالى (وجاهدوا في الله

حق جهاده / الحج / ٧٨).

ص ٦٠: من خصائص الشخصية الإسلامية انتفاعها بالأحداث.

ص ٦٢: من خصائص المسلم الحضارية أنه قوام لله شاهد بالقسط قائم بالعدل.

ص ٦٦: قتل القادة واغتيالهم مكر يهودي قديم.

ص ٦٧: التربية بالقدوة وحسن الانتفاع بدروس التاريخ وما حصل لبني

إسرائيل.

- ص ٧٤: تفسير قوله تعالى: (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم / المائدة (١٣))،
 وقوله تعالى: إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين (المائدة (٢٢)).
- ص ٧٦: عقوبة قساوة القلب والمسوخ والاجترار على دين الله.
- ص ٨٤: دروس القرآن التربوية والميثاق .
- ص ٨٨: خصائص الرسالة الإسلامية وفضلها على أهل الكتاب والناس جميعاً.
- ص ٩١: خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب .
- ص ٩٤: عالمية رسالة محمد ﷺ .
- ص ٩٦: هيمنة الرسالة القرآنية على الكتب السابقة .
- ص ٩٨: حوار القرآن لأهل الكتاب .
- ص ١٠٦: فريضة الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من الشرك والمشركين وتفسير
 (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم).
- ص ١٠٨: رجال الدعوة هم قادة الجهاد وتفسير قوله تعالى: (قال رجلان من
 الذين يخافون أنعم الله عليهما).
- ص ١١١: عقوبة التيه للمعطلين للجهاد والجناء .
- ص ١١٤: مكانة القدس والأقصى في الإسلام.
- ص ١١٥ - ١١٧: فساد بني إسرائيل وعداوتهم للأنبياء وحسد لهم للنبي ﷺ .
- ص ١٢٠: بنو إسرائيل يجددون جريمة قاييل / الآية ٢٧ / المائدة .
- ص ١٢٣: حث الضحايا وشهادة التاريخ.
- ص ١٢٥: الآية (٣٢) مع تحليل واستخلاص للحكم التربوية والتشريعية.
- ص ١٢٨: حفظ أمن المجتمع بالعقوبة الزاجرة وتفسير قوله تعالى: (إنما جزاء
 الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً).
- ص ١٣٤: فتح باب التوبة للمجرمين يلتقي مع هدف التشريع أن الإصلاح
 بالتوبة والتربية قبل العقوبة والتنكيل.

ص ١٣٤-١٣٦: كيف يحصن الإسلام المجتمع الإسلامي بتوجيه الأمة لتكون جند الإسلام في حفظ أمن المجتمع، وحكمة مجيئ قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون) بعد الآيات التي ذكرت حدّ الحراية.

ص ١٣٧: التعبئة المعنوية للأمة للوفاء والالتزام بشرع الله. في تفسير قوله تعالى: (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً) المائدة ٣٦ / ٣٧ .

ص ١٣٨: سعادة الإنسان بإيمانه وعمله الصالح لا بعمل غيره، وما ذكره صاحب المنار.

ص ١٤٤: تحصين الأمة في مواجهة اليهود وأعوانهم وعملائهم بتفسير قوله تعالى: " يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمناً بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك (٤١ و ٤٢) المائدة .

ص ١٥٤: من خصائص المجتمع الإسلامي ولاؤه لله ورسوله وجماعة المؤمنين .

(والماسونية) تنظيم يهودي لتفريغ مضمون الولاء ومسح الهوية والانتماء.

ص ١٦٠: التنظيمات الإيمانية الشعبية وربط الولاء بالله ورسوله هي طريق المقاومة وسدّ الطريق على التنظيمات والفاصلة.

ص ١٦٢: من أسس التربية الإيمانية الحركية للتنظيم الشعبي الجهادي :

١- (يجبهم ويحبونه)

٢- (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)

٣- (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) الحشر (٨)

-٩).

٤- (محمد رسول الله والذين معه) الفتح ٢٩.

ص ١٦٩: (إن الذين آمنوا وهاجروا) الأنفال / ٧٢. وشرح مفهوم الهجرة.

- ص ١٧٢: تحصين الأمة بهويتها وثقافتها الإيمانية.
- ص ١٧٢: مفهوم الولاء لله ورسوله درع في وجه الاستجابة لمطالب الأعداء بالتنازل عن الثواب.
- ص ١٧٥: تحصين الأمة بالحجة والبرهان وتفسير الآيات ٥٩ - ٦٦ /، المائدة والرد على العقائد المنحرفة عند أهل الكتاب.
- ص ١٧٩: مواعظ من سيرة أهل الكتاب ومنها أن الخروج عن هداية الأنبياء يؤدي إلى طمس الهوية وهو نوع من المسخ المعنوي. وأساليب كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ والمسلمين.
- ص ١٨٥: مسؤولية العلماء في مواجهة الفساد، ودور علماء السلطة في خيانة الأمانة وتضليل الأمة وهلاكها وتفسير قوله تعالى: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) ٦٣ / المائدة.
- ص ١٨٩: تفسير قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) وكيف يصور هزيمتهم الثقافية والخلقية حين يجهر في مجتمعاتهم بهذا القول الخطير المنكر! وما يذكره هذا القول من نشر مجلة عسكرية في بلد عربي قبل هزيمة حزيران (سحبس الله في متحف)!! وكانت الهزيمة على أيديهم وتسليمهم البلاد للأعداء. قاتلهم الله وأبطل كيدهم.
- ص ١٩٠: حسد اليهود واستعلاؤهم وإشعالهم لنار الفتنة.
- ص ١٩٢-١٩٣: دعوة أهل الكتاب للهدى وترغيبهم: (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل).
- ص ١٩٤: إنصاف القرآن لأهل الكتاب.
- ص ١٩٦: وقفة عند معاني قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) المائدة / ٦٧ / والمائدة ٤١.

ص ٢٠١: حقيقة الدين بالإيمان والعمل الصالح وتفسير قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) المائدة ٦٩ .

ص ٢٠٤: تفصيل في فساد بني إسرائيل واجترائهم على الدعوة والرسول والعلماء وتفسير قوله تعالى (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) / المائدة / ٧٠ .
ص ٢٠٥-٢٠٨: وزيادة بيان بما ورد في سور المائدة والإسراء والأعراف والبقرة.

ص ٢١٣: تصحيح عقائد النصارى وتفسير قوله تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم).

ص ٢١٤: عقيدة التثليث وثنية في أصلها.

ص ٢١٥: دلائل الوحدانية والعلم الحديث .

ص ٢١٦-٢١٨: تصحيح العقائد ورد الشبهات .

ص ٢١٩: تناقض العقيدة النصرانية .

ص ٢٢٧: كيف نحارب الغلو وتفسير قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) . المائدة / ٧٧ .

ص ٢٢٩: تضافر الحجج على عبودية المسيح لله تعالى .

ص ٢٣٥: الحواريون رجال الدعوة وأنصار النبي، وتحليل معنى كلمة (حواري).

وصف الله أصحاب محمد ﷺ في القرآن الكريم والتوراة والإنجيل كما وصف الله نبيه في هذه الكتب .

ص ٢٣٧: الحواريون في كتاب الله .

ص ٢٣٩: الحوارى يستأذن لىرى وىطنفى غلة الشوق فى تفسىر قوله تعالى: (إذ قال الحوارىون یا عىسى ابن مرىم هل ىستطىع ربك أن ىترل علینا مائدة من السماء) المائدة ١١٢ و ١١٣.

ص ٢٤٣: وحدة الأمة الإىمانیة ثقافة وتاریحاً وفلسفة العىد فى الإسلام، وسنة الله فى المعجزات ألا تكون بطلب من الناس وإنما ىجرىها الله ابتداءً على ىد نبیه تصدیقاً له. ص ٢٤٦ - ٢٥٠: تبرؤ عىسى علیه السلام من دعوى الألوهیة وإقراره بأنه عبد الله ورسوله.

ص ٢٥١: تفسىر قوله تعالى: (هذا یوم ینفع الصادقین صدقهم) لنجد الترابط بین مطلع السورة الی أمرت بالوفاء بالعقود، و بین خاتمها الی بشرت من صدقوا بعقودهم ووفوا بها مع الله ومع الناس بالثواب العظیم یوم القیامة.

ص ٢٥٢: بیان تمیز الأمة الإسلامیة المهدیة بشریعة الله بالاعتدال فى المطعم والمشرب وتحریمها ما یغتال العقول و ىهدر المال، وهى أمة النظام والتوثیق وحفظ الحقوق والوفاء بعقودها وأیمانها من خلال تفسىر الآیات الکریمة ٨٧ - ٩٥ / المائدة .

ص ٢٥٩: المعالم الإىمانیة لحیة المسلم وكیف یتناول الطیبات غیر مشغول بها ، من غیر إسراف ولا تقتریر من خلال تفسىر الآیات الکریمة :

(ویوم ىعرض الذین كفروا على النار أذهبتم طیباتكم فى حیاتكم الدنیا واستمتعتم بها) الأحقاف ٢٠.

(إنما الحیة الدنیا لعب ولهو) محمد / ٣٦ . اللذة المادیة تصنع فرحة مؤقتة، والمتعة الروحیة تصنع السعادة الدائمة. وتفسىر قوله تعالى: (وابتغ فما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصیبك من الدنیا) القصص ٧٧. وقصة صاحب الجنتين / سورة الكهف ٣٣ - ٤٦. وسورة یونس ٨ - ١٠ / وسورة آل عمران ١٩٠ - ١٩٥ وسورة الفرقان ٦١ - ٧٧ ، وسورة ص / ٤٥ - ٤٧ .

ص ٢٦٦: اسم الله العظیم تحصین للأمة المسلمة فى معاملاتها المالیة والاجتماعیة.

- ص ٢٦٨-٢٧٢: أنواع الأيمان وتفصيل لشيخ الإسلام.
- ص ٢٧٤: تحريم الخمر والميسر والأهداف الكبرى لأمة الإسلام .
- ص ٢٧٨: دلائل تحريم الخمر والميسر القطعية من الآية الكريمة .
- ص ٢٨٧: التربية في ظلال الامتحان والابتلاء وتفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليلوئكم الله بشيء من الصيد) ٩٤ / المائدة .
- ص ٢٨٨: من سنن الله في عباده أن يتليهم ليصفيهم وليخلص لنصرته أوليائه الصادقون / والاستشهاد بقصة جنود طالوت / البقرة ٢٤٩ - ٢٥١ .
- ص ٢٩١-٢٩٦: تحريم الصيد في الحرم وكفارته وآداب الحج وحكمة التشريع.
- ص ٢٩٦: ثروة البحر الاقتصادية ووجوب المحافظة عليها / المائدة ٩٥ - ٩٦ .
- ص ٢٩٧ - ٢٩٩: الكعبة المشرفة معلم التوحيد والوحدة والمعنى الحضاري لشعائر الحج / المائدة / ٩٧ .
- ص ٣٠٢: تعميق الوعي الإيماني وتأصيله وتفسير وقوله تعالى: (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) المائدة / ١٠٠ .
- ص ٣٠٤: وتفسير صاحب الكشاف لقوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) طه / ١٣١ .
- ص ٣٠٦: بين المفتون بالدنيا والمؤمن المتطلع إلى جنة ربه.
- ص ٣٠٦: الأمة الإسلامية أمة جادة تخطط للانتفاع بالوقت ، وعلى هدى الله، ولا تضيع العمر بالأسئلة والقضايا الفارغة.
- ص ٣٠٩: كيف حرر الإسلام المجتمعات من عادات الجاهلية وعقائدها التي تهدر ثرواتهم الحيوانية والزراعية، وتحولها إلى الكهنة وأعوامهم .. وتفسير قوله تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) ١٠٣ - ١٠٥ / المائدة .
- ص ٣١٣: وتفسير قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) لنجد أن الجعل في الآيتين بمعنى الأمر والتشريع فالذي شرع لنا الحج إلى الكعبة والبيت

الحرام وجعلها قياماً للناس لم يشرع ما أحدثه المشركون حول البيت من هذه التشريعات المتعلقة بالأنعام، فكما قرر التشريع للحج بالفعل (جعل) قرر نفي تشريع البحيرة وما بعدها بالفعل المنفي (ما جعل) وهو كناية عن عدم الرضا به، والغضب على من جعله.

ص ٣١٤: استنهاض الأمة للمحافظة على هويتها الحضارية وشريعة ربها بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) (١٠٥ / المائدة).

ص ٣١٧: وكما افتتحت أول السورة بالوفاء بالعقود وختمت بذكر ثواب الصادقين مع الله بعقود الله وأيمانهم وكذلك تختتم آخر الأحكام المالية فيها بالأمر بحفظ الحقوق، وصيانتها، واتخاذ التوثيقات الشرعية التي تساعد في حفظها، وتفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت) (المائدة / ١٠٦ - ١٠٨).

- ١٢- " تفسير التحرير والتنوير " تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر .
- ١٣- " التفسير الوسيط للقرآن الكريم " تأليف الدكتور محمد السيد طنطاوي .
- ١٤- " المقتطف من عيون التفاسير " تأليف العلامة مصطفى الخيري المنصوري- تحقيق محمد علي الصابوني.
- ١٥- مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراجب الأصفهاني .
- ١٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل - الشهرير بتفسير النسفي للإمام عبدالله ابن أحمد بن محمود النسفي - الناشر: دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان.
- ١٧- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري (لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزري الكلي الغرناطي) الدار العربية للكتاب / تونس .
- ١٨- التفسير الكبير - للإمام الفخر الرازي ط ٢ - نشر دار الكتب العلمية/ طهران.
- ١٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - الشهرير بتفسير أبي السعود- تأليف أبي السعود محمد بن محمد العمادي- مطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
- ٢٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - الشهرير بتفسير البيضاوي - تأليف الإمام ناصر الدين أبو الخير عبدالله الشيرازي البيضاوي - دار الفكر.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم - المشهور بتفسير ابن كثير - لأبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي - طبع دار الأندلس / بيروت.
- ٢٢- الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطي / طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة .

- ٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للألوسي البغدادي /
 طبعة إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.
- ٢٤- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي- الطبعة الأولى
 ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ٢٥- في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب إبراهيم - طبعة دار الشروق / بيروت.
- ٢٦- محاسن التأويل - الشهير بتفسير القاسمي - تأليف محمد جمال الدين القاسمي /
 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبعة دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي
 الحلبي/ القاهرة .
- ٢٧- أحكام القرآن الكريم لحجة الإسلام أبي بكر أحمد بن علي الرازي/ الجصاص
 - تحقيق محمد صادق قمحاوي/ الناشر: دار المصحف - شركة مكتبة
 ومطبعة عبدالرحمن محمد - القاهرة.
- ٢٨- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبدالله - المعروف بابن العربي المالكي -
 تحقيق علي محمد البحراوي - الطبعة الثانية/ الناشر: عيسى البابي الحلبي
 وشركاه - القاهرة.
- ٢٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تأليف محمد
 ابن علي بن محمد الشوكاني ط٢ / الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى
 البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- ٣٠- المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء/ تأليف الشيخ محمد محمد المدني/
 الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.
- ٣١- النكت والعيون - تفسير الماوردي - لأبي الحسن علي بن حبيب المارودي -
 مراجعة د. عبدالستار أبوغدة/ الناشر: وزارة الأوقاف - الكويت.

- ٣٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية - تأليف سليمان ابن
عمر العجيلي الشهير بالجمل - طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه -
عصر القاهرة .
- ٣٣- البحر المحيط لأبي حيان.

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد يشمل:	٥
أ- الجو الذي نزلت فيه السورة، والمرحلة الزمنية من عمر الدعوة	
ب- خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، كما تعرضها السورة	
أسماء السورة	٧
التفسير الحركي أو استحضار مراحل الدعوة وأهدافها التربوية	١٠
سورة المائدة في ظلال هذا المنهج	١٤
الخصيصة الأولى: الوفاء بالعقود وبناء الشخصية الحضارية	١٨
الخصيصة الثانية: القيام بالعدل وإقامة دولة القانون وحفظ أمن الإنسان	
وكرامته وماله وحرية	٢٢
الخصيصة الثالثة: سماحة الإسلام واحترامه لعهوده مع المخالفين واستيعابه	
للمعارضين	٢٥
التعاون على البر والتقوى	٢٦
الخصيصة الرابعة: مسؤولية العلماء في حفظ الشريعة ونصرتها	٣١
الاعتراف بالآخر، والتعددية في ظل الإسلام	٣٩
شخصية الأمة الحضارية في عهد القوة والتميز	٤٤
سماحة الإسلام ويسر الشريعة الإسلامية	٥٠
العلم والدربة من سمات المسلم الحضارية	٥٢
بعض الأحكام المستفادة من آية الوضوء	٥٦
من خصائص الشخصية الإسلامية، انتفاعها بالأحداث	٦٠

٦٢	المسلم قوام لله، شاهد بالقسط
٦٤	بشرى لأهل العدل والتقوى
٦٦	قتل القادة واغتيالهم، مكر يهودي قلم
٦٧	التربية بالقذوة وحسن الانتفاع بالتاريخ
٧٤	عقوبة أمة الرسالة التي تخوفها
٨٢	النصارى والميثاق
٨٨	خصائص الرسالة الإسلامية وفضلها على أهل الكتاب وعلى الناس جميعاً
٩٤	عالمية الرسالة الإسلامية
٩٧	خصائص القرآن الكريم
٩٨	حوار القرآن لأهل الكتاب
١٠٥	كيف نصون حرية الأمة واستقلالها؟
١٠٨	رجال الدعوة هم قادة الجهاد
١١١	عقوبة المعطلين للجهاد
١١٧	حسد ابن آدم لأخيه، وحسد بني إسرائيل للنبي ﷺ وأمه
١٢٥	مجتمع الأمن والعدل والسلام
١٣١	الأحكام الزاجرة
١٣٧	التعبئة المعنوية للأمة والإصلاح من الداخل
١٣٩	حماية أموال الناس
١٤٤	تحصين الأمة في مواجهة اليهود وأعدائهم
١٥٤	من خصائص المجتمع الإسلامي ولاؤه لله ورسوله وجماعة المؤمنين
١٥٥	الماسونية تنظيم يهودي يطمس الهوية والانتماء
١٦٠	طريق التحرير: كيف تنظم الأمة صفها؟

١٦٢	التنظيم لتحقيق الأهداف
١٦٩	نداء للأمة
١٧١	النصرة والمجزة
١٧٢	تحصين الأمة إيماناً وثقافة وهوية
١٧٥	تحصين الأمة بالحجة والبرهان
١٧٨	عقوبات الأمم السابقة مواعظ للأمم اللاحقة
١٨١	المسخ وطمس الهوية
١٨٥	مسؤولية العلماء في مواجهة الفساد
١٨٨	إقامة الحججة على بني إسرائيل
١٩٢	سنة الله في سعة الرزق
١٩٤	إنصاف القرآن لأهل الكتاب
١٩٥	رسالة الإسلام المنقذة
٢٠١	حقيقة الدين بالإيمان والعمل الصالح
٢٠٤	اجتراء بني إسرائيل على الدعوة والرسول والعلماء
٢١٠	الانحراف والجهل والغرور
٢١٣	تصحيح عقائد النصارى
٢١٩	تناقض العقيدة النصرانية
٢٢٧	كيف نضبط الأفكار المغالية ونحفظ وحدة الأمة ؟
٢٣٢	مقام الدعوة إلى الله
٢٣٣	معجزات الرسل تقرير لعبوديتهم لله
٢٣٥	الحواريون، رجال الدعوة وأنصار النبي
٢٤٦	من مشاهد يوم القيامة

٢٥١	خاتمة السورة من دلائل الإعجاز
٢٥٥	بين حضارتين
٢٥٩	بين اتجاهين
٢٦٦	اسم الله العظيم خصانة للأمة المسلمة
٢٦٨	الأحكام المستفادة من آية الأيمان
٢٧٢	تفصيل لشيخ الإسلام ابن تيمية في الأيمان
٢٧٤	تحريم الخمر والميسر والأهداف الكبرى للأمة المسلمة
٢٨٧	التربية في ظلال الامتحان والابتلاء
٢٩١	حكمة التربية في تشريع الصيد
٢٩٦	كيف نحفظ ثروة المسلمين في برهم وبجرهم؟
٢٩٧	الكعبة المشرفة معلم التوحيد والوحدة
٢٩٩	المعنى الحضاري العظيم في شعائر الحج
٣١٢	التقليد الأعمى للآباء وتحرير العقل منه
٣١٤	استنهاض الأمة للمحافظة على هويتها الحضارية
٣١٧	الأحكام في أول سورة المائدة وآخرها
٣١٩	حرص الشريعة الإسلامية على توثيق الحقوق وحفظ الأموال
٣٢١	خلاصة السورة
٣٣٢	قائمة المراجع

رَفَعُ

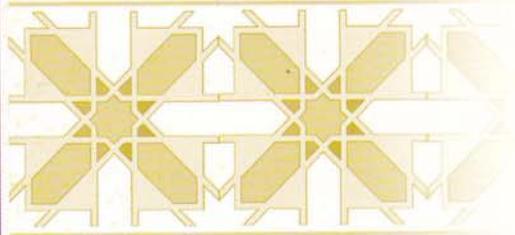
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة



من منشورات

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: 06-5153558-5153557

فاكس: 5163925

ص. ب.: 925894 الرمز البريدي 11190

حساب رقم: 17671 البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين - عمان